أهل الوادي

دراسة للمجتمع السعودي أثناء مرحلة الانتقال

تأليف : د. موتوكو كاتاكورا

تقديم : ج. س. هورويتز



بسم الله الرحمن الرحيم

أهل الوادي

دراسة للمجتمع السعودي أثناء مرحلة الانتقال

تأليف : د. موتوكو كاتاكورا

تقديم : ج.س. هورويتز





رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٩٦/٢٢٤٢
الرقم الدولي المعياري
I.S.B.N. 977 - 5444 - 09 - 8

جمهورية مصر العربية

دار القارىء العربي
١٤ شارع عبد الله دراز - أرض الجولف - مصر الجديدة - القاهرة
هاتف: ٢٩٠٦٧١٥ فاكس: ٢٩٠٦٧١٧

المملكة العربية السعودية

الدار السعودية للنشر والتوزيع
جدة: - الإدارة: البغدادية - عمارة الجوهرة
هاتف: ٦٤٤٩١٩٢ - ٦٤٢٤٢٥٥ - ٦٤٢٤٠٤٣
فاكس: ٦٤٣٢٨٢١ ص.ب. ٢٠٤٣
جدة ٢١٤٥١ / برقيا: نشر دار
المكتبات: ١ - شارع الملك عبد العزيز - هاتف: ٦٤٧٨٧٢٣
٢ - مركز الزومان - ش فلسطين
هاتف: ٦٦٠٨٩٦٤
فرع الدمام: ص.ب. ٨٩٩ الدمام ٢١٤٢١
هاتف: ٨٣٤٧٧٦٩
فاكس: ٨٣٣٥٥٢٠
فرع الرياض: ص.ب. ٢٩٩٩ الرياض ١١٤٦١
هاتف: ٤٦٤٧٤٤٨
فاكس ٤٦٤٧٤٤١

UNITED KINGDOM

Makkah Advertising International Cornwall House
55/77 High street
Slough- Berkshire SL1 1DZ
Tel: (0753) 516969
Fax: (0753) 517001

USA

NEW ERA PUBLICATIONS
P.O. BOX 130109
Ann Arbor, MI 48113- 0109
USA



توزيع:
دار النفائس بيروت - ص.ب: ١٤/٥١٥٢ - هاتف: ٨١٠١٩٤

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

تقديم

بقلم الأستاذ عبدالرحيم مطلق الأحمدي

أنا يابانية لا أنثني عن مرادي أو أذوق العطبا

بيت من قصيدة لشاعر النيل حافظ إبراهيم تعبر عن قوة الإرادة لدى المرأة اليابانية وإخلاصها في سبيل أداء دورها في الحياة .

لم يكن لهذا البيت من الوقع في نفسي غير ما يكون لبيت شارد في قصيدة لعب خيال الشاعر في تشكيلها لتوافق هوىً في نفسه ، وتحدث تأثيراً في المتلقي ، حتى إذا ما عرفت السيدة البروفسورة موتوكو كاتاكورا ، أستاذة علم الجغرافيا البشرية في جامعة طوكيو وعضو هيئة المتحف الوطني في مدينة أوساكا اليابانية ، عندها استعذبت ترديد هذا البيت وأيقنت أنه أُسس على حقيقة صادقة عن واقع المرأة اليابانية وأسلوبها في الحياة .

كان أول لقاء بالسيدة كاتاكورا في ديسمبر١٩٦٨م حين دلفت إلى مكتبي في مركز التنمية الاجتماعية بوادي فاطمة ، رفقة زوجها السيد كونيكو كاتاكورا الذي شغل عدة مناصب رفيعة المستوى في وزارة الخارجية اليابانية ، كان آخرها سفيراً لبلاده في العراق وما يزال يشغل هذا المنصب .

كانت السيدة كاتاكورا وهي تلقي التحية «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» مدعمة بالتحية اليابانية ، كانت مدججة بوسائل التسجيل من كاميرات ومسجلات ، إلى غير ذلك من الوسائل السمعية والبصرية والحقائب الملأى بالأقلام والبطاقات والأفلام .

لم تنتظر السيدة الانتهاء من أحاديث المجاملة التي بدأها السيد كاتاكورا فقد بادرت بتقديم أوراق التوصية بمساعدتها في إجراء دراسة حول «البناء الاقتصادي لقرى البدو» وتفصيل عن خطتها لإنجاز تلك الدراسة .

ولما تعودت لقاء كثير من الباحثين والباحثات ممن يستعينون بمركزنا لتسهيل قيامهم ببحوثهم ودراساتهم الأكاديمية ، فإني لم أولِ هذه الظاهرة ، المجسدة في اهتمام ضيفتنا وأشيائها المصطحبة ، حماساً زائداً ، ولم يغير ذلك من انطباعي عن هذا النوع من الباحثين ، الذين كان يكفيهم هذا الكفاف من المعلومات والبيانات لدراساتهم ، ذلك أن مجتمعنا بكر وخصب في مجال الدراسات الإنسانية ، فأية معلومات يدونها باحث تحظى بالترحيب والإكبار ، بل تعدُّ فتحاً مجيداً في ميدان هذه الدراسات ، غير أن الأيام التالية كشفت أن السيدة كاتاكورا نوع فريد من الباحثين والباحثات . فإلى جانب ما عرف عن أدب اليابانيين في البحث والاستقصاء والجدِّ والدقة في العمل ، والحرص على عدم هدر الوقت فيما لا نفع منه ، فإنها كانت تجيد العمل مع الناس وتكسب ثقتهم بدرجة فائقة ، كان ذلك طبعاً وخلقاً فيها لا تزلفاً لقضاء حاجتها ، وقد ارتبطت صلاتها بالمنطقة بعد إنهاء الدراسة فتعهدتها بالزيارة كلما قدمت إلى المملكة ، وكانت تستخدم منهج الشمولية في إثراء دراستها ودعمها بروافد المعرفة والبيان .

وكان لتوجيهي بمساعدتها وتقديم العون لها فضل في إتاحة فرصة ثمينة لي ولزملاء في المركز ، للاستفادة من العمل معها والتزود من علمها وخبرتها وأسلوبها في العمل مع الناس مما ينعكس على أدائنا للعمل الاجتماعي ويمدنا بخبرات جديدة .

ومن هنا فإن ما أدوِّنه ، في هذه الأسطر القليلة ، إنما هو انطباعات مؤسسة على معايشة للباحثة ومعرفة بالخطوات التي اتبعتها في جمع مادة هذه الدراسة طوال ما يقارب العامين .

والذين يعملون في مجال الدراسات ، ويعرفون طبيعة مجتمعاتنا المحلية ، يدركون مدى الصعوبات التي تواجه الباحثين المحليين ، ويقدرون ، في ضوء ذلك ، الجهود والنتائج التي تسفر عنها دراساتهم ، فما بالك بباحثة ليست من هذه المجتمعات ولا تجيد اللغة العربية إجادة تامة ؟ .

لقد واجهت السيدة كاتاكورا صعوبات جمَّة ، طبيعية واجتماعية ، مما

شككنا في احتمال استمرارها في العمل لإجراء الدراسة ، ولكنها كانت تمتص الصدمات ، وتستعين عليها بالأناة والصبر والأمل في زوال حدتها ، تاركة ذلك للوقت الذي كانت تقلقها سرعته ، ولقد تحقق لها ما توقعت حدوثه لما ألفت من علاقات حميمة مع المزارعين وربات البيوت والمسؤولين ، ممن كانوا عنصراً هاماً في مسار ومقومات دراستها ، وهذا ما ساعدها على الحصول على المعلومات والبيانات الصحيحة مما أعطى هذه الدراسة أهمية خاصة للاعتماد عليها مصدراً من مصادر المعرفة .

وعامل آخر أعطى هذه الدراسة أهمية علمية ، ذلك أنها أول دراسة اقتصادية اجتماعية تجري في مرحلة زمنية ذات سمات خاصة وخصائص مميزة ، ذلك أنها سبقت ما قبل مرحلة الطفرة التي شهدتها البلاد ، وبداية مرحلة الانتقال إلى مرحلة التحول الاجتماعي ، الذي استهدف المنطقة ، مما يشجع على القيام بدراسات متابعة وتقويم تؤسس على هذه الدراسة الفريدة في نوعها .

وإن هذه الدراسة تعتبر قناة اتصال معرفية بين مجتمعين صديقين هما «اليابان والمملكة العربية السعودية» تدعم قنوات الاتصال الأخرى من تجارية واقتصادية وسياسية ، ولهذا الاتجاه مدلوله في التواصل الإنساني بين المجتمعات البشرية .

كما تعد هذه الدراسة إنجازاً رفيع المستوى ، فهي ثمرة جهد مضنٍ وخلاصة عمل جاد ، أسست على منهج علمي ، وتضم معلومات وبيانات دقيقة وهامة قد لا تتوفر في أي مصدر آخر عن تلك الحقبة الزمنية ، والمنطقة الزراعية ذات التاريخ الضارب في العمق ، والكثافة السكانية الآخذة في الازدياد ، والأهمية الاقتصادية في تغذية مدينتي مكة المكرمة وجدة بالماء وبالانتاج الزراعي .

ولا يفوتني أن أشير إلى أنني تجنَّبت الخوض في متن الدراسة ، بل اقتصرت على التنويه بالعمليات التي شهدت استنفارها لانتاج هذا الإصدار الهام ، وعلى تلك الجهود المخلصة أبنت الرأي بأن القارىء والباحث المتخصص سيجدان في هذه الدراسة نفحات من الإخلاص العلمي وغذاء من المعلومات والحقائق الاقتصادية والاجتماعية التي يتوق إلى معرفتها الباحث الحصيف .

وأخيراً ، لا أعتقد أنه يغيب عن فطنة القارىء مدى التأثير الثقافي الذي تخلفه كل ثقافة على نتاج أبنائها الفكري ، وعلى تذوقهم لأعمال الآخرين الفكرية

مما يحتم علينا ألا نصدر الأحكام جزافاً على تلك الأعمال ، التي نقرأها ، أو ندرسها ، بل نقومها وفق تقديرنا للظروف المحيطة بنشأتها واعترافنا بالمؤثرات الثقافية ، وفي هذه الدراسة نجد امتزاج التناول الشرقي الحسي للقضايا الاجتماعية بالمعالجة المنهجية المعاصرة .

ختاماً أهنىء السيدة كاتاكورا على هذا الإنجاز الرائع وأردد :

أنـا يـابـانـيـة لا أنـثـنـي عـن مـرادي أو أذوق الـعـطـبـا

عبدالرحيم مطلق الأحمدي

مقدمة

بقلم : الأستاذ الدكتور عبدالله حسن مصري

يسرني كثيراً أن أكتب مقدمة لهذا الكتاب الجديد في موضوعه والقيم في مادته ، والذي هو مساهمة جدية في مجموعة الدراسات الإثنوغرافية الحديثة عن المملكة العربية السعودية ، تلك الدراسات التي بدأت بالظهور في السنوات الأخيرة ، وإن كان ذلك بشكل بطيء إلى حد ما . وعلى الرغم من صدور عدد من التقارير الوصفية الأقدم عهداً للثقافة والمجتمع في المملكة العربية السعودية ، مثل كتب فليبي وموزيل وتويتشل وتوماس وتسيغر وغيرهم ، وكذلك عدد من الدراسات التحليلية الأحدث عهداً ، مثل كتاب كول بعنوان « بادية أهل البادية » ، الصادر سنة ١٩٧٦ ، فإن حقل الدراسات الإثنوغرافية (أي الدراسات عن أجناس السكان وعاداتهم) عن المملكة العربية السعودية ، لا يزال يعاني من نقص شديد ، ولذلك كان هذا الكتاب إضافة قيمة ، ودراسة جديرة بالترحيب .

ومؤلفة هذا الكتاب الدكتورة موتوكو كاتاكورا ، الأستاذة حالياً في إحدى الجامعات اليابانية ، كانت تقيم في المملكة العربية السعودية في السبعينات مع زوجها ، الذي كان قائماً بأعمال السفارة اليابانية فيها . ولذلك تمكنت أن تعتمد في دراستها على عمل ميداني مكثف استغرق عشرين شهراً (١٩٦٨ - ١٩٧٠) أُجري في أربع قرى ريفية في وادى فاطمة ، الذي يقع في نصف المسافة تقريباً بين المركزين الحضريين الكبيرين ، مكة المكرمة وجدة .

وينقسم الكتاب إلى قسمين : يتضمن أولهما وصفاً عاماً للوادي ككل ، بما في ذلك الخصائص الطبيعية للبيئة ، ولمحة موجزة قصيرة عن الخلفية التاريخية

للوادي ، وتحليلاً للنظام الاقتصادي المتغير ، وملاحظات تتعلق بالبنية الاجتماعية البدوية والمعتقدات والممارسات الدينية .

أما القسم الثاني ، فهو دراسة «مجهرية» لقرية انتقالية تدعى «بشور» ترى المؤلفة أنها تنتقل من مرحلة بادية «شبه ترحال» ، إلى مرحلة بادية «استيطانية» . وهذا الجزء من الكتاب يسلط الضوء بوضوح على بعض الأنماط النموذجية التي تمثل ، أكثر من سواها ، التغيير الاجتماعي الحاصل في المنطقة في الوقت الذي قامت فيه المؤلفة بعملها الميداني .

وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب والمجهود الذي بُذِل في جمع مادته ، واستخلاص نتائجه ، فهنالك عدد من الملاحظات التي لا تغض من قيمته . فالتحليل الذي قدمته المؤلفة للنظام الاجتماعي جدير بالاهتمام ، ويبين الجدول(٢) ، الذي أوردته ، ثلاثة أنواع «أساليب الحياة الاقتصادية في البادية : أهل البادية الرّحل ، وشبه الرّحل ، والمستوطنين» . ويتميز كل نوع من هذه الأنواع عن الآخر بوسائل عيش متفاوتة ، وبالسلع المنتجة والمباعة ، فضلاً عن المواشي والدواجن التي يربيها أهل القرية . وقد يكون على هذا التقسيم بعض الملاحظة باعتباره صارماً أكثر مما ينبغي ، وليس دقيقاً كما ينبغي ، لاسيما حين يفرق بين البدو شبه الرّحل ، والمستوطنين ، على أساس استخدام الفئة الأولى مياه الأمطار في الزراعة ، واستخدام الفئة الثانية مياه الآبار . ويوجد هذان النوعان من الري لدى أكثر التجمعات السكانية استقراراً في المملكة ، وإضافة إلى ذلك فإن التمييز بين الأساليب الاقتصادية استناداً إلى المحاصيل الزراعية لا يشكل مؤشراً مفيداً للتحديد . كما تقدم المؤلفة موجزاً مبتسراً «للحج» ، ودوره غير المباشر في اقتصاد القرى الريفية . أما في مجال تسويق الانتاج الزراعي ، فيتسم وصف مختلف الوكلاء المشاركين في حركة نقل السلع من المزارع إلى المستهلك في المدن بشيء من الغموض ، إذ أن كلمتيْ «جمال» و «سواق» قابلتان للتبادل ضمن النظام القائم ، مع أن المؤلفة تشير إليهما كدورين متميزين .

ويشكل بحث المؤلفة للموارد والاستفادة منها مساهمة قيّمة في فهمنا لهذا الوجه العام من الحياة القروية الريفية . ومع ذلك فإنها تذهب في عرضها التاريخي الموجز لاستخدام المياه في الوادي إلى أن المستوطنين لم يعرفوا كيفية حفر الآبار في العصر الجاهلي ، في حين أن السجل التاريخي للمنطقة يشير إلى أن مكتشفي

آبار المياه كانوا مرتبطين بالحضارة الجاهلية لمور ظهران (وادي فاطمة الحديث) . وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن نبوءة المؤلفة حول حدوث شحّ شديد في موارد المياه في وادي فاطمة (علاوة على جدة ومكة المكرمة) لم تتحقق ، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى الإعانات الحكومية الهائلة التي قدمت لأجل حفر الآبار الارتوازية ، وشراء مضخات قوية في المنطقة .

وتستنتج المؤلفة أن ملكية الأراضي الغائبة كانت ملازمة لشراء المياه في الوادي من جانب مدينتي جدة ومكة المكرمة ، اللتين تعانيان من نقص في المياه ، مما در دخلاً نقدياً على السكان الذين هاجروا واستوطنوا في المراكز الحضرية بشكل دائم . ومع ذلك فإن ظاهرة أصحاب الأرض الغائبين في الوادي هي بالتأكيد أقدم عهداً مما أشارت إليه المؤلفة ، لأن أشراف مكة كانوا تاريخياً يحملون صكوك ملكية الأراضي في الوادي تعزيزاً لهيبتهم .

وسيلاحظ القارىء في الكتاب تفاصيل عديدة ، مثيرة للاهتمام ، عن الحياة الاقتصادية في القرى ، لاسيما فيما يتعلق بالعادات والتقاليد الخاصة بالأدوار الاجتماعية للإناث ، والتي استطاعت المؤلفة ، بحكم كونها امرأة ، ملاحظتها عن كثب ، مما لم يتسنَّ لغيرها تسجيله ، ومع ذلك فقد يؤخذ عليها في هذا الصدد أنها تكرر الملاحظة الكلاسيكية بأن نسب الأم كان أساس نظام القرى في شبه الجزيرة العربية أيام الجاهلية . ولكن الدكتورة كاتاكورا لا تحدد تلك الأشكال ، سواء لدى البدو الرّحل ، أو المستوطنين ، ثم تزيد الأمور اختلاطاً حين تستشهد بالعادة المعاصرة المتمثلة بسكن «الأمومة المحلي» كأثر متبقٍّ من النظام القديم . وغالباً ما نجد أشكال السكن هذه في المناطق الحضرية والريفية معاً ، نتيجة لحاجة العروس إلى توجيه ومساعدة من الأم في تحديد دورها .

وتبقى ملاحظة بسيطة ، وهي أنه في معرض إشارتها إلى الحكم المحلي في وادي فاطمة تربط المؤلفة هيكليه بالحكومة المركزية في الرياض ، في حين أن حاكم الوادي تابع لحاكم منطقة مكة المكرمة التي تتبعها أيضاً جدة والطائف .

إن المحور المركزي للدراسة ، وهو القسم الثاني من الكتاب ، مفيد للغاية ، وهو ، إلى حد كبير ، فريد من نوعه ، لأن دراسة حالة فردية لقرية ريفية عربية سعودية ، تكشف النقاب عن شبكة معقدة من القوى عملت على تشجيع الاستيطان في المقام الأول ، وتفترض بأن ضغوط حياة الترحال هي السبب

الأساسي للاستيطان الفردي ، وتبين أنماط السكن في القرى بأنها منظمة تنظيماً عالياً وفقاً للنسب ووشائج القربى الأوسع .

وتستعرض المؤلفة التوترات التي تحيط بالحياة الفردية في «وادي فاطمة» ، وكنت أتمنى أن تعالج المؤلفة ، بأسلوبها العلمي الدقيق ، النظام المتغير للقيم والأعراف ، علاوة على الأماني الكبيرة التي تنجم عن الاحتكاك المتبادل بين أهل القرى والمدن . ويبدو أن التغييرات الاجتماعية والثقافية في المستوطنات الحضرية الناجمة عن التغييرات المادية السريعة ، ووجود الجاليات الأجنبية الكبيرة تحدث وقعاً هائلاً ، وإن يكن غير مباشر ، على الحياة في المجتمعات القروية ، وهنالك حاجة كبيرة إلى دراسة هذه الظواهر وتحليلها .

إنني أرحب بهذا الكتاب إضافة جديدة إلى الدراسات العلمية في موضوعه ، ويسعدني كثيراً أن أراه يترجم إلى اللغة العربية وينشر بها ، ولا أشك في أنه سيثير ما يستحقه من اهتمام العالم المتخصص والقارىء العام على السواء ، ويحدوني الأمل بأن تعقب هذه الدراسة الإثنوغرافية الفردية الممتازة التي أعدتها الدكتورة كاتاكورا ، أعمال أخرى مشابهة في هذا الموضوع الحيوي والطريف ، ولا شك أن مما يزيد في قيمة هذه الدراسة أن مؤلفته باحثة يابانية تضيف هذه الدراسة التي تمثل رؤية جديدة ، كتبت بأسلوب علمي ، ولكنه لا يخلو من المحبة والفهم الصحيح .

الأستاذ الدكتور عبدالله حسن مصري

وكيل وزارة المعارف لشؤون الآثار في المملكة العربية السعودية

والعضو المنتدب لمركز تلفزيون الشرق الأوسط في لندن

تقديم

منذ ابتداء أزمة الطاقة ، في أواخر عام ١٩٧٣ ، أصبحت المملكة العربية السعودية في وسط لجة المسرح الدولي ، إذ تكتنز أرض المملكة أضخم موارد النفط المعروفة والمثبتة في العالم - ما يزيد على ١٥٠ بليون برميل - ويخمّن جيولوجيو النفط المطلعون بأن هذا الرقم قد لا يشكل أكثر من ثلث كمية النفط الذي يحتمل اكتشافه في باطن صحاريها الشاسعة ، وتحت مياه نصيبها من الخليج . وظلت المملكة تتمتع بوقاية نسبية من المؤثرات الخارجية ، وحتى من الدول الإسلامية الأخرى ، أي حين وفاة مؤسسها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود في عام ١٩٥٣ . ولكن ما لبث المجتمع السعودي أن أخذ بالتطور ببطء بادىء الأمر ، ثم بوتيرة متسارعة في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز (١٩٦٤ - ١٩٧٥) . وقد انتجت المملكة العربية السعودية كميات من النفط أكثر من أي دولة أخرى في منظمة الأقطار المصدرة للنفط «أوبك» ، وهذا وفَّر لحكومتها ثروة طائلة بفضل الزيادة الحادة في أسعار النفط ، وكان لهذا وقع هائل على المجتمع السعودي .

وفي هذه الحقبة الزمنية المشوبة بالقلق بشأن تأمين موارد النفط تغدو أية تطورات داخلية في المملكة العربية السعودية موضع اهتمام عالمي . فأي كتاب يلقي الأضواء على التغيرات الاجتماعية الجارية في المملكة يسترعي اهتمام الجمهور . ولذلك ، نحن مدينون للسيدة موتوكو كاتاكورا لتقديمها هذا العمل المبتكر الذي اعتمدت فيه على بحث حقلي أجرته خلال الفترة الواقعة بين شهر ديسمبر ١٩٦٨ وشهر أغسطس ١٩٧٠ . فقد قامت خلال هذه الفترة بزيارة موقع

وادي فاطمة الكائن بين مدينتي جدة ومكة أكثر من ثلاثين مرة ، وكانت تمضي في كل زيارة معدل أربعة أيام أو خمسة ، وأحياناً أسبوعين ، تعيش خلالها مع القبائل التي تستوطن ذلك الوادي ، فتراقب نهج حياتهم أثناء انهماكهم في أعمالهم وفي أوقات الفراغ ، وتتحدث إلى الرجال والنساء وتجري مقابلات معهم ، وتسجل ملاحظات دقيقة عن عاداتهم الخاصة وقد تعلمت اللغة العربية قبل الشروع في دراستها هذه ، ثم ما لبثت أن أتقنت اللهجة المحلية لتيسير اتصالها المباشر مع أفراد القبائل . وقد حصلت على مجموعة من ملابس أفراد هذه القبائل المزينة بتطريز جميل دقيق ، كما حصلت على حجاب وعباءة كانت ترتديهما عند زيارتها لمرابع القبائل .

ونظراً لأن المؤلفة هي امرأة يابانية متزوجة ، فسرعان ما حظيت بحفاوة النساء القرويات اللواتي اتسمن مثلها بالخواص الآسيوية المعروفة في الضيافة والكياسة والنزوع للمحافظة . فعادة خلع الأحذية قبل الولوج إلى حرمة البيت ، وهي عادة شائعة بين القبائل هناك ، بدت أمراً مألوفاً بالنسبة إلى امرأة يابانية مثلها . ومن الأمور المهمة أنه قد تسنى لمؤلفة الكتاب ، بصفتها امرأة ، أن تجري مقابلات ليس مع الرجال من أفراد القبيلة فحسب بل ومع النساء أيضاً . وعلاوة على ذلك ، نظراً لأن المؤلفة هي رسامة فنانة وتتقن فن التقاط الصور فقد تسنى لها رسم وتصوير البيوت والخيام والأكواخ والملابس وفرش مساكنهم وأثاثها ، الأمر الذي أغنى بالحيوية وصفها للنظم الاجتماعية والنشاطات السائدة بين القبائل المستوطنة للمناطق الغربية من المملكة العربية السعودية .

تتفاوت مستوطنات البدو في حجمها ، فقد لا يزيد عدد الخيام ، أو البيوت في بعضها ، على خمسة كما قد يصل في بعضها الآخر ستمائة خيمة أو بيت . وتعرف المؤلفة القرية في وادي فاطمة بأنها أي مستوطنة انشأ فيها السكان مسجداً ومقبرة . وفي الفترة التي أجرت فيها المؤلفة بحثها ، كان المستوطنون ، في وادي فاطمة ، يتألفون من بدو رحل ، ومن شبه رحل ، ومن قبائل موطنة ، وقد بدا ، حتى آنئذٍ ، بأن الاتجاه هو في التحول عن الارتحال والترحل إلى الاستقرار والتوطن . وقد تيسر لمؤلفة هذا الكتاب تحري ممارسات العبادة والدين ، ولا سيما المشاركة في الأعياد والاحتفالات ، كما أنها تحرت ، بصورة منهجية ، عادات الزواج بدءاً من الخطوبة والاحتفالات السابقة للزواج إلى حفل الزواج

الفعلي . وكذلك تحرت المؤلفة ممارسات الطلاق ، فاكتشفت أن زهاء نصف عدد حالات الطلاق ، التي وقعت في إحدى القرى ، قد تمت بناء على طلب من الزوجات وليس الأزواج . وأظهرت المؤلفة اهتماماً شاملاً بجميع نواحي حياة السكان تجلى ذلك في البيانات الضافية التي جمعتها عن حالات الولادة والمرض والوفاة .

وحتى قبل أن تتحقق للمملكة الزيادات الهائلة في الإيرادات النفطية ، بعد عام ١٩٧٣ ، كانت عملية نزوع البدو الرحل للاستقرار والتوطن آخذة في التسارع ، ويتحول البدو الرحل إلى شبه رحل كان اقتصادهم القبلي يتحول من حالة قوت الكفاف إلى اقتصاد مالي نقدي . فقد أخذ الرجال يعملون كسائقين لسيارات ركاب الأجرة والشاحنات . وعلاوة على تربية الأغنام والمواشي ، بدأوا أيضاً زراعة الفواكه والخضار لتلبية احتياجات السوق المحلية وحتى بعض الأسواق الخارجية . فالبطيخ المنتج في وادي فاطمة مثلاً قد وجد سوقاً رائجة له في بيروت ـ لبنان بفضل نضوجه قبل موسمه هناك . وقد تحول البدو المتوطنون من تبادل الحاجيات بالمقايضة وصنع لوازمهم من الملابس بأنفسهم إلى الاعتماد على شراء السلع الصناعية وحتى الخدمات المهنية من المدن والحواضر . وإن ما تصفه المؤلفة بأنه الأحوال السائدة قبل أقل من عقد من الزمن قد تذوي هذه الأحوال وتندثر حتى قبل أن ينصرم العقد التالي له ، لأن الإيرادات الضخمة من صادرات النفط قد وفرت للمملكة العربية السعودية فرصة لا مثيل لها لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ولهذه الأسباب ، نحن مدينون كثيراً للمؤلفة لقيامها بتزويدنا بوصف تحليلي مباشر لنهج الحياة السائدة بين البدو ، في الأرجاء الغربية من المملكة العربية السعودية ، وهو نهج قد يكون الآن قد ذوى وانقرض وأصبح في ذمة التاريخ .

جاي . سي . هوروفيت

مدير معهد الشرق الأوسط

جامعة كولومبيا

استهلال

يستند هذا الكتاب إلى مسح حقلي لإحدى مستوطنات البدو في موقع وادي فاطمة، في الأرجاء الغربية من المملكة العربية السعودية، وكنت قد أجريت هذا المسح الحقلي في غضون عشرين شهراً بين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٠. ورغم أن هذه الدراسة لا تمثل وصفاً شاملاً كاملاً لسكان وادي فاطمة، فإنها محاولة لتسجيل البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية لتلك المنطقة بأوفى وأدق صورة ممكنة.

لقد كانت رغبتي هي أن أندمج في البيئة الحضارية والحياتية لهؤلاء السكان إلى أقصى حد ممكن. وقد ارتديت الملابس والأزياء المحلية، وتوخيت الكلام بلغة القوم ولسانهم على النحو الدارج بينهم. وعندما كنت استضيفهم وأسامرهم، في بيتي في مدينة جدة، كنت أيسر لكل من الرجال والنساء الجلوس في غرف منفصلة، وكنت أقدم لكل من الرجال والنساء طعامهم الخاص الذي أعددته على حدة لكل فريق منهم. وبصفتي امرأة يابانية، سرعان ما اكتشفت أنني أشارك النساء القرويات مشاعرهن من حيث السمات والخواص الآسيوية المعروفة في الضيافة والكياسة والنزوع للمحافظة. فعادة خلع الحذاء عند عتبة البيت بدت أمراً طبيعياً بالنسبة لي مثلما هي مألوفة للسيدات العربيات اللواتي يستضفنني.

ومن الحري بالتنويه، في هذا الصدد، أن هذا المجتمع، يكنُّ احتراماً عميقاً للمرأة المتزوجة، وخصوصاً للأم التي تعيل أطفالاً (أم العيال)، وقد توخيت، قدر استطاعتي، تشرُّب عاداتهم وطباعهم، وأن أجمع معلومات بحثي هذا بسلاسة دون أية إشارة أو إزعاج لهم. وقد بدا لي، في مرحلة معينة من

مراحل اندماجي بمجتمعهم وتمثلي لعاداتهم ، أنه كي يتسنى لي الحصول على ما يلزمني من معلومات من كلا الجنسين ، بات من الضروري لي أن أشعرهم بأنني أختلف بعض الشيء عنهم . ونظراً لأنني امرأة أجنبية ، فقد تيسر لي أن أجعل رجالهم يتحدثون لي بصراحة ، وهو أمر ما كان ليتسنى لامرأة عربية تجري بحثاً أنثروبولوجياً كهذا .

وقد تبين لي ، في مرحلة مبكرة من البحث ، أن دور «استمارة» البحث في بيئة مثل وادي فاطمة يقتصر على جمع وتصنيف الإحصائيات الأساسية جداً ، وكأداة عامة لتوجيه المقابلات الفردية . ففي المجتمع العربي التقليدي المنغلق على نفسه ، تغدو مسألة بناء جسور الثقة والاطمئنان ، على الصعيد الشخصي ، مسألة حيوية للغاية . وبعد سلسلة من التجارب ، تخليت عن الاستمارة وقصرت استعمالها على فحص وتدقيق وتصنيف المعلومات والبيانات التي جمعتها خلال المقابلات الشخصية . فالتأكيد على الاتصالات الشخصية ييسر سبر الواقع بصورة أدق بكثير : فزيارة جميع سكان القرية هي من الأمور المهمة . فبالعيش مع الناس وبالاندماج بمجتمعهم يتسنى للمرء استكناه السمات الروحية الأساسية لهم وطبيعة حياتهم ومعتقداتهم .

وقد تطلب جمع معلومات وبيانات البحث بدقة وعناية كثيراً من المثابرة والصبر . فقد توخيت تدقيق جميع المعلومات والبيانات بأناة وتثبت من صحة الأقوال بالملاحظة المباشرة . ورغم أن بيتي في مدينة جدة كثيراً ما كان يعج بالزوار من وادي فاطمة ، فهم قد أخذوا يثقون بي ثقة أصلية ، فإنني كنت أتحاشى دائماً الانغماس في علاقات شخصية معهم كي لا تتأثر النظرة الموضوعية التي حرصت على بلورتها في عملي . وفي حين يظل هذا التقرير الأولي عن وادي فاطمة بمثابة دراسة معينة لمستوطنة بدوية واحدة ، فقد حاولت أن أنظر إلى شتى الظواهر نظرة فاحصة لأرى شتى خيوط العلاقات التي تربط بين أكداس المعلومات والبيانات التي جمعتها .

ومن المناسب ، في هذا المقام ، أن أعرض بإيجاز ، لفائدة زملائي العلماء الذين قد تراودهم الرغبة في محاولة إجراء دراسات مماثلة تستند إلى المسح الحقلي في المملكة العربية السعودية ، بعض الصعوبات التي واجهتها خلال قيامي بهذا البحث هناك .

بصفتي امرأة ، واجهت بعض المصاعب الشديدة في هذا الحقل ، إذ أنه محظور على المرأة ، في المملكة العربية السعودية ، أن تسوق سيارة أو أن تركب في سيارة تاكسي بدون صحبة مرافق ، كما لا يسمح لها بالمرور أو السفر عبر حدود مدينة مكة . وبسبب هذا كنت أضطر للسفر كل مرة من مدينة جدة إلى وادي فاطمة عبر طريق وعرة . وكانت تتم معظم سفراتي بواسطة سيارة شحن ، فالسيارة الشاحنة قد حلت محل الجمل كواسطة النقل في تلك الأرجاء . وكانت هذه السيارات الشاحنة تنقل الخضروات من وادي فاطمة إلى السوق في مدينة جدة ، كما تنقل روث الأبقار في رحلة الإياب من مدينة جدة إلى موقع وادي فاطمة . وفي موسم زحمة عمل السائقين ، في شهر ذي الحجة ، الذي كان يوافق آنئذ ، موسم نضوج الخضروات والفواكه كالطماطم ، والباذنجان ، والفلفل الأخضر ، والبطيخ ، كان السائقون يترددون في سلوك هذه الطريق الوعرة غير المعبدة لأنه حتى سيارة «الجيب» القوية كانت تغرز وتغور عجلاتها في رمال هذه الطريق . وعندما كان يحدث التغريز يضطر الركاب إلى النزول من السيارة والبدء في دفعها لمساعدة السائق في إخراجها من الرمال ، وهذه عملية شاقة تحت لهيب شمس الصحراء الحارقة . ولحسن الحظ ، خلال المرحلة النهائية ، والمهمة جداً من بحثي ، قررت وزارة الزراعة اعتبار المسح الحقلي الذي أجريه أمراً مهماً ، فزودتني بسيارة شاحنة ومعها أيضاً عدد من العمال الذين اعتبروا مرافقين لي ، وكان هؤلاء العمال يقومون برش المحاصيل في وادي فاطمة بالكيماويات المبيدة للحشرات .

وفي بعض القرى ، وجدت نفسي مضطرة للتغلب على شكوك حقيقية ومواقف عدائية قبل أن أستطيع مواصلة البحث . فكثير من القرويين لم يكن من الميسور عليهم أن يفهموا لماذا تقوم هذه المرأة الأجنبية بزيارات متكررة لهم ، وتلقي عليهم كل هذه الأسئلة ، وأبدى كثيرون منهم شيئاً من التردد في إعطاء معلومات عن أمور يعتبرونها خاصة ، وبصورة خاصة ، في القرى المستوطنة حديثاً مثل قرية البشور التي استنفدتُ قدراً كبيراً من الوقت والجهد حتى استطعت الفوز بثقة سكانها . وفي إحدى المرات رأيت امرأة تغترف حفنة من الرمل وتهم بقذفها نحوي ، كما يفعلون عادة هناك مع النعاج والماعز . وعندما كنت أحضر لهم حلويات وهدايا صغيرة لم يكن البالغون يرضون أبداً بقبولها مني كهدايا ، وإذا مد أحد الأطفال يديه نحوي لأخذها مني كان البالغون يوبخونه بشدة وينهونه

عن ذلك . ثم اكتشفت ، أخيراً ، حماسهم للتعليم ، فتطوعت أن أعلم فتيات مستوطنة البشور الصغيرات قراءة اللغة العربية وكتابتها باستخدام كتب أحضرتها معي من مدينة جدة . وأسعفني الحظ بعقد أواصر الصداقة مع شيخ القرية ، بعد أن عرضت عليه العناية بابنته الصغرى التي كانت مريضة .

وقد منعني الحظر الاجتماعي على تصوير النساء من تسجيل كثير من التفاصيل على الأفلام . وقد قررت الالتزام بعاداتهم وتقاليدهم بهذا الشأن ، رغم ما كان يراودني من إغراءات لالتقاط صور للنساء بملابسهن الأنيقة وهن منشغلات بنشاطاتهن اليومية ، أو خاصة عندما يرتدين ملابسهن الجميلة لحضور إحدى حفلات الزفاف ، محافظة على الثقة المتبادلة بيننا التي حرصت بعناية على استمرارها . أما صور النساء الظاهرة في هذا الكتاب فقد أخذت بعدما وثقوا فيّ الثقة الكاملة .

وأود ، في هذا المقام ، أن أوجه شكري لمعالي السيد عبد الرحمن أبا الخيل ، الذي كان ، يومئذٍ ، وزير العمل والشؤون الاجتماعية ، ومعالي السيد حسن المشاري الذي كان ، يومئذ ، وزير الزراعة والمياه ، فقد أظهرا ، في وقت مبكر من بحثي ، استجابة فورية وإيجابية لدعم البحث الذي كنت أجريه ، كما أشكر السيد عبد الرحيم الأحمدي الذي كان ، يومئذ ، مدير مركز التنمية الاجتماعية في وادي فاطمة ، والذي يسّر لي استخدام الكثير من المرافق لتسهيل قيامي بالبحث الحقلي . وأشعر بامتنان كثير للسادة التالية أسماؤهم ، وكانوا من كبار المسؤولين في وزارة الزراعة والمياه : السيد مسعود التاجي الفاروقي ، المدير العام للتوجيه والخدمات في الوزارة ، والسيد عبد الجليل جمجوم ، المدير العام للزراعة في المنطقة الغربية ، والسيد محمود أبو العلا ، المهندس الزراعي ، كما أوجه الشكر للسيد سليمان الحمدان ، المدير العام للشؤون الاجتماعية ، والسيد عبد اللطيف المانع ، وكلاهما من المسؤولين في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، وقد ساعداني كثيراً بتوجيهاتهما ومساعدتهما . وأود أن أعبر عن امتناني إلى البروفيسور مصطفى عامر ، من جامعة الرياض ، وكذلك للدكتور حسن الخفاجي ، عميد كلية التربية في جامعة الملك عبد العزيز ، وكلاهما زوداني بنصائح مفيدة بشأن المشروع العام للبحث ، وأيضاً للمسؤولين في وزارة البترول والثروة المعدنية الذين أولوني اهتمامهم وشجعوني بحرارة ، وأخص

بالذكر السيد عبد العزيز التركي الذي كان ، يومئذ ، المدير العام للثروة المعدنية ، والسيد أحمد الشنطي من كبار الجيولوجيين في الوزارة .

وأنا مدينة بالامتنان العميق أيضاً لزوجي كونيكو ، السكرتير الأول في السفارة اليابانية في المملكة العربية السعودية من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٠ ، والذي لولا تفهمه لأهمية عملي ما كان ليتأتّى لي إكمال هذه الدراسة .

وأخيراً وليس آخراً ، أقدم جزيل شكري وامتناني إلى سكان وادي فاطمة لما أظهروه لي من حسن ضيافة ، وروح أصيلة ، وثقة كاملة .

الفصل الأول

مدخل

كانت معظم الكتابات المنشورة عن المملكة العربية السعودية إما بمثابة تقارير تسجل انطباعات الرحالة عن مشاهداتهم فيها، أو أخبار الجرائد، أو مذكرات سياسية[(١)] . ونظراً لأن هذه الكتابات قد اتصفت بالعمومية مكتفية بإلقاء نظرة عامة على هذه البلاد الواسعة، لذلك رأينا بعضها يجنح إلى التأكيد على الجوانب الاقتصادية، فتركز الحديث على وصف مواردها النفطية، وبعضها الآخر يجنح إلى التركيز على الجوانب الاجتماعية وخصوصاً النواحي الدينية، فتحلل أهميتها بصفتها «مهد الإسلام» . فمثل هذه الكتابات والوثائق تعطي وصفاً عاماً للنواحي الاقتصادية، أو السياسية، أو الاجتماعية لهذه البلاد، ولكنها لا تقدم وصفاً حياً وتفصيلياً للناس الذين يعيشون فيها وأنماط حياتهم.

وقد توخيت أن أحصل على معلومات ملموسة وحقيقية عن سكان المملكة العربية السعودية، منطلقة في مسعاي هذا من الاعتقاد بأن السبيل لاستيعاب حقيقة العلاقات المتداخلة بين البنية الاقتصادية والبنية الاجتماعية هو بملاحظة أنماط العيش السائدة في بيئة اجتماعية معينة من خلال المشاركة في الحياة اليومية

---

(١) على سبيل المثال:

ج. ب: فيلبي: **الحاج في العربية السعودية** (لندن، روبرت هال، ١٩٤٦).

ر. سانجر: **شبه الجزيرة العربية**.

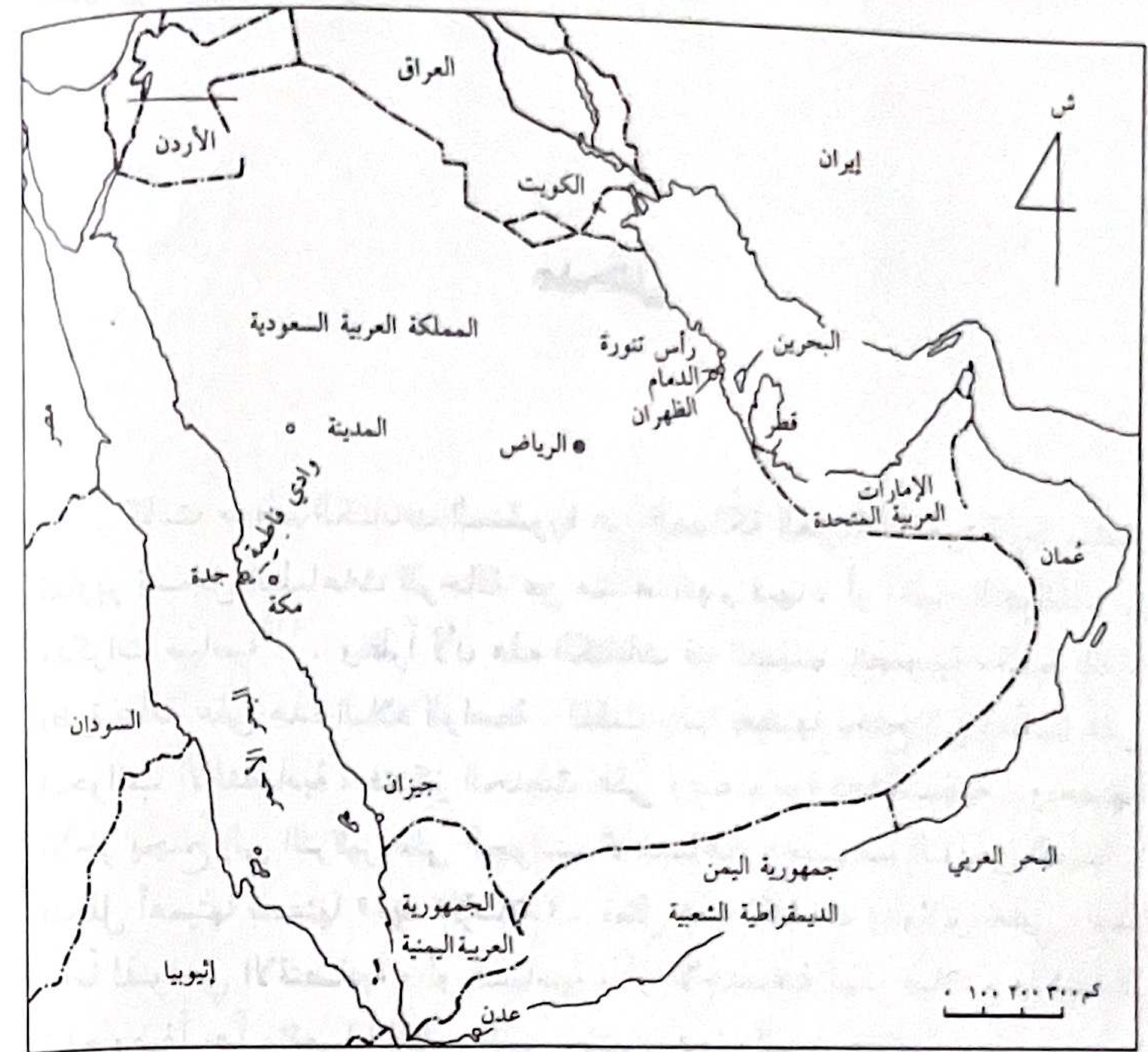
جيرالد دي غوري: **الرحلة العربية وسياحات في الصحاري** (لندن، هاراب، ١٩٥٠).

ويلفريد تيسيجر: **الرمال العربية**.

كارل. س. تويتشل: **العربية السعودية** (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٥٣).

الشكل رقم ١ :

خريطة شبه الجزيرة العربية



لذلك المجتمع . وقد ركزت ، دائماً ، في المسح الاجتماعي الذي أجريته لهذه الدراسة ، على الإنسان الفرد وليس على الاقتصاد وحده ، ولا على المجتمع وحده ككل .

وحيث أنه لا يتسنى وصف أسلوب حياة القرويين ، في المملكة العربية السعودية ، سوى من خلال جملة من العوامل المعقدة غاية التعقيد ، لذلك اقتديت بعلماء الآثار في مناهج دراستهم فعزمت على الغوص عميقاً في أنماط معيشتهم لاستكشف كيف يفكرون؟ وكيف يعملون؟ وكيف يلبسون؟ وكيف يلهون ويلعبون؟ وكيف يحتفلون؟ وكيف يتخالطون اجتماعياً؟ وكيف يقاسون ويعانون ويتألمون؟ وكيف يعبدون؟ وكيف يموتون؟ وتجري جميع هذه النشاطات في إطار عملية التحديث العصري الجارية على قدم وساق في مجتمع

المملكة العربية السعودية ، وهي عملية تجري بصورة حثيثة ومتسارعة .

وكان من المستحسن انتقاء مجتمع محلي صغير ليكون موضوع عملية المسح ، لأن ذلك يتيح للباحث فهم السكان كأفراد من جهة ، وأيضاً فهم التفاعل الكائن بين العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وبكل ما ينطوي عليه هذا التفاعل من تعقيد وتشابك . وكما يقول الباحث مايكسل بصدد حديثه عن دراسته حول المملكة المغربية ، عند دراسة المجتمعات العربية : «ينبغي أن نبدأ بدراسة قرى صغيرة أو ناحية من الأنحاء ، وبعد هذا فقط يمكن أن نلج متاهات الفروق والتباين بين القبائل أو مجموعات القبائل» ، ولكنه يضيف قائلاً : «غير أن هذه الطريقة في البحث هي ليست عملية لسوء الحظ»[(١)] . وقد جرؤتُ على الأخذ بهذا النهج غير العملي في بحثي هذا ، وكنت كلما تقدمت في هذا البحث ازددت اقتناعاً بقيمته . فبفضل هذا النهج في البحث يتسنى للمرء فهم المعنى العميق الكامن وراء المظاهر ، ولولا ذلك لجنح المرء إلى تفسير مثل هذه المظاهر تفسيراً سطحياً ، بل إنه قد يخطىء في تقويمها إن هو بنى تقويمه على معطيات الإحصائيات الفجة .

ومن الأمثلة الجيدة ، التي يمكن أن توضح هذا الأمر ، مسألة تحرك السكان ونقلتهم . فقد يستخلص المرء من انخفاض عدد سكان قرية البشور (الشكل ٢) بأن هنالك هجرة ملموسة للسكان إلى المدن الكبيرة . وبطبيعة الحال ، هنالك شيء من الحقيقة في هذا ، ولكن ، حسبما تبين لي ، في هذه الدراسة ، يشعر كثيرون من أهل الصحراء بحنين قوي للعودة إلى ديارهم الصحراوية السابقة ، أو العودة لحياة البادية والترحال كبدو رحل ، وبالتالي فإن مسألة حركة السكان ونقلتهم هي أكثر تعقيداً مما يمكن أن يتراءى للمرء للوهلة الأولى .

فحتى معرفة بعض الأمور البسيطة مثل عدد الدجاج في القرية قد تصبح مسألة مستحيلة بدون كسب ثقة أهل القرية واطمئنانهم إلى الباحث . فالسكان هناك يعتبرون تربية الدواجن من الأمور الوضيعة المستحقرة[(٢)] ، ولذلك يتردد

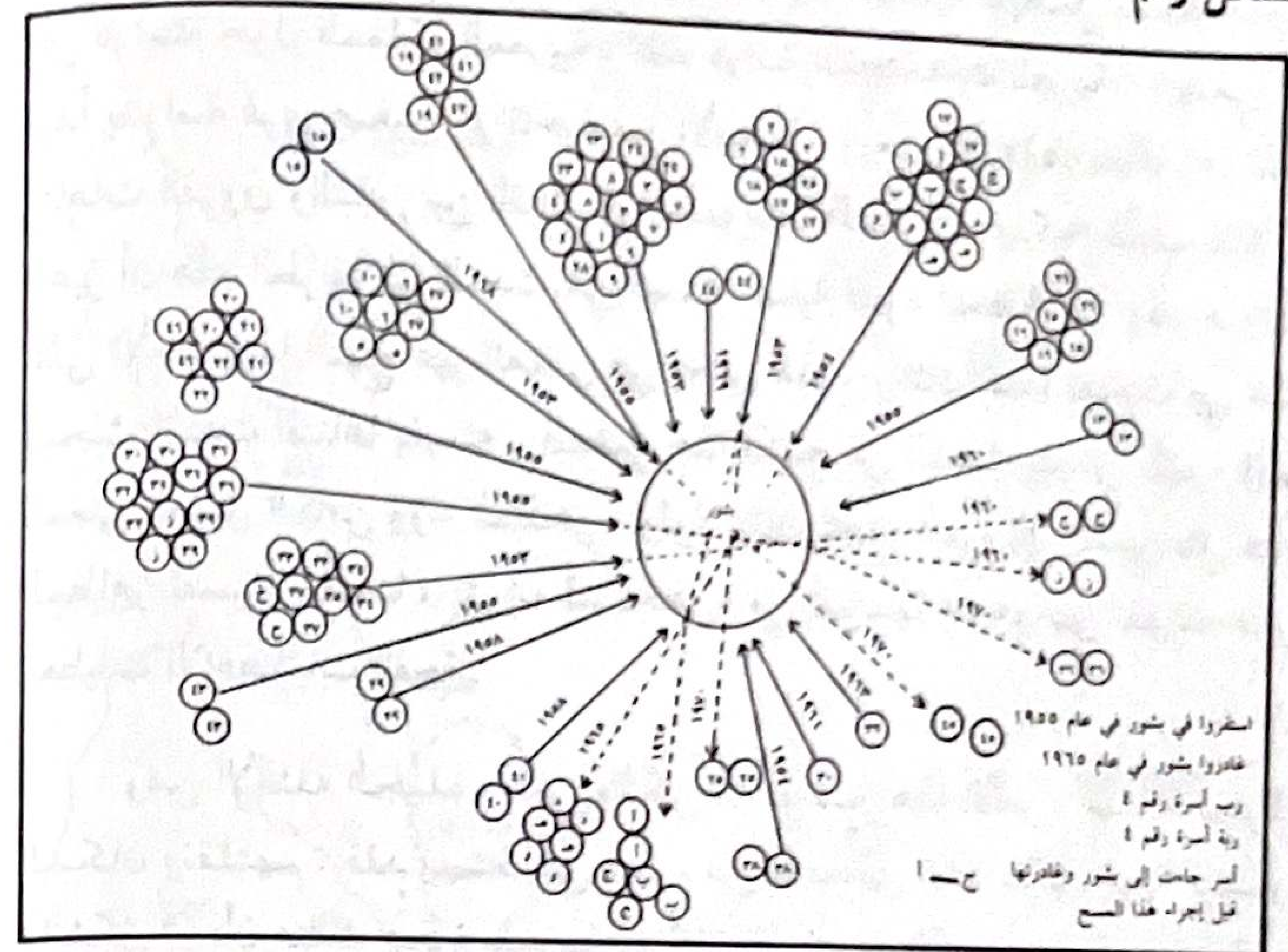
---

(١) مارفن و . مايكسل : **المغرب الشمالي : الجغرافيا التعليمية** (بركلي : مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٦١) .

(٢) انظر الفصل الرابع .

السكان في الإقرار بأنهم يربون بعض الدواجن ، وبالتالي لا يرغبون في الإفصاح للباحث عن عددها ، فلم أستطع أن أطلب من تلاميذي بأن يعدوا لي عدد الدجاج الذي يقتنيه أهلهم إلا بعد أن كسبت ودهم وثقتهم .

الشكل رقم ٢ :



حركة السكان في بشور

ومن الأسباب التي دعت الباحث مايكسل إلى الاعتقاد بأن هذا الأسلوب في البحث هو «غير عملي» ، لأن الباحث قد يستنفذ جهداً مضنياً قبل أن يحظى بالقبول ، ويفوز بألفة أفراد مجتمع صغير كهذا ، ولا سيما في مجتمع منغلق مثل المجتمع البدوي السعودي . ففي مجتمع كهذا ، تحاط العائلة بهالة من المحافظة تجعلها بمثابة منطقة محرمة على الغريب . وإذا كان الباحث ذَكَراً فإنه يواجه وضعاً أصعب مما يمكن أن تواجهه الباحثة الأنثى من هذه الناحية . فنظراً لصعوبة الاتصال بين الجنسين ، فقد يكون من المستحيل على الباحث الذَكَر أن يحصل على معرفة مفصلة لحياة الأسرة ، ويتأتى على المرء ، كي يفوز بثقة الناس ، أن يمضي وقتاً طويلاً في معيشتهم . فلا يتسنى للباحث أن يبدأ فوراً في أعمال البحث الذي يتوخاه ، ولا يستطيع أن يستكمل عناصر بحثه في مدة قصيرة .

وسبب آخر يجعل هذا النهج في البحث «غير عملي» ، حسبما أشار الباحث مايكسل ، أنه لا يتيسر للباحث استخلاص أية نتائج عامة يركن إليها استناداً إلى ما توصل إليه من حقائق في دراسته لمجتمع صغير محدود . فالتوصل إلى تفسير يركن إليه للبنيان الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع السعودي إنما يتأتى من تراكم المعلومات المستقاة من جملة دراسات الحالة لعدد من المجتمعات الصغيرة ، وإجراء مثل دراسات الحالة هذه يستغرق زمناً طويلاً نسبياً ، بيد أن هناك حاجة ماسة إلى إجراء دراسات تفصيلية تتسم بالدقة . وهذه الدراسة ، التي بين يدي القارىء ، هي خطوة في هذا السبيل لإشباع هذه الحاجة ، آملة بأن هذا البحث الذي أجريته لهذه الدراسة سيؤدي في نهاية المطاف إلى بلورة نظرة عامة عن البنيان الاجتماعي ـ الاقتصادي للمجتمع السعودي .

وكي يتسنى لي أن أفهم المشاكل التي تواجه أبناء المجتمع الذي عزمت على دراسته من الداخل ، كما يعيشها أبناء ذلك المجتمع وليس كما تتراءى للمراقب البعيد من الخارج ، ركزت بحثي على منطقة واحدة صغيرة هي وادي فاطمة ، وبصورة خاصة على قرية البشور[(١)] .

وأما بشأن العوامل التي دعتني إلى انتقاء منطقة وادي فاطمة بالذات لتكون موضوع بحثي هذا فبعضها اعتبارات عملية براغماطيقية ، وبعضها اعتبارات نظرية ، وبعضها الآخر اعتبارات شخصية . فمن حيث الاعتبارات الشخصية ، سبق لي أن درست المجتمع الأمومي الذي كان موجوداً في الماضي في أرجاء مدينتي مكة والمدينة[(٢)] ، ورغم أنه لم تكن لي نية أبداً في تقصي آثار هذا المجتمع في منطقة أخرى ، فلا أنكر أنه كانت تراودني رغبة في استطلاع أحوال النساء وحياتهن اليوم هناك . أما من حيث الاعتبارات العملية البراغماطيقية ، فإن المسافة بين موقع وادي فاطمة ومدينة جدة ، التي كنت أعيش فيها مع أسرتي ، كانت مسافة مثالية لأحظى بالقبول كعضو مؤقت في ذلك المجتمع ، فحيث أن وادي فاطمة لم يكن قريباً جداً من مدينة جدة فكان هذا يعطيني عذراً مقبولاً كي أبقى وأعيش هناك بينهم ، ولكنه أيضاً لم يكن شديد البعد عن مدينة جدة ، الأمر

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر الفصل السابع ، حيث دراسة مدينة البشور أوفى بالمعلومات .

(٢) موتوكو كاتاكورا : [تطور العائلة «الأمومية» في بدء نشوء العربية السعودية وانعكاسها في القرآن] مجلة الأبحاث والدراسات الدينية جـ ٤٢ـ٢ رقم ١٩٧ (١٩٦٨) .

الذي كان ييسر لسكان وادي فاطمة زيارتي في بيتي في جدة حيث كان بعضهم يبيتون عندنا ليلة، وبعضهم الآخر يقضون في ضيافتي عدة أيام.

وكانت هنالك عدة أسباب أخرى أكثر أهمية دعتني لانتقاء هذه المنطقة للبحث. فكما يشير الباحث هبوود، كانت معظم الدراسات عن العالم العربي تجنح للتركيز إما على مجتمعات المدن الكبرى في الشرق الأوسط، أو على عالم القبائل والعشائر في البادية. ويضيف قائلاً: «إن عزل أي واحد منهما ومحاولة دراسته بمعزل عن الآخر ينطوي على تشويه لحقيقة الأوضاع الاجتماعية السائدة في العالم العربي»[1]. فمجتمعات البدو الرحل تتفاعل بالتأكيد تفاعلاً وثيقاً مع المجتمع الواسع من حولها، فهم يعتمدون في معيشتهم، بصورة مباشرة، أو غير مباشرة، على المؤسسات السياسية والاقتصادية الكائنة خارج مرابعهم، وهم يشاركون سكان الحواضر من حولهم خصائص كثيرة وليس مجرد اللغة والدين. وكي يتسنى لي فحص هذا التداخل بصورة أوضح، توخيت أن انتقي موضوعاً، لدراستي هذه، مجتمعاً يتوسط بين هذين العالمين، عالم البادية وعالم الحضر. فيقع وادي فاطمة بين مدينتين عظيمتين تقليديتين، وبالتالي لا بد أن يتأثر المجتمع القاطن فيه بالتطورات الجارية في هاتين المدينتين، ولكن رغم ذلك يظل مجتمع وادي فاطمة مجتمعاً ريفياً. ففي مثل هذا الإطار الاجتماعي، يتسنى لي أن أتعرف على عالم أبناء القبائل وسكان البوادي في علاقاتهم مع حياة مجتمع الحواضر في مكة وجدة.

منذ زمن طويل، كانت منطقة وادي فاطمة معبراً للرحّالة والمتجولين، فيذكر أحمد السباعي في كتابه «تاريخ مكة»[2] أنه قبل الحكم العثماني وخلاله، (من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر) كان وادي مرّ، حسبما كان يُعرف في الماضي، مسرحاً للحروب بين القبائل، وذلك بسبب ما يتمتع به من أهمية استراتيجية كمعبر وممر للرحالة والمتجولين، ولما فيه من مياه. فلم تكن منطقة وادي فاطمة في الماضي مجتمعاً بدوياً صحراوياً منعزلاً، كما أنها أصبحت في القرن الحالي تتعرض بصورة متزايدة لمؤثرات عملية التحضير الجارية في مدينتي

(١) ديريك هوبوود: **شبه الجزيرة العربية: المجتمع والسياسة**، ص١٣.

(٢) أحمد السباعي: **تاريخ مكة** (مكة، ١٩٦٨) الجزءان ١ و٢.

جدة ومكة. وتحاول حكومة المملكة العربية السعودية، ومن خلال برنامج التصنيع وتوسيع الزراعة في البلاد، تشجيع البدو[1] على الاستقرار في الأرض بصورة دائمة وتعليم أبنائهم ليصبحوا عمالاً مهرة. ولكن احتمال نجاح مثل هذا البرنامج يظل أمراً مجهولاً ما لم يتم فهم واستيعاب طبيعة السكان البدو واحتياجاتهم ومطامحهم وميولهم وأهواءهم. فعبر التاريخ وفد إلى وادي فاطمة بدو كثيرون، بعضهم جاءوا كعابري سبيل، وآخرون وفدوا كزائرين، ولكن كثيرين منهم جاءوا للإقامة فيه ردحاً من الزمن أو للاستقرار فيه بصورة دائمة، وفي هذه الأيام ازدادت وتيرة نقلة السكان أكثر من السابق.

وتكمن قوى اقتصادية عظمى وراء التغيير والتحول الاجتماعي الجارية في وادي فاطمة. فرغبة البدو في حياة أكثر ربحاً وجدوى وتتسم بقدر أكبر من الاطمئنان للمستقبل قد حفزتهم إلى التخلي عن حياة الترحال في البوادي الصحراوية، والاستقرار في وادي فاطمة، والتحول إلى حياة الزراعة، وهي نمط من الحياة أقل احتراماً في نظرهم من حياة البداوة. ومازال بعض البدو الرحل يتجولون في أرجاء منطقة وادي فاطمة، بيد أن معظم الذين يعيشون فيه هم من البدو شبه الرحل، ويعتمدون في معيشتهم على الزراعة أكثر من اعتمادهم على رعي المواشي والأغنام، وقسم كبير من سكان وادي فاطمة هم الآن من البدو المستوطنين الذين، كما بدا لي، قد استطونوا بصورة دائمة في القرى الكائنة هناك، ويعتمدون في معيشتهم على الزراعة وبعض الأعمال الأخرى[2]. ويتسنى للمرء المقيم هناك أن يشهد ويلاحظ ضروباً من نقلة السكان وتحولهم الاجتماعي من بدو مستوطنين أو بدو شبه رحل إلى بدو رحل، ومن وادي فاطمة إلى المدن المجاورة، ومن هذه المنطقة إلى بيئات أكثر صحراوية هي في الأساس مضارب قبائلهم. وستتضمن الفصول التالية مناقشات تفصيلية لكل هذه الأمور.

وتبدي حكومة المملكة العربية السعودية اهتماماً كبيراً بتصنيع البلاد،

(١) أكثر من ٦٠٪، من مجموع السكان، هم من البدو (سكان البادية والصحراء). ووفقاً للتقرير الرسمي للمملكة العربية السعودية في ١٩٦٣، فإن ٥٥٪ من مجموع السكان هم من المزارعين، و٢١٪ هم من البدو وإن كان وصف المزارع والبدوي هو غامض.

(٢) في الفصل الخامس نوقش تقسيم البدو الرحل، البدو، نصف البدوي، والبدوي الرحل والبدوي الأصيل.

وتدرك أهمية تطوير موارد دخل جديدة في اقتصاد البلاد تخفف من الاعتماد على موارد النفط كمصدر وحيد للدخل ، وبالتالي تسعى إلى تطوير الإمكانيات الزراعية في المناطق الصحراوية . بيد أنه لم يتم ، حتى الآن استيعاب الحقائق المتعلقة باستخدامات الأرض ، واستخدامات الماء ، ونظام استئجار الأرض استيعاباً وافياً ، ولا يعرف سوى القليل عن الزراعة كقوة اقتصادية في المملكة العربية السعودية . فالأبحاث المنشورة عن هذه الأمور المهمة تقتصر على بحثين ، أحدهما مقال قصير ضمن كتاب «الإمكانيات الزراعية للشرق الأوسط» والآخر دراسة الباحث ف .س . فيدال عن واحة الأحساء[1] .

ويستطيع المرء أن يرى بأن الحياة الزراعية في وادي فاطمة تمر حالياً بأحوال عصيبة . فعلى مدى قرون طويلة من الزمن ، كانت منطقة وادي فاطمة مزدهرة بفضل وفرة ينابيع المياه الغزيرة فيها . وتفيد الروايات المتوارثة بأن عدد ينابيع المياه في وادي فاطمة كانت بعدد أيام السنة . ويبلغ عدد آبار وينابيع المياه الجافة في المنطقة الآن حوالي عشرة أضعاف الينابيع والآبار الحية . ففي عام ١٩٤٣ بدأ إنشاء خطوط الأنابيب لضخ المياه من وادي فاطمة إلى مدينتي جدة ومكة ، وأدى هذا الضخ إلى استنزاف طاقة هذه الينابيع والآبار ومواردها من المياه ، الأمر الذي زاد من جفاف المنطقة مما حال دون إعادة امتلاء مكامن المياه الجوفية التي تموِّن هذه الينابيع والآبار بالمياه . أما اليوم ، فرغم زيادة الحاجة إلى الانتاج الزراعي في وادي فاطمة لسد احتياجات الأسواق في المدن المجاورة وتلبية الطلب على انتاج هذا الوادي في الأقطار الأجنبية ، مثل الباكستان ولبنان ، فإن معظم ينابيع وآبار المياه الطبيعية في هذا الوادي قد أصبحت ميتة أو هي تعاني سكرات الموت .

ونظراً لقرب وادي فاطمة من الحواضر ، غدا البنيان الاجتماعي - الاقتصادي لسكان وادي فاطمة يتسم اليوم بالنقلة والتحول الاجتماعي . وإذ يشهد مجتمع هذا الوادي التحول من الماضي إلى عصر التكنولوجيا ، فإن زيادة ضغوط الاحتياجات الاقتصادية لمعيشة الناس وعوامل أخرى قد أخذت تحدث صدوعاً وشروخاً في بنية تقاليد الأصول الاجتماعية لسلوك الأفراد والجماعات ، وبالرغم من ذلك فإن التقاليد ما زالت تمثل قوة شديدة ، كما سيتبين في هذه الدراسة .

(١) ماريون كلاوسون ، هانس .هـ .لتدنزبرغ وليل .ت ، ألكسندر : **الجهود الزراعية في الشرق الأوسط** . ف .س .ڤيدال : **واحة الحسا** (الظهران : أرامكو ، ١٩٥٥) .

الفصل الثاني

الموقع الجغرافي

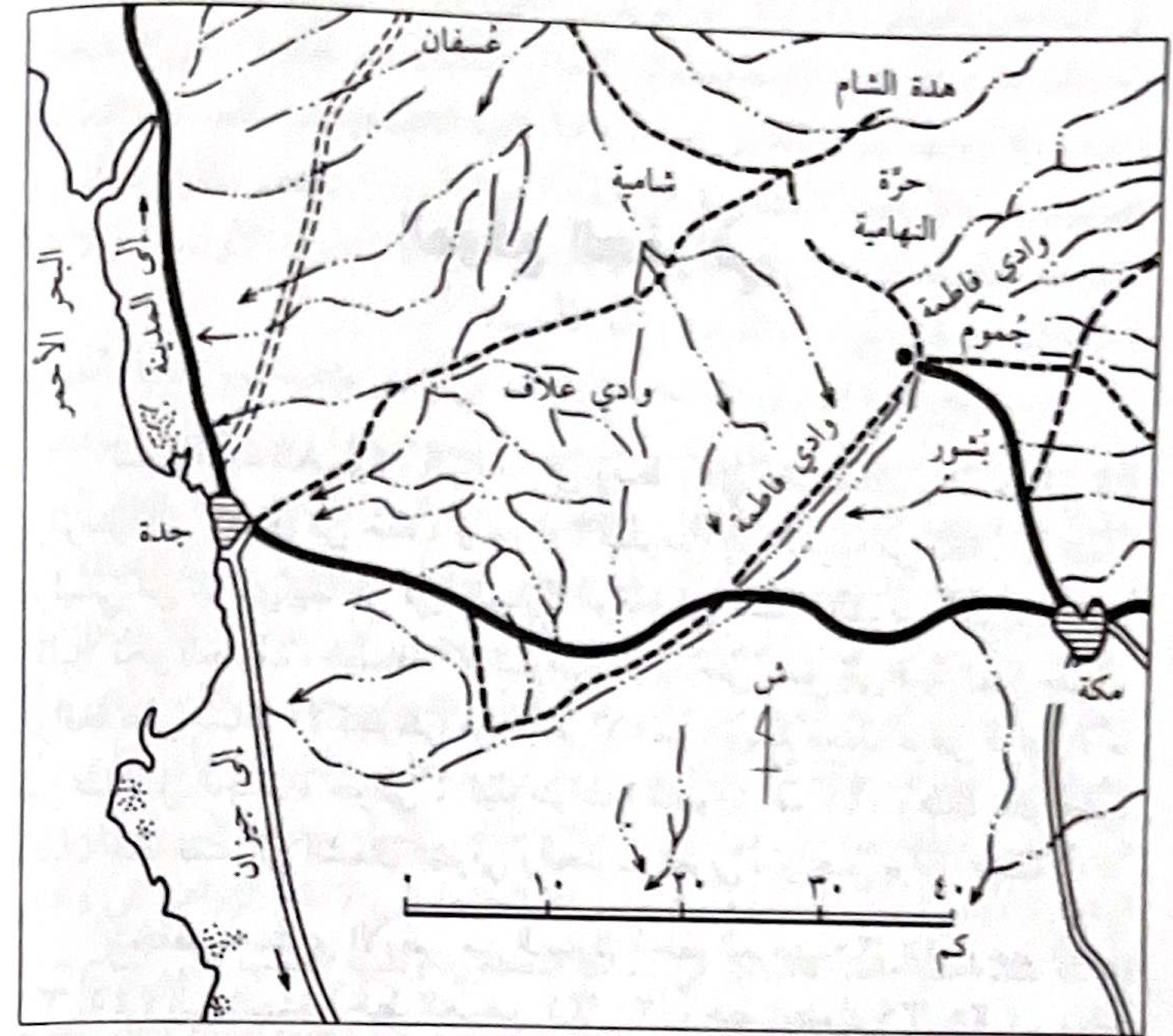
تبعد قرية الجموم ، الواقعة في وسط وادي فاطمة تقريباً ، حوالي ٧٥ كيلومتراً إلى الشرق من جدة ، ونحو ٣٠ كيلومتراً إلى الغرب من مكة . إن الجزء الرئيسي من الوادي يبدأ في قرية المبارك الواقعة في الشمال الشرقي ، ثم يميل غرباً وقليلاً نحو الجنوب ، لمسافة ٧٠ كيلومتراً تقريباً حتى يصل إلى قرية الهدَّة جنوباً ، الواقعة على مسافة ٤٠ كيلومتراً من البحر الأحمر . ويبلغ معدل عرض الوادي ، ما بين سلاسل الجبال ، حوالي ٤ كيلومترات (الصورة رقم ١) . وهناك نحو عشرة وديان جافة تمتد إلى الشمال الشرقي والجنوب الغربي ، وتتصل بوادي فاطمة .

ينخفض مستوى الأرض من المبارك (خط العرض ٢١° ٤٥´ وخط الطول ٣٩° ٤٥´) إلى الهدَّة (خط العرض ٢١° ٣٠´ وخط الطول ٣٩° ٣٠´) . وتقع المبارك على ارتفاع قدره ٢٤٦ متراً تقريباً عن مستوى سطح البحر ، بينما ترتفع قرية السلطان نحو ٢١٣ متراً عن هذا المستوى . وترتفع قرية أبو حُساني بنحو ٢٠٦ أمتار عن مستوى سطح البحر ، بينما تقع الجموم ، الواقعة على بعد ٢٠ كيلومتراً تقريباً إلى الجنوب الغربي من أبو حُساني على ارتفاع ١٧٠ متراً تقريباً عن مستوى سطح البحر . وإلى الجنوب الغربي من الجموم ، وهي القرية المركزية في وادي فاطمة ، تستمر التضاريس في الانخفاض حتى تصل إلى أوطأ مستوى عند الهدَّة التي يقدر أنها ترتفع ١٢٠ متراً عن مستوى سطح البحر[1] .

(١) أي تصور دقيق حول الارتفاع عن سطح البحر يتطلب نتائج البحث الحالي الذي سيتم عبر شركة «باسيفيك أيرو» للأبحاث في اليابان ، وهي شريك فرعي للشركة العربية للأبحاث وعلم الأرض .

شكل رقم ٣:

خريطة وادي فاطمة والمنطقة المجاورة له



مدينة	وادي
قرية كبرى	سبخة (بركة مغلقة ذات سطح قاس مستو من الطين والطمي) أو خبرة (مسطحات من الرمل والطين والطمي غالباً ما تغطيها طبقات ملحية)
طريق رئيسي، معبد	
طريق رئيسي، غير معبد	
طريق فرعي	
طريق مشكوك في استمراره	

وكما يتضح في الشكلين (٣) و (٤) يحد وادي فاطمة من الشمال وادي علف وحرة النهامية وهي منطقة بركانية مستوية. ويمتد طريق معبد هو الطريق

العام بين مكة وجدة، على طول جنوب وادي فاطمة. وينتشر على الحدود الشرقية العديد من الجبال الصغيرة، ويكون جبل دف، فج (طريق ضيق بين الجبال) الرميثي وفج الكريمي الحدود الغربية لهذا الوادي.

المناخ:

على الرغم من أن سيارات الجيب والشاحنات يمكن أن تخترق طرق الوديان المحيطة بوادي فاطمة في الأحوال الاعتيادية، إلا أن الرمال المتحركة، وجداول المياه الفرعية، يمكن أن تعيق مرور السيارات في بعض الأحيان. ومرة أو مرتان في العام تكون الأمطار الغزيرة أنهاراً مؤقتة (السيول)، وتتعطل حركة جميع السيارات حتى تختفي هذه السيول الغزيرة. وفي إحدى المرات اضطررت إلى البقاء في قرية دف زيني لمدة ثلاثة أيام في انتظار أن تجف الرمال حتى يمكن استخدام الطرق مرة ثانية.

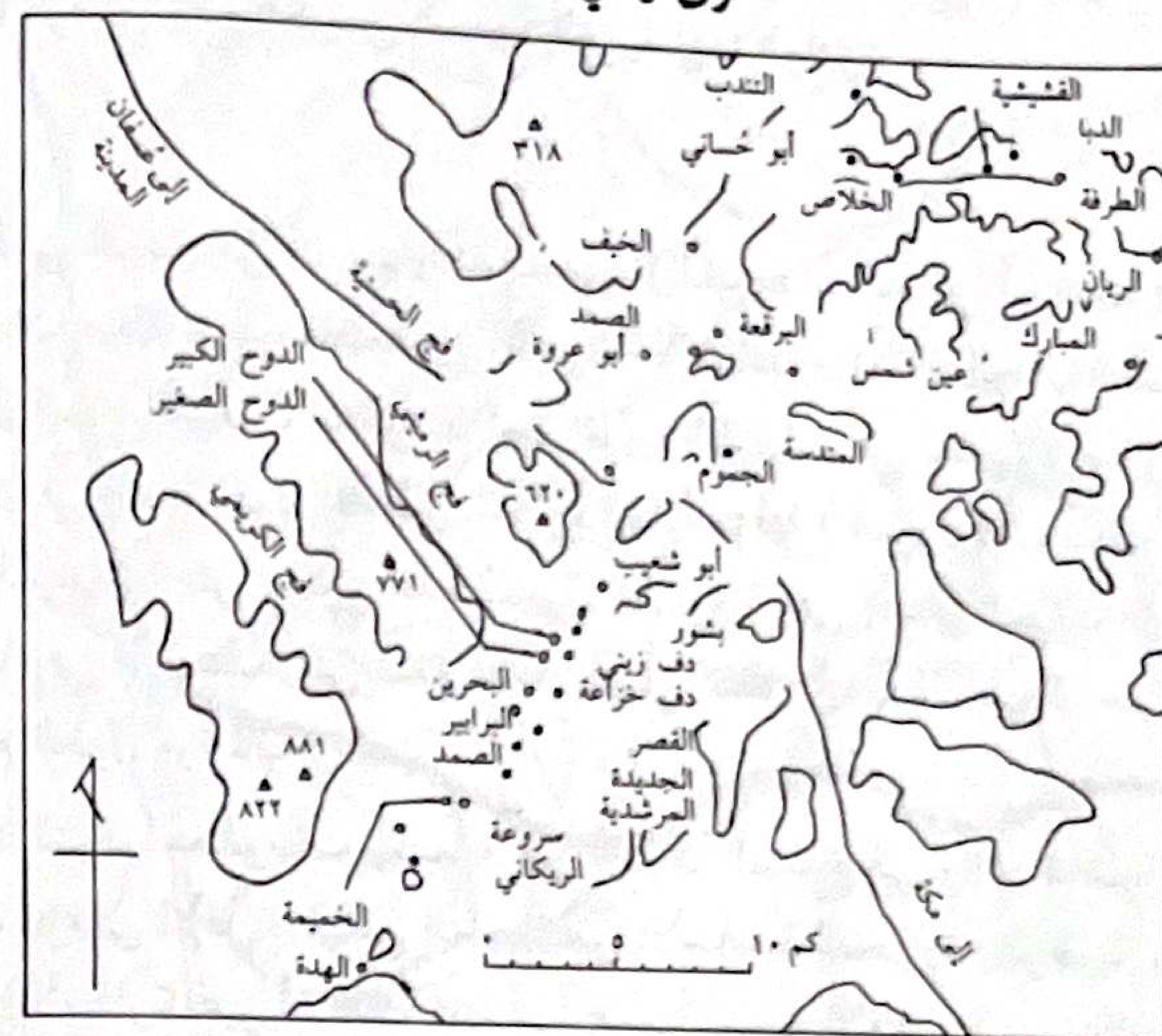
لا تتوفر معلومات رسمية عن أحوال المناخ في وادي فاطمة، وقد حاولت، على الأقل، قياس الخصائص الأساسية للحرارة والرطوبة والرياح وهطول الأمطار، غير أن ذلك كان أمراً عسيراً بسبب الافتقار إلى وسائل ومرافق الأرصاد الجوية[1]، ووضع مقياس حراري على ارتفاع متر ونصف عن سطح الأرض على شجرة سدر، وهي من أكثر الأشجار ارتفاعاً في الصحراء، بغية قياس درجات الحرارة في الظل، وتم قياس الحرارة في الساعة الثانية بعد الظهر عند منتصف النهار في الصحراء، وفي الساعة الخامسة صباحاً قبل طلوع الشمس في الصحراء بفترة وجيزة.

بعد انتهاء بحثي الميداني، الذي يبدأ عادة في الخامسة صباحاً وينتهي في وقت مبكر بعد الظهر، كنت أعود إلى ملجئي. ومن حوالي الساعة الواحدة ظهراً وحتى الخامسة، أو السادسة مساء، ترتفع درجة حرارة الشمس المحرقة ارتفاعاً كبيراً مما يعطل نشاط جميع الكائنات الحية تقريباً. ولهذا السبب فإن الثانية ظهراً والخامسة صباحاً لم يكونا موعدين مناسبين لجدول عملي فحسب، وإنما كانا زمناً صحيحاً لأعلى درجات الحرارة وأوطأها، ويتضمن الجدول (١) قياسات درجة الحرارة.

(١) و. ب. فيشر: **الشرق الأوسط**، ص٢٨.

شكل رقم ٤ :

قرى وادي فاطمة



● قرى جديدة أقل من عشرين سنة

○ قرى قديمة أكثر من عشرين سنة

〜 طريق

الصورة رقم ١ :



منظر جوي لوادي (وادي النهر الجاف)

لم يكن قياس الرطوبة عملية ناجحة . فعلى الرغم من أن وادي فاطمة هو أقل رطوبة من جدة ، حيث تم تسجيل معدل رطوبة نسبية قصوى قدره ٨٥ بالمئة ، إلا أنه كان من الصعب ، في أغلب الأحيان ، احتمال المناخ الرطب ، ولا سيما قبل هبوب العواصف الرملية في مايو و يونيو .

جدول رقم ١ :

درجات الحرارة في وادي فاطمة

(بدءاً من شهر فبراير ١٩٦٩ حتى يناير ١٩٧٠)

شهر	متوسط درجات الحرارة « مئوية »		درجات الحرارة القصوى « مئوية »			
			الكبرى		الصغرى	
	في الثانية بعد الظهر	الخامسة صباحاً	الثانية بعد الظهر	في الخامسة صباحاً	الثانية بعد الظهر	الخامسة صباحاً
يناير	٣١,٦٥	١٥,٣٠	٣٣,٢٠	١٦,٣٠	٣٠,١٠	١٤,٣٠
فبراير	٣٣,٢٠	١٤,٧٥	٣٤,١٠	١٥,٢٠	٣٢,٢٠	١٤,٣٠
مارس	٣١,٧٥	١٣,٨٠	٣٣,٣٠	١٤,٥٠	٣٠,٢٠	١٣,١٠
أبريل	٣٣,٢٥	١٥,٦٥	٣٥,٠٠	١٦,١٠	٣١,٥٠	١٥,٢٠
مايو	٣٤,٦٥	١٨,٩٥	٣٧,٢٠	١٩,٨٠	٣٢,١٠	١٨,١٠
يونيه	٤١,٥٥	٢٣,٧٥	٤٩,٣٠	٢٤,٢٠	٣٣,٨٠	٢٣,٣٠
يوليه	٣٩,٣٥	٢١,٧٥	٤٠,١٠	٢٢,٥٠	٣٨,٦٠	٢١,٠٠
أغسطس	٤٠,٥٠	٢٦,٠٠	٤٢,٥٠	٢٧,٠٠	٣٨,٥٠	٢٥,٠٠
سبتمبر	٣٥,٦٥	٢٣,٧٠	٣٨,١٠	٢٤,٧٠	٣٣,٢٠	٢٢,٧٠
أكتوبر	٣٤,٢٥	٢٢,٠٠	٣٧,٠٠	٢٢,٣٠	٣١,٥٠	٢١,٧٠
نوفمبر	٣٣,٨٥	١٩,٩٥	٣٥,٣٠	٢١,٤٠	٣٢,٤٠	١٨,٥٠
ديسمبر	٣٢,٤٠	١٧,٠٥	٣٤,٣٠	١٨,٣٠	٣٠,٥٠	١٥,٨٠

ولقياس الريح قمت بنصب عمود ارتفاعه ٤,٥ متراً تقريباً مثبت فيه علم خفّاق بسيط في منطقة مكشوفة . وعلى الرغم من أن ملاحظاتي لم تسجل بصورة منتظمة دقيقة ، فإن الريح السائدة في وادي فاطمة كانت تهب بشكل رئيسي من الغرب أو الشمال الغربي . أما في الفترة ما بين ديسمبر وفبراير فقد كانت هذه

الريح تأتي من الشمال الشرقي ، ولا سيما عند هطول الأمطار أثناء الليل ، ويبدو أن هذه الملاحظة تتفق مع تحليل مناخ منطقة البحر الأحمر الذي قام به هيرمان فلوهن[1] .

إن السرعة الاتجاهية للريح في وادي فاطمة ، كما تمت ملاحظتها بواسطة أشجار السدر أيضاً ، قد تراوحت على مقياس بوفورت لدرجة السرعة الاتجاهية ما بين صفر و٧ (ما بين ٢٨ و٣٣ عقدة أو ما بين ١٣,٩ و ١٧,١ متراً في الثانية)[2] . لقد بلغ معدل السرعة الاتجاهية نحو ٣ (مابين ٧ و١١ عقدة أو ما بين ٣,٤ و٥,٤ متراً في الثانية) .

أما محاولاتي لقياس كمية الأمطار ، باستخدام أسطوانة بسيطة ، فقد باءت بالفشل ، وذلك يعود ، بشكل رئيسي ، إلى ندرة هذه الأمطار وسرعة التبخر . وفي الفترة الواقعة ما بين أكتوبر ١٩٦٨ ومايو ١٩٧٠ هطلت أمطار غزيرة مكونة سيولاً جارفة مرتين في نوفمبر ١٩٦٨، وثلاث مرات في ديسمبر ١٩٦٨، ومرتين في يناير ١٩٦٩، ومرة واحدة في مارس ١٩٦٩ ويناير ١٩٧٠. وهكذا، فقد هطلت أمطار غزيرة جارفة تسع مرات خلال عشرين شهراً، وهبّت ست عواصف من مجموع تسعة خلال الليل . وجفت معظم السيول خلال يوم أو يومين . ويقدر أن معدل هطول الأمطار السنوي يتراوح ما بين ١٠٠ و ٢٥٠ مليمتر .

دراسة القشرة والتضاريس الأرضية

إن المعالم الصخرية البارزة في سلسلة الجبال المحيطة بوادي فاطمة ، مثل جبل دف وجبل مكسّر وجبل أبو غُرّة ، ترتفع عن مستوى سطح البحر ٨٨١ و٧٧١ و٦٢٠ متراً على التوالي . إن الجوانب الشمالية لهذه الجبال هي منحدرات عمودية تقريباً ، بينما تنحدر الجوانب الجنوبية بصورة أكثر اعتدالاً مع انخفاض الطبقة الأرضية . وترتفع سلسلة من التلال على شكل مدرجات حتى تصل إلى قمم الجبال ، وهناك مناطق من الصخور البركانية ، والصخور البركانية البورفيرية ، وصخور الفيليت التي تنتشر على سطح الأرض على شكل تلال مخروطية .

(١) هيرمن فلوهن : **دراسة حول علم الظواهر الجوية لأفريقيا الاستوائية** (بون ١٩٦٥) ص٩-١١.

(٢) تساوي العقدة (الميل البحري) ١,٩ كيلومتراً بالساعة أو ١,٢ ميلاً بسرعة الريح .

وتتصف تضاريس سلاسل الجبال بوعورتها حيث يتراوح ارتفاعها ما بين ٤٥٠ و٦٥٠ متراً فوق سطح الأرض[1] .

إن خمسة وستين بالمئة من تشكيلات الصخور الموجودة في وادي فاطمة يعود تاريخها إلى فترة ما قبل العصر الكمبري ، بما في ذلك الصخور المتحولة والبركانية بأنواعها المختلفة . وقد مرت هذه الصخور بعمليات تشوه وإعادة تبلور وتحول تستدعي الاهتمام[2] .

من المتوقع أن تصبح رواسب خامات الحديد أحد المصادر الرئيسية لصناعة الفولاذ النامية في المملكة العربية السعودية[3] . ففي فبراير ١٩٥٤، اكتشفت طبقة أرضية طولها ٥ أمتار تحتوي على نسبة حديدوز بلغت ٤٦ بالمئة على قمة نتوء من الحجر الرملي في السهل الرملي المحاذي للطريق المؤدي إلى الجموم ـ عسفان ، في الجزء الشمالي من وادي فاطمة[4] . وأعقب هذا الاكتشاف سلسلة من الاكتشافات المهمة الأخرى في أجزاء أخرى من الوادي . واستناداً إلى ما جاء في تقرير صدر في ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨، تشكل هذه الرواسب جزءاً من «تشكيل الشميسي» الذي يعود تاريخه إلى العصر الحديث اللاحق كان قد ترسب في الخلجان البحرية الضحلة في المناطق القاعية البلورية[5] .

لقد أُجري عدد من دراسات التعدين لاستكشاف طبيعة الرواسب هنا ، ولمعرفة الخامات المتوفرة للاستخدام في مصانع الفولاذ المحلية . ويجري التفكير حالياً في استخدام التعدين السطحي كمرحلة أولى في العمليات في هذه المنطقة . ويجري حفر مناجم مكشوفة في منطقتين تفصل بينهما مسافة قدرها ٢٥

(١) أحمد م .س .الشنطي : **رواسب الحديد الخام وتكلّسه في وادي فاطمة بين جدة ومكة** ، ص٥.

(٢) المصدر السابق ، ص٩-٣٦.

(٣) أحمد زكي اليماني في مقدمته لكتاب الشنطي : رواسب الخام وتكلسه .

(٤) الاكتشاف الأولي للحديد الخام كان من قِبَل ر . ريشتر- برنبورغ وو . سكوت ، وكلاهما تلميذ من ألمانيا ، وقد شرح هذا الاكتشاف في التقرير ، غير المطبوع ، المعنون «**الأبحاث الجيولوجية في غرب المملكة العربية السعودية**» المعدّ للمديرية العامة للموارد المعدنية في المملكة العربية السعودية بتاريخ ١٩٥٤.

(٥) الشنطي : رواسب الحديد الخام وتكلّسه ص٥-٧.

كيلومتراً تقريباً . وتقع إحدى هاتين المنطقتين على مسافة ٢٠ كيلومتراً إلى الشمال من قرية الهدّة ، بينما تقع الأخرى على بعد ١٠ كيلومترات تقريباً إلى الشرق من الهدّة ، وتتجاوز الطريق العام مكة ـ جدة . وتحتوي طبقتان للخامات في المنطقة الأولى على ٢٦ مليون طن من خامات الحديد حسب التقديرات ، أما في المنطقة الثانية فتشير هذه التقديرات إلى أن طبقة خامات سرئية واحدة تحتوي على ٢٢ مليون طن من رواسب خامات الحديد . إن معدل كمية الحديدوز في هذه الرواسب يبلغ ٤٧ بالمئة .

وقد وجدت أيضاً رواسب صغيرة معدودة من النحاس المخلوط بالهيماتيت المرتبطة بعرق منقطع من الكوارتز ، ولا سيما في المنطقة الأولى ، كما كشف التحليل الكيميائي عن ذرات من بقع النحاس في رواسب الكلسيت والحجر الجيري في الطبقات الرخامية لحزام الأمفيبولايت والشست الواقعة في الجنوب والجنوب الشرقي للمنطقة الثانية .

وتوجد أيضاً رواسب غير معدنية في وادي فاطمة . فقد جرى فتح عدة محاجر في طبقات الصخور الجيرية لحزام الأمفيبولايت والشست . إن هذا الحجر الجيري المعاد التبلور يتراوح لونه ما بين الأبيض والرمادي الفاتح ويستخدم ، بصورة رئيسية ، في صنع الجير وتوفير صخر البناء والزينة .

النبات :

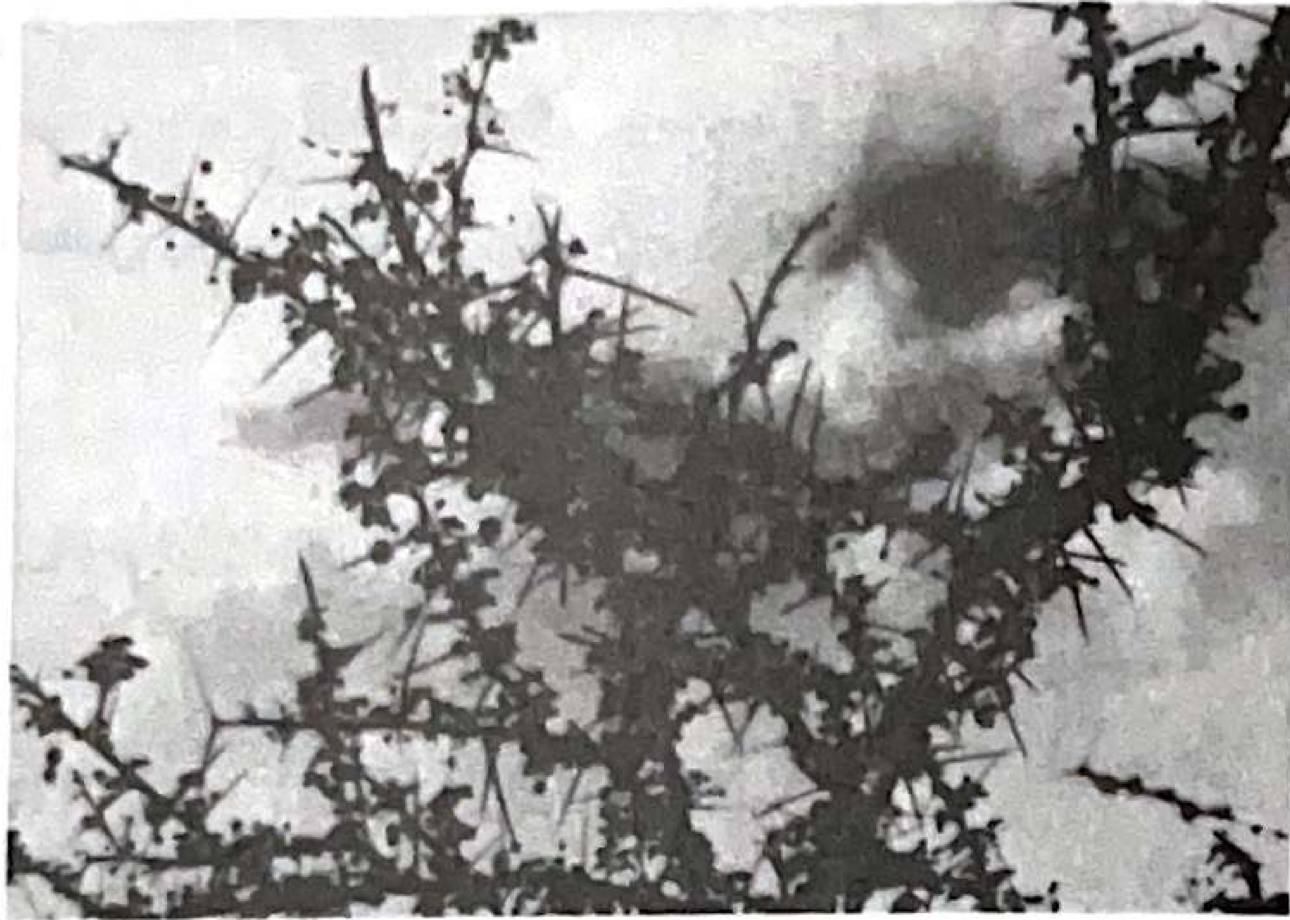
يقع وادي فاطمة من الناحية الجغرافية في منطقة النبات الصحراوية[1] . وتتصف نباتات هذه المنطقة بقدرتها الهائلة على التكيف للجفاف والملوحة ، وأهمها النباتات الشوكية ، ويمكن ملاحظة أنواع مختلفة من الأشجار والأعشاب في الوديان والسهول حيث تخزن الرطوبة في الرمل والحصى . غير أن أنواعاً معدودة فقط من الأشجار البرية تنمو في المناطق الجبلية حيث تكون الظروف مواتية إلى حد كبير .

إن شجرة «السلم» (Acacia ehrenbergiana) هي أحد أنواع الأشجار البرية المنتشرة على أوسع نطاق في وادي فاطمة (الصورة رقم ٢) .

(١) فيشر : الشرق الأوسط ، ص٧٠-٧٣.

إن أهم أجزاء هذه الشجرة هي أغصانها الشوكية لأنها تستخدم في صنع الأسياج لحماية النباتات من الغنم والماعز ، ولحماية الغنم والماعز من الذئاب والضباع . ولا يتطلب ذلك سوى قطع الأغصان ووضعها حول النباتات أو الحيوانات ، وحتى الأشواك الجافة تحتفظ بحدتهاالثاقبة . وتقوم الإبل والغنم والماعز بالتهام الأوراق الصغيرة لشجرة «السلم» متجنبة بمهارة الأشواك الكبيرة . وفي شهر يناير ، وعندما تكون حرارة الصحراء منخفضة ، وعند ظهور البعوض لفترة وجيزة ، تحمل شجرة «السلم» أزهاراً صفراء صغيرة . إلا أن تفتح الأزهار هذا قد لا يدوم إلا لأيام معدودة ، كما هو الحال مع معظم الحشائش المزهرة في هذه المنطقة . ولا يتجاوز ارتفاع هذه الشجرة عادة ٢,٥ متراً أو أقل ، ما عدا تلك الموجودة حول المقبرة المحلية حيث لا يقوم البدو بقطعها . وأحياناً يصل ارتفاع هذه الأشجار غير المشذبة إلى ٥ أمتار أو أكثر .

الصورة رقم ٢ :



أغصان شوكية لشجرة السلم ، إحدى أكثر الأشجار انتشاراً في وادي فاطمة

أما شجرة السدر (Ziziphus spina - christi) ، وهي شجرة أخرى مألوفة في وادي فاطمة ، فيصل ارتفاعها إلى ١٠ أمتار أو أكثر ، وهي توفر الظل . وغالباً ما يجلس الناس تحت هذه الأشجار ليرتاحوا أو ليتناولوا طعامهم . وعندما يستقر البدوي في مكان ما ويبني بيتاً من الطين مع حديقة مسورة ، فإنه غالباً ما يزرع أشجار السدر في وسط هذه الحديقة . ويسود هذا التقليد ، بشكل خاص ، في القرى القديمة مثل أبو عروة ودف زيني .

كانت شجرة النخيل أو التمر (PhŒnix dactylitera) في الماضي أهم النباتات في وادي فاطمة ، وكان التمر عنصراً هاماً في طعام الناس . لقد جرى ضخ كميات كبيرة من المياه من هذه المنطقة للمدن التي تشهد توسعاً سريعاً مثل جدة ومكة إلى الحد الذي أدى إلى جفاف الينابيع مؤخراً وموت العديد من أشجار النخيل . وعندما يرى الناس شجرة نخيل شارفت على الهلاك اليوم ، يقومون فوراً بحرقها بأكملها لكي يحتفظوا بأكبر كمية ممكنة من المياه .

من بين الأشجار النادرة في هذه المنطقة أشجار البشام (Grewia mollis)، والطلح (Acacia seyal)، والسمر والعوسج (Lycium sp.)، كما توجد في المنطقة بعض الحشائش والأعشاب البرية . وباستثناء الحرمل (Peganum harmala)، وهو عشب مر ، فإن هذه الحشائش والأعشاب تشكل طعاماً للحيوانات . ويستعمل الحرمل كدواء لمعالجة الإسهال ، أما البابونج فهو عشب آخر يصنع منه شراب كالشاي .

وتزرع في المنطقة أيضاً نباتات الليمون الحامض والمالح والأعناب والجوافة (وهو نوع من الكمثرى) . وستجري مناقشة هذه الفواكه بمزيد من التفصيل في الفصل الرابع المتعلق بالهيكل الاقتصادي لوادي فاطمة .

الحيوانات :

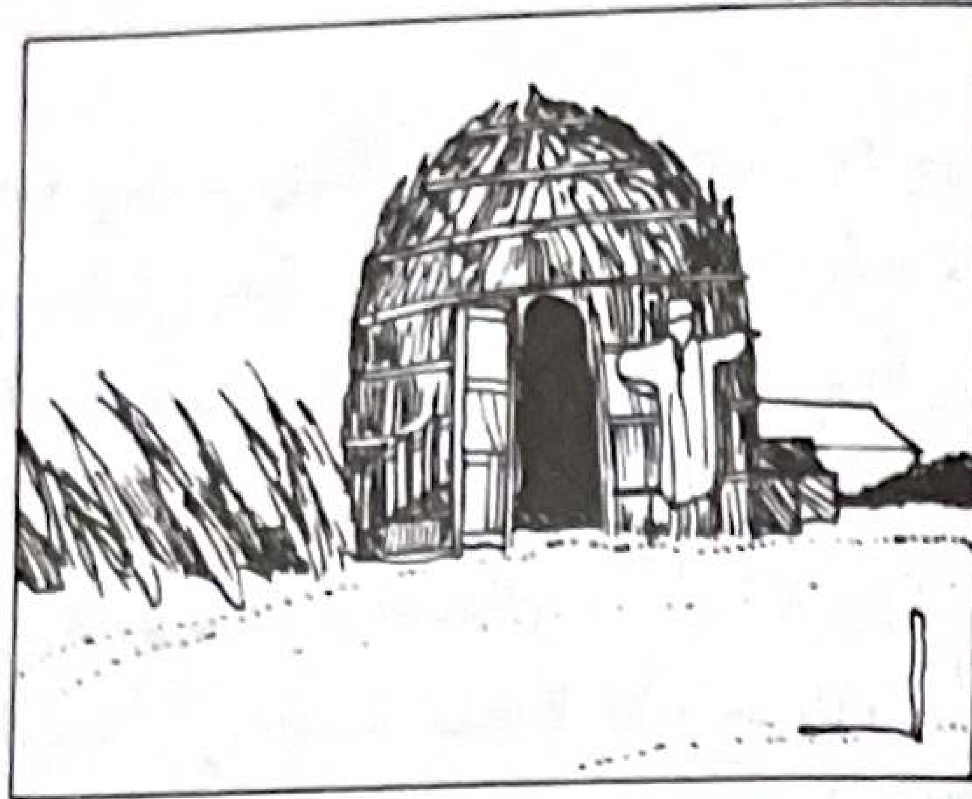
إن الضباع والذئاب والثعالب هي حيوانات مفترسة في هذه المنطقة. وأحياناً يُسمع عواء الذئاب خلال الليل ، وتقوم هذه بمهاجمة الغنم والماعز . وتشكل الثعالب خطراً على الدجاج والحمام الذي يربى لبيعه إلى تجار المدن . ولحماية حيواناتهم وطيورهم الداجنة ، يبني السكان الأسياج الشوكية أو يصنعون الفزّاعات من أعواد النخيل المتقاطعة التي يضعون عليها رداءً طويلاً ، وينصبونها في الحقول ، أو خارج أكواخ العشاشي ، كما يربون دائماً الكلاب التي تحرس قطعانهم .

كانت الغزلان الرشيقة موجودة في وادي فاطمة ، إلا أن أعدادها تناقصت بسرعة في السنوات الأخيرة . ويشكل الحجل والسماني والنسور الأنواع الرئيسية للطيور في المنطقة . وتبني الطيور البرية أعشاشها غالباً في أشجار السدر .

وتعيش في المنطقة بعض العقارب والثعابين والعناكب والجراد . إن

العقارب البنية اللون الصغيرة لا تؤذي عند اللدغ ، إلا أن العقارب البنية الداكنة الكبيرة أكثر خطورة . لقد تكونت لدى معظم البدو مناعة ضد لدغات العقارب ، إلا أن هذه اللدغات تؤدي إلى وفاة الأطفال أحياناً . وتكون بعض الثعابين سامة ، إلا أنها لا تشكل مشكلة كبيرة ، وهذا ينطبق على الأنواع الصغيرة من العناكب والجراد ، على الرغم من وجوب رش الحقول المزروعة من وقت لآخر .

لقد قام السكان مؤخراً بتدجين الأرانب البرية لغرض استخدامها كطعام . ويتضمن الفصل الثامن تفاصيل كاملة عن تربية الحيوانات وتدجينها .



فزاعة للطيور

الفصل الثالث

الخلفية التاريخية

إن القرآن الكريم هو المصدر الرئيسي الذي يستقي منه الباحث معلومات عن البنية الاجتماعية، وطريقة العيش الفعلية في الجزيرة العربية في أواخر فترة ما قبل الإسلام وفي زمن النبي محمد ﷺ. ومن بين المصادر الثانوية القيّمة لتاريخ الجزيرة العربية كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني(١)، وصحيح البخاري(٢)، والكامل في التاريخ لابن الأثير(٣)، والطبقات الكبرى لابن سعد(٤)، والسيرة النبوية لابن هشام(٥)، وتاريخ مكة لأحمد السباعي(٦)، وتاريخ العين العزيزية بجدة لعبد القدوس الأنصاري(٧)، وجغرافية المملكة العربية السعودية لمحمد طه أبو العلا(٨).

التاريخ القديم:

لا يتوفر إلا القليل من المعلومات عن وادي فاطمة في أيام الجاهلية، إلا أن من المؤكد أن الوادي كان منذ أقدم الأزمان مركزاً مهماً للقوافل المارة بين

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: كتاب **الأغاني** (القاهرة، ١٩٣٨ـ بالعربية) الأجزاء: ١ـ١٤.
(٢) البخاري: **الصحيح** (القاهرة، ١٩٣٣ـ بالعربية).
(٣) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** (القاهرة، ١٩٥٧ـ بالعربية) الجزءان ١و٢.
(٤) ابن سعد: **الطبقات الكبرى** (بيروت، ١٩٥٧ـ١٩٥٨ـ بالعربية)، الأجزاء: ١ ـ ٨.
(٥) ابن هشام: **السيرة النبوية** (القاهرة، ١٩٥٥ـ بالعربية) الإجزاء ١ـ٣.
(٦) أحمد السباعي: **تاريخ مكة** (مكة ١٩٦٨ـ بالعربية) الجزءان ١و٢.
(٧) عبد القدوس الأنصاري: **تاريخ العين العزيزية بجدة** (جدة، ١٩٦٥ـ بالعربية).
(٨) محمد طه أبو العلا: **جغرافية المملكة العربية السعودية** (مكة، ١٩٦٣ـ بالعربية) الإجزاء ١ـ٣.

مكة والمدينة . وكان هذا الوادي أيضاً منطقة سكنية مزدهرة ، وفي زمن من الأزمان تفوق في ازدهاره حتى على مكة بفضل وفرة ينابيع المياه فيه .

لقد اتسمت هذه الفترة التاريخية المبكرة بظاهرة ترجع نسب العائلة إلى الأم على نطاق واسع ، كما أشار إلى ذلك ، بصورة غير وافية ، مونتغمري واط[1] ، وروبيرتسون سميث[2] ، وقمت أنا بمناقشته[3] . إلا أن هذا النظام بدأ بالزوال ليحل محله نظام العائلة التي يرجع نسبها إلى الأب ، وقد تأثر النبي محمد ﷺ نفسه بهذين الاتجاهين . وعلى الرغم من أنه شجع الاتجاه نحو إرجاع النسب إلى الأب ، فالجدير بالملاحظة أن زوجته الأولى خديجة كانت تكبره بخمسة وعشرين عاماً ، وكانت قد حققت نجاحاً كبيراً في المجال التجاري ، وقد عمل النبي ﷺ لديها لعدد من السنين قبل زواجه منها . أما عائشة ، أحب زوجات النبي إليه ، فقد أظهرت نوازع أنثوية «تحررية» ، وشاركت مشاركة فعالة في معارك الصحراء . وفي قبائل وادي فاطمة اليوم ، التي تؤمن بهيمنة الأب على الأسرة ، لا تزال النساء يلعبن دوراً محدداً وفعالاً في حياة الأسرة .

لقد ذكر ابن هشام ، في السيرة النبوية ، أن الاسم القديم مَرّ الظهران كان يشير إلى وادي فاطمة[4] . إن الاسم «مر» أو «مارة» ، رغم أنه لا يعرف معناه الدقيق حتى الآن ، قد يعني «ممراً بين سلسلتين من الجبال» . إن كلمة «ظهر» العربية تعني «العمود الفقري» ، وكلمة ظهران هي صيغة مضاعفة تشدد على معنى الكلمة . إن اسماً يستند على هذا الجزء الهام من جسم الإنسان يوحي أن وادي فاطمة كان ، منذ زمن الرسول ﷺ في أضعف التقديرات ، منطقة مزدهرة ومهمة جداً ، أما في زمن الأمبراطورية العثمانية ، فقد كان الوادي يدعى بكل بساطة وادي مارّة[5] .

عندما تستقر مجموعة من البدو في مكان ما فترة طويلة تستوجب إيجاد

(١) مونتغومري وات : **محمد في المدينة** .

(٢) روبرتسون سميث : **النسب والزواج في العربية السعودية قديماً** .

(٣) كاتاكورا : **تطور العائلة «الأمومية» في بدء نشوء العربية السعودية وانعكاساتها في القرآن الكريم** .

(٤) ابن هشام : **السيرة النبوية** ، الجزء الأول ، ص١٥٣.

(٥) أحمد السباعي : **تاريخ مكة** ، الجزء الأول ، ص٢٦١.

هوية خاصة بها ، يطلق أبناء القرى المحيطة بها اسماً عليها . وقد يشتق هذا الاسم من اسم امرأة ، أو من كلمة ، أو عبارة تصف الموقع الجغرافي للمكان . إن أسماء القرى مثل صروعة والهدّة والخميمة مشتقة من أسماء النساء . إن اسم قرية «عين شمس» يشير إلى عين ماء كانت موجودة في المنطقة ، وكانت تعود إلى امرأة تدعى شمس . إن الاسمين «قشاشية» و «دبة» يعنيان «مبتسمة» و«بدينة» على التوالي . أما الأسماء مثل «أبو شعيب» و «الجموم» و «البشور» و«زيني» فهي أسماء أماكن وفروع قبيلة . والاسم «البحرين» يطلق على قرية كانت غزيرة المياه ، وهناك قرية تدعى «المندسة» وأخرى «المبارك» .

جدة ومكة :

على الرغم من أنه لا يتوفر إلا القليل من المعرفة بالتاريخ الدقيق لوادي فاطمة ، فإن هذا التاريخ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ جدة ومكة . يعود تاريخ جدة إلى عصور ما قبل الإسلام ، إلا أنها أصبحت مركزاً مهماً في العام ٦٤٨ بعد الميلاد تقريباً ، عندما قرر الخليفة عثمان جعلها ميناءه الخاص . ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن ازدادت طرق المواصلات بين جدة ومكة ازدياداً كبيراً ، ومرت هذه الطرق عبر وادي فاطمة .

إن جدة هي أكثر مدن المملكة العربية السعودية ازدحاماً بالسكان . فقد أشار إحصاء سكاني ، تقريبي غير رسمي ، أجرته الحكومة ، في عام ١٩٦٩ ، إلى أن عدد سكانها بلغ ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة (يبلغ عدد سكان العاصمة الرياض ٢٥٠ ٠٠٠ نسمة تقريباً ، ومكة نحو ٢٥٠ ٠٠٠ نسمة) ، وهي تختلف عن مكة في أنها شكلت نقطة اتصال مع الغرب منذ أقدم العصور . وفي عام ١٥٤١م شنت سرية برتغالية هجوماً على ميناء جدة باء بالفشل لأن المدينة نفسها كانت محصنة تحصيناً جيداً ، وظل الجدار العالي ، المشيد من الطين والصخر ، قائماً حتى عام ١٩٤٧ تقريباً . وخلال القرن التاسع عشر أقام الدبلوماسيون والتجار البريطانيون والفرنسيون فيها ، على الرغم من أن المسلمين المتدينين استاؤوا من وجود غير المسلمين . وخلال الحرب العالمية الأولى احتلها البريطانيون أثناء حملتهم العسكرية لطرد الأتراك من الجزيرة العربية .

لم يتسرب إلا القليل من أثر الصلات التي أقامتها جدة مع الغرب قديماً إلى

داخل البلاد، حتى ولا إلى وادي فاطمة على الرغم من قصر المسافة بينهما، إلا أن الشركات التجارية، مثل جيلاتلي هانكي (بريطانية)، وانترناشونال بيكتيل (أمريكية)، وأمريكان إيسترن تريدنج كوربوريشين، أسهمت في إنعاش اقتصاد المنطقة إسهاماً كبيراً. أما في السنوات الأخيرة، فإن التطور الصناعي والتحديث، اللذين تشهدهما جدة، قد عادا بالمنافع والمساوىء، على حد سواء، على وادي فاطمة. وعلاوة على قيام شركة جيلاتلي هانكي بإيجاد أسواق تصدير للبضائع العربية، فإنها خلفت أعمالاً وأجوراً تطلبتها عملية بناء خطوط توريد المياه الهائلة من وادي فاطمة إلى جدة. وقد حضر الاحتفال الكبير بمناسبة افتتاح هذه الخطوط، في ١٨ نوفمبر ١٩٤٧م، عبد الله السليمان، وزير المالية، الذي تمت على يده المفاوضات مع شيوخ وادي فاطمة، كما حضر الاحتفال الملك فيصل الراحل الذي كان آنذاك ولياً للعهد، وأفراد العائلة المالكة، والهيئات الدبلوماسية، وغيرهم من الشخصيات البارزة، بالإضافة إلى جمهور زاد عدده على ستة وعشرين ألف نسمة. ولسوء الحظ، كما ذكر آنفاً، فإن خطوط توريد المياه الجديدة أدت إلى نقص شديد في كميات المياه المحدودة في وادي فاطمة[١].

جرى في عام ١٩٦٩م سحب ١١ مليون غالون من الماء من وادي فاطمة، وحوالي ٣ ملايين غالون من وادي خليص، وهو واد نهر جاف يقع على مسافة ١٤٠ كيلومتراً إلى الشمال من جدة[٢]. إن من شأن مصنع لإزالة الملوحة من المياه يجري إنشاؤه حالياً لتزويد المدينة بخمسة ملايين غالون إضافية من المياه، وعند إكمال هذا المشروع سيجري سحب كميات أقل من المياه من وادي فاطمة. ولكنه نظراً لازدياد عدد سكان جدة بنسبة ٢٥٠ في المئة، ما بين عام ١٩٦٢م و١٩٦٩م، فيمكن الافتراض أن الطلب على المياه سيشهد ازدياداً سريعاً أيضاً.

إن جدة هي المدخل لمدينة مكة المكرمة التي يتوجب على كل مسلم قادر زيارتها مرة واحدة على الأقل خلال حياته، إذا كان قادراً على القيام بتكاليف هذه الزيارة. ورغم أن بعض الحجاج في البلاد لا يزالون يقدمون إليها على

---

(١) خيمّت أجواء الأعياد والأفراح بمناسبة ضخ الماء من وادي فاطمة إلى جدة. ولمزيد من التفاصيل انظر: سينجر: **شبه الجزيرة العربية**، ص٧. على أن أهالي وادي فاطمة، حيث استخرج الماء، لم يؤخذوا بالاعتبار في هذه الاحتفالات.

(٢) الأمم المتحدة: **تحلية المياه في البلدان النامية**، ص٢٣٢.

ظهور الجمال، فإن ما يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف مسلم ثري يهبطون في مطار جدة كل عام، بينما يصل إليها بالبواخر ما يتراوح ما بين ثلاثمائة وأربعمائة ألف شخص، خلال موسم الحج في شهر ذي الحجة. ويستقبل العديد من سكان المدينة ضيوفاً يدفعون أجراً مقابل إقامتهم خلال هذا الشهر، غير أن العديد من الزوار يقنعون بتناول الطعام والمبيت في الشوارع، أو النوم على أسرّة من قصب في «مقاهي مكشوفة» على الطريق العام بين جدة ومكة.

كانت الرحلة على ظهر البعير إلى مكة تستغرق يومين، أما الآن فإن الحافلات تنقل الحجاج من جدة إلى مكة في رحلة تستغرق ساعتين. ويقوم العديد من الزوار بتوفير المال لسنين عديدة لكي يقوموا برحلتهم المقدسة إلى مكة، وعند الوصول، يتوفر لديهم، بشكل عام، المال الكافي للإنفاق على أنفسهم في كلتا المدينتين.

إن مكة هي مدينة ذات أصول تعود لعصور غابرة. ويتفق العديد من المؤرخين، مع المؤرخ الإغريقي بتوليمي في زعمه، إنها نفس المركز التجاري القديم الذي كان يطلق عليه اسم مَكُورابا[١]. ويحدثنا التاريخ أنها نشأت في وادٍ يدعى البقاع، وقرب بئر يدعى زمزم أصبح، فيما بعد، مكاناً مقدساً للعبادة. وبعد بناء الطريق، الذي يشق وادي البقاع، حمل تجار القوافل التوابل والمجوهرات والعبيد من جنوب الجزيرة العربية إلى شمال سوريا، وبحلول نهاية القرن السادس أصبحت مكة مركزاً تجارياً كبيراً.

على الرغم من أن عدد سكان مكة يبلغ نحو ٢٥٠ ٠٠٠ نسمة، فإن مليون شخص إضافي يقدم إلى المدينة المقدسة خلال شهر الحج، منهم ٣٥٠ ٠٠٠ شخص من الخارج، و ٦٥٠ ٠٠٠ شخص من المملكة العربية السعودية[٢]. وقبل اكتشاف النفط، كانت عوائد المبيعات إلى الحجاج تشكل أهم مصدر للدخل في المملكة العربية السعودية. وحسب العرف التقليدي، ينبغي على الحجاج، إلى المدينة المقدسة، إشراك أقاربهم وأصدقائهم في بلدانهم بالبركة

---

(١) فيليب حتي: **تاريخ العرب**، ص١٠٣.

(٢) رغم إقفال قناة السويس كنتيجة للحرب العربية الإسرائيلية ١٩٦٧، فقد زاد عدد الحجاج في السنين التالية. الإحصاء الرسمي الصادر عن وزارة الحج.

عن طريق تقديم الهدايا والتذكارات إليهم ، ولهذا السبب أصبحت المدينة المقدسة مركزاً تجارياً غنياً تتوفر فيه كميات كبيرة من البضائع اليابانية والأمريكية والبضائع الأجنبية الأخرى .

التطورات السياسية الحديثة :

استوطن الساميون شبه الجزيرة العربية لما لا يقل عن ثلاثة آلاف عام . ويعتقد بعض الباحثين أن الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي للساميين ، مؤكدين أن الفتوحات الإسلامية ، في القرن السابع بعد الميلاد ، لم تكن إلا آخر حلقة من سلسلة من الانتفاضات التي دفعت الشعوب السامية إلى خارج شبه الجزيرة العربية .

وباعتبار محمد ﷺ نبي الله ، فقد حقق لأمته زعامة دنيوية ودينية ، وعندها زال الولاء التقليدي للقبائل . أمام انتشار رابطة الإيمان الديني ، تمكنت الحكومة الدينية المتحمسة ، بزعامة أبي بكر ، من توسيع نطاق نفوذها خارج حدود الجزيرة العربية . وخلال قرن واحد ، استولت على بلاد الفرس وشمال أفريقيا وأسبانيا ، إلا أن النزاعات على الخلافة وعوامل أخرى أدت بعد مضي عقود من السنين ، إلى تقوض أركان وحدة الأمبراطورية الإسلامية .

وتلت ذلك فترة انحسر فيها نفوذ شبه الجزيرة العربية في العالم العربي . فخلال سنوات معدودة بعد وفاة الرسول محمد ﷺ ، لم تعد يثرب (المدينة المنورة) عاصمة للأمة الإسلامية ، وأصبحت المنطقة التي تعرف الآن بالمملكة العربية السعودية مكاناً متخلفاً منعزلاً ، واستمر هذا الانعزال عن بقية العالم لما يقرب من ألف عام ، وخضعت مكة والمدينة لحكم الأرستقراطيين فيهما الذين أعلنوا ولاءهم للدولتين الأموية والعباسية ، من القرن السابع وحتى القرن العاشر ، وأصبحت زعامة مكة وراثية في العائلة الهاشمية ، وهم أحفاد هاشم ، الجد الأكبر للرسول محمد ﷺ ، وظلت المدينة خاضعة لسيطرتهم حتى انتزعها منهم ابن سعود في عام ١٩٢٤م .

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ، أقام البريطانيون صلات مع الشريف حسين في مكة . وتحت تأثير المكتب العربي الذي أسس في القاهرة تحت سيطرة وزارة الخارجية البريطانية ، أعلن الشريف حسين استقلال الجزيرة العربية في يونيو١٩١٦م . وفي أكتوبر من العام نفسه ، أعلن نفسه ملكاً على البلدان العربية ، رغم أن بريطانيا لم تعترف به إلا ملكاً على الحجاز (المحافظة الغربية في المملكة العربية السعودية التي تشمل جدة ومكة والمدينة ووادي فاطمة) ، وثمّن الحلفاء ولاء الشريف حسين بسبب موقع مملكته الاستراتيجي وقربها من قناة السويس والبحر الأحمر ومصر التي كانت تحت الاحتلال البريطاني .

ولد ابن سعود (دام حكمه من ١٩٠١م إلى ١٩٥٣م) الذي أسس المملكة العربية السعودية ، في الرياض عاصمة نجد (محافظة داخلية في قلب الجزيرة العربية) . وبسبب إصراره على استعادة سلطان عائلته ، التي كانت قد حكمت في الماضي معظم أجزاء الجزيرة العربية ، فرض ابن سعود سيطرة كاملة على نجد ما بين عام ١٩٠٠م و ١٩١٢م . وفي عام ١٩١٣م غزا الأحساء (وهي محافظة شرقية على الخليج العربي) ، وفي عام ١٩٢٤م دخل الحجاز . وبعد مضي ثمانية أعوام على ذلك أطلق على مملكته اسم العربية السعودية ، وأعلن نفسه ملكاً عليها . وكان هذا أخيراً إعلاناً بتوحيد منطقة ظلت مجزأة طوال تاريخها الطويل تقريباً .

على الرغم من أن ابن سعود ، الذي تأثر تأثراً كبيراً بتعاليم محمد عبد الوهاب ، بسط نفوذه عن طريق توحيد القبائل على أساس الإسلام ، فإن ذلك لم يغير من ولاء أبناء القبائل المحلية لشيوخها . واليوم ، يشرف على إدارة المنطقة ، التي تشمل وادي فاطمة ، أمير من العائلة السعودية المالكة وإنما هو من نجد ويسكن في الجموم . إن الحكومة جادة في السعي لمساعدة البدو في الحجاز ووادي فاطمة ، إذ تقوم وزارة الزراعة والمياه غالباً بإرسال المسؤولين لتفتيش المنطقة والخبراء لرش المحاصيل الزراعية بمبيدات الحشرات . وعندما طلب أحد الأمراء من الحكومة تقديم العون لخمسين مزارعاً تضرروا من فيضان غير متوقع في يناير ١٩٦٨م ، قامت هذه الحكومة بدفع مبلغ ٢٠٠٠ ريال (٤٨٠ دولاراً أمريكيا) إلى كل واحد منهم ، كما قام مركز التنمية الاجتماعية ، الخاضع لإشراف وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، بتقديم العون والمعلومات وإنشاء التعاونيات بوادي فاطمة ، ومع ذلك ، فلا يزال هؤلاء السكان يحتفظون بمشاعر الفخر والانتماء للقبيلة .

ولعائلة الأمير صلات محدودة بوادي فاطمة . لقد قالت لي زوجة الأمير ، وأطفالها مرة ، إنهم يشعرون بسعادة خاصة عندما يجمعهم الشمل مع أهلهم في نجد . يقوم الأمير أحياناً بزيارة المنطقة يرافقه حراسه وأحدهم من قبيلة بني مرة

التي يعرف عن أبنائها مهارتهم في التعرف على الأشخاص عند النظر إلى آثار الأقدام في الرمال .

التطور الصناعي الحديث :

شرع ابن سعود ، منذ البداية ، في تحديث مملكته ، فأنشأ نظام اتصالات حديث يتضمن محطات إذاعية فعالة ، وشكل جيشاً نظامياً وقوة جوية . وخلال الحرب العالمية الثانية ، ظلت المملكة العربية السعودية محايدة ، على الرغم من أن ابن سعود كان مناصراً للحلفاء . والحقيقة أن الحرب عادت على المملكة بقدر كبير من الشقاء الاقتصادي ، حيث أدت إلى اختفاء الحجاج الذين كان عددهم يتناقص فعلاً في ذلك الحين .

على الرغم من اكتشاف النفط واستغلاله في المملكة العربية السعودية ، قبل الحرب العالمية الثانية ، فإن المملكة لم تتحول إلى دولة غنية حتى حلول عام ١٩٥٠م .

لقد شجعت الحكومة الشركات الأجنبية على فتح مصانع في المملكة عن طريق إعفائها من الضرائب المفروضة على جميع المكائن والأدوات ومعدات التصنيع المستوردة ، وعن طريق إعطائها الأراضي مجاناً لتستخدمها في بناء المصانع والمجمعات الصناعية الجديدة ، كما تتوفر لشركات القطاع الخاص الدراسات العملية عن موارد المملكة العربية السعودية .

إن الازدهار الاقتصادي قد مكّن الحكومة من توفير كل شيء ، مثل التعليم لجميع الشباب السعوديين ، ونظم الطرق والاتصالات الحديثة والبرامج الاجتماعية الشاملة .

إن الحكومة تسعى لتوسيع نطاق منتجاتها إلى مدى أبعد في المستقبل . فبالإضافة إلى محطات الطاقة الكهربائية الجديدة التي تم بناؤها ، يجري حالياً تنفيذ مشروع لاستغلال الغاز الطبيعي في المجال الصناعي ، كما يجري إنشاء مصانع لمعالجة الحديد والفولاذ صناعياً ، ويشجع الشبان على دخول المدارس التقنية ، التي أسست حديثاً ، أملاً في توسيع نطاق تصنيع الأسمنت والجص والصابون والأوكسجين والأثاث والسجاد وأعواد الثقاب والمنتجات البلاستيكية ، وفي الوقت نفسه ، يجري تشجيع الفنون السعودية التقليدية ، مثل صناعات

الفسيفساء والرخام والنحاس الأصفر والذهب والجلود والصخر ، كما تزدهر حرف مثل صنع الحلي الصغيرة والمجوهرات والقدور والأوعية ، وحياكة السجاد وتصميم سبحات الصلاة . إن مركز التنمية الاجتماعية في وادي فاطمة يشجع الفنون والحرف ويقوم بعرض منتجاتها بصورة منتظمة .

لقد ازدهرت الصادرات والواردات في السنوات الأخيرة تحت رعاية وزارة التجارة والصناعة ، التي أسست بقرار ملكي في عام ١٩٥٣ ، للإشراف على نمو التجارة داخل المملكة ومع الأقطار الأجنبية على حد سواء . والحقيقة أنه ما بين عام ١٩٥٣م وعام ١٩٦٨م ، بلغت الواردات ، ولا سيما من الولايات المتحدة واليابان ، والصادرات على حد سواء أكثر من ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل هذه الفترة . فقد ارتفعت الواردات من ٩٦٤,٧ مليون ريال إلى ٢٨٠٣,٩ مليون ريال ، والصادرات من ٢٩٤٨ مليون ريال إلى ٩٢٧٣,٩ مليون ريال[1] . ويجد بعض من الكميات الهائلة من البضائع القادمة إلى البلاد طريقه إلى الصحراء . فليس غريباً أن تجد في وادي فاطمة ماكنة خياطة طراز سنجر في خيمة بدوي ، أو تسمع صوت راديو ترانزيستور ، أو مسجل كاسيت ينتقل عبر رمال الصحراء . وقد أضيفت أزرار حديثة إلى براقع النساء التقليدية . وعلى جانبي الطريق المعبَّد حديثاً بين جدة ومكة ، يمكن مشاهدة مئات اللافتات الإعلانية لشركات مثل تويوتا وجنرال موتورز وتوشيبا . إن معظم الناس لا يعرفون موقع اليابان الجغرافي ، ومع ذلك ، فعندما سألت مجموعة منهم أي اسم سيطلقونه على إحدى المستوطنات الجديدة؟ أجابوا مازحين : «توشيبا»! إذ أن معظم القرويين يملكون راديوات ترانزيستور .

يقوم وادي فاطمة ، أيضاً ، بتصدير بعض البضائع . فبفضل استخدام المكائن الزراعية وحفر الآبار الارتوازية ونصب المضخات الكهربائية وتطبيق الطرق الزراعية الجديدة ، يقوم الوادي بتزويد مكة وجدة لا بالمياه فحسب ، وإنما أيضاً بعدد كبير من المنتجات الزراعية ، كما يجري أيضاً ، تصدير الخضروات والفواكه إلى لبنان (ولا سيما بيروت) وباكستان والهند .

---

(١) إحصائيات التجارة الخارجية (الرياض : المكتب الرئيسي للإحصاء ، ١٩٧٠- بالعربية) ص١٢-١٥.

الفصل الرابع

نظام اقتصادي متغير

من الضروري فهم الشخصية المتغيرة والمتذبذبة للسكان البدو في وادي فاطمة بغية فهم البنية الاقتصادية لهذا الوادي. إن كلمة «بدوي» مشتقة من صيغة الجمع في العربية «بدو» وتعني «سكان الصحراء»، أي الناس الذين يعيشون في أماكن غير المدن (واللفظة المضادة لذلك هي «حضر» أي سكان المدن). أما صيغتا المفرد فهي «بدوي» (ذكر من سكان الصحراء) و«بدوية» (أنثى من سكان الصحراء). إن الطريقة التي تستعمل فيها هذه الألفاظ في وادي فاطمة تجعلها تحمل دلالتين مختلفتين. فالبدوي الذي يتنقل في الصحراء يفخر ببداوته وذلك لإدراكه أن القبيلة لا يمكنها أن تعيش في هذه البيئة القاسية والخشنة إلا بكثير من الثبات والوعي والشجاعة. أما من الناحية الأخرى، فإن البدو، الذين كادوا أن يستقروا تماماً في المجتمعات الثابتة في وادي فاطمة، قد يفخرون بأنهم لم يعودوا بدواً، وإنما يعيشون الآن حياة عصرية، ويستعملون منتجات حديثة، ويتقبلون العديد من الأساليب المتحضرة لسكان المدن المجاورة لهم. ومع ذلك، فإن حياة هذه القبائل المستقرة لا تزال ترتبط ارتباطاً قوياً بالصحراء، وسأستعمل لفظة «بدوي» بهذا المعنى الواسع في جميع أجزاء هذه الدراسة. وللإشارة إلى المراحل المختلفة للتطور الاقتصادي، ستستخدم تعابير «البدو الرحل» و«البدو شبه الرحل» و«البدو المستقرون».

يتضمن الجدول (٢) نظرة عامة على وسائل العيش والسلع المعروضة للبيع، وقطعان الحيوانات والدواجن في كل من طرق الحياة الاقتصادية للبدو. إن البدو الرحل هم أبناء قبائل رحل يعيشون في خيام في المناطق المجاورة لوادي فاطمة، ويعتمدون في معيشتهم على تربية الحيوانات. إن القبيلة

جدول رقم ٢ :

أنماط حياة البدو الرحل ، وشبه الرحل والمستوطنين

	وسائل الرزق	السلع المنتجة والمباعة	المواشي والدواجن
البدو الرحل	تربية الأغنام (قطعان الخراف والماعز) والترحال وفقاً لتوفر المرعى والماء تربية الجمال	السمن (دهن للطهي يُستخرج من الأغنام والماعز) المضير (قطع جافة من الحليب) . الصوف (شعر الأغنام والماعز) الوبر(صوف الجمال) الجمال الغنم	الجمال : أكثر من عشرين (٢٠) جمل الأغنام) أكثر من مائة (١٠٠) غنمة
البدو شبه الرحل	يعتمدون على الزراعة إلى حدٍ ما ، باستخدام مياه الأمطار وظائف أخرى غير تربية الأغنام والزراعة العمل كعمال زراعيين صيد الطيور للطعام تربية النحل لانتاج العسل (في المناطق الجبلية) . تربية الغنم	الخضروات ، مثل البطيخ والأعلاف عسل النحل روث الأبقار لحوم الأبقار	الجمال : أقل من ثلاثة (٣) جمال الأغنام : أقل من خمسين (٥٠) الأبقار : واحدة أو اثنتان (١ أو ٢)
البدو المستوطنون	يعتمدون على الزراعة على نحو أوسع باستخدام مياه الواحات والآبار يعملون بمهن إضافية مثل : عمل المراوح والحصر من سعف النخيل يعملون كعمال زراعيين	الخضروات مثل : البطاطا ، والملوخية ، والبصل الأخضر ، والفلفل الحريف ، والقتة ، والشمام ، والباذنجان والطماطم الفاكهة مثل : التمور ، والإجاص والليمون الأبقار الحمير الحمام (للطعام) بيض الدجاج المراوح والحصر المصنوعة من سعف النخيل	الأغنام : ٢ ـ ١٠ الحمير : ١ ـ ٢ الأبقار : ١ ـ ٢ حمام دجاج أرانب

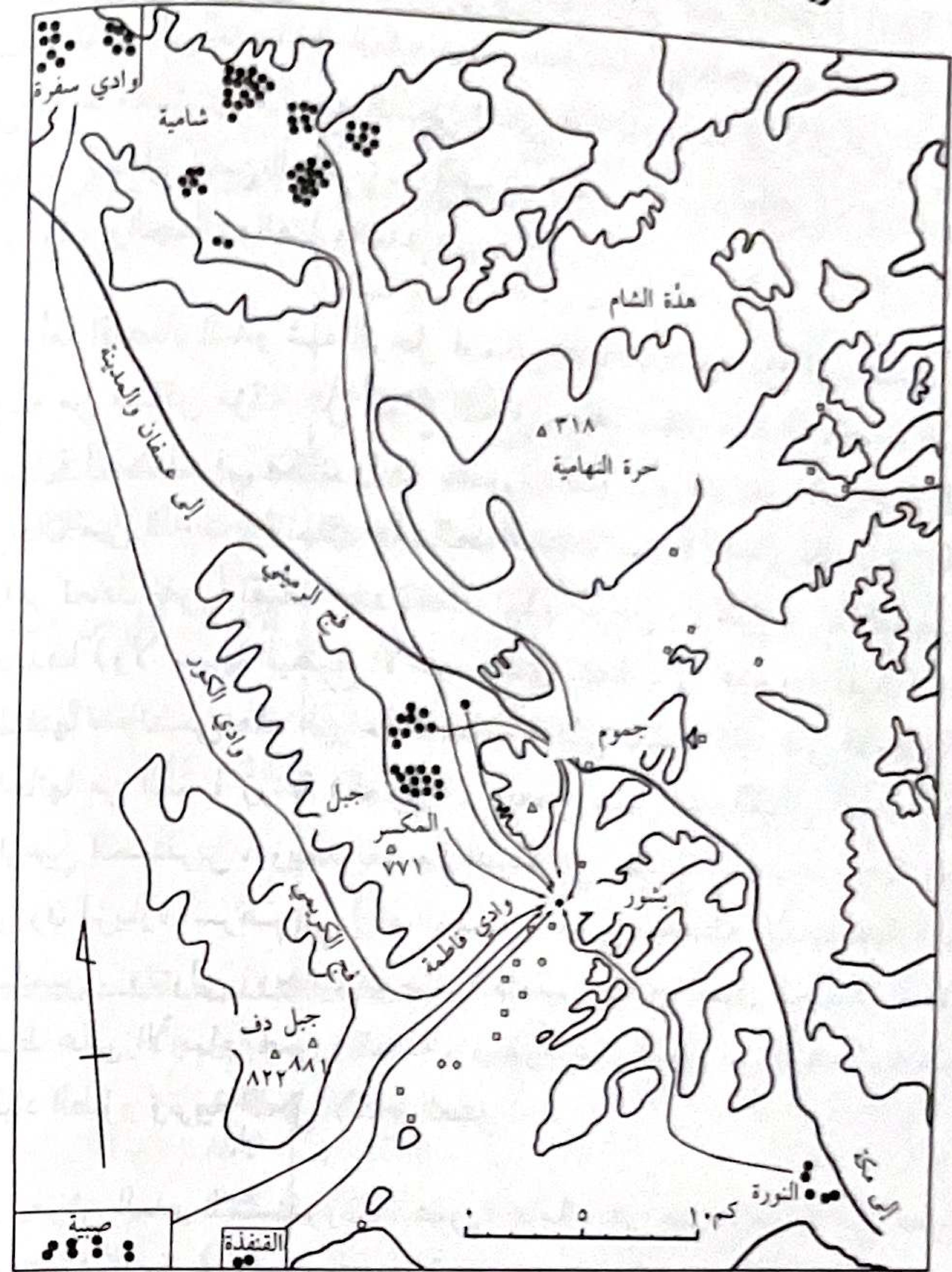
الصحراوية الاعتيادية تنتقل بشكل عام في منطقة مألوفة لا يزيد قطرها على ٤٠ كيلومتراً ، على الرغم من أن بعضهم يصلون في ترحالهم إلى منطقة المدينة (انظر الشكل ٥) ، وقد تملك الأسرة أكثر من ألف رأس غنم وماعز (ولفظة الجمع «أغنام» تشير إلى عدد القطعان) ، وربما عدد قليل من الجمال . وتحصل الأسرة على مورد معيشتها من بيع السمن (دهن الأغنام والماعز لأغراض الطبخ) ، والمضير (كعك اللبن الجاف) ، والصوف (شعر الغنم والماعز) ، والوبر (شعر الجمال) ، والجمال والغنم والماعز .

أما اقتصاد البدو شبه الرحل فيمكن مشاهدته بوضوح في المستوطنات المؤلفة من مساكن مؤقتة مثل أكواخ النخيل . وقد تستقر هذه الجماعات السكانية في نهاية المطاف في مكان واحد بصورة دائمة ، أو قد تعود إلى حياة التنقل والترحال متى شاءت . وتملك هذه الجماعات ، بصورة عامة ، قطعاناً من الأغنام والماعز تعادل تقريباً نصف عدد قطعان البدو الرحل ، وتقوم بزراعة الخضروات وحصدها (ولا سيما البطيخ الأحمر الذي تتطلب زراعته ماء قليلاً) حسب استطاعتها ، وتسمى هذه الزراعة المتفائلة ، التي تعتمد كلياً على الأمطار لتلبية احتياجاتها من الماء ، زراعة «العثري» ، ويعمل بعض أبناء القبائل كعمال زراعيين للمزارعين المستقرين ، ويجد بعضهم أعمالاً في مصانع المدن مثل جدة ومكة ، ويعودون لزيارة أسرهم في أيام الجمع ، وهي العطلة الأسبوعية الدينية للمسلمين . وتتولى زوجات الرجال العاملين خارج نطاق الجماعة مسؤولية الحفاظ على الأغنام بصورة كاملة ، ويقوم عدد قليل من البدو شبه الرحل باصطياد الطيور وتربية النحل لانتاج العسل .

يعيش البدو المستقرون ، بصورة عامة ، في بيوت مبنية من الطين أو الأسمنت تشكل قرية لها مسجد . ولا يربي هؤلاء إلا عدداً قليلاً من الحيوانات ، ربما حماراً أو حمارين وأبقاراً ، وعدداً ضئيلاً من الأغنام والماعز لكل أسرة ، كما يربى في بعض الأحيان الحمام والدجاج والأرانب كمصدر دخل إضافي . ويعتمد هؤلاء في زراعتهم الواسعة النطاق على مياه الينابيع والآبار العميقة وكذلك الأمطار . ويعمل بعض البدو المستقرين أيضاً كعمال زراعيين ، ويجدون أعمالاً في المدن ، ويعملون في حرف فنية مثل صناعة المراوح والحشايا المحاكة من سعف النخيل .

شكل رقم ٥ :

خريطة الطرق التي يسلكها البدو المستوطنون في بشور



موارد المياه :

هناك كمية محدودة جداً من المياه السطحية التي تأتي من السيول وتتدفق في وادي فاطمة من روافده ، وبالتالي في البحر الأحمر . إن هذه الفيضانات ليست نادرة فحسب ، وإنما قصيرة العمر أيضاً لأن الوادي يتصف بمعدل تبخر عال وبطاقة كبيرة على التخزين . ويستغل جزء من هذه المياه لأغراض الري ، إلا أن معظمه يتسرب إلى قيعان الوادي ، وما تبقى منه يتدفق سريعاً كنهر سطحي

يصب في البحر . إن المياه الجوفية المستغلة تشكل مصدراً كبيراً يفي باحتياجات البدو . إن مستوى المياه الجوفية ، في وادي فاطمة ، الذي يجري تحديده من عمق الآبار المحفورة باليد ، يتراوح ما بين ١٠ و ٣٠ متراً تحت سطح الأرض[1] .

وعلى الرغم من الاعتقاد الشائع بأن وادي فاطمة كان يحتوي على ينابيع بعدد أيام السنة ، فإن أربعة عشر ينبوعاً فقط كانت موجودة في عام ١٩٦٩م . ومنذ عام ١٩٥٠م جف خمسة وعشرون ينبوعاً في المنطقة ، وقامت إدارة العين العزيزية بحفر سبعة ينابيع جديدة لضخ الماء إلى جدة ومكة . وبالإضافة إلى النقص في معدل هطول الأمطار السنوي والسيول ، وزيادة استغلال المياه لتلبية احتياجات جدة ومكة منها ، فإن إهمال القنوات ، التي لم تجر المحافظة على العديد منها بصورة كافية ، وانتشار حفر الآبار الزراعية من قبل الأفراد أسهما في تقليص كمية المياه المتوفرة وانخفاض مستوى المياه الجوفية .

إن المستوطنين الأوائل في وادي فاطمة في زمن الجاهلية كانوا على جهل بأساليب حفر الآبار وشيدوا قنوات انحدرت بالمياه على سفوح الجبال ، وقد أطلق على هذه القنوات المبنية من الصخر والجص ، والتي شيدت على سطح الأرض أول الأمر ، اسم « القنوات السطحية » ، وكان بالإمكان الحصول على مياه الشرب منها . ولحماية القنوات من تقلبات الجو ، تم ، في وقت لاحق ، إضافة جدران جانبية يبلغ معدل ارتفاعها مترين تقريباً ، وسطوح مصنوعة من ألواح مستطيلة طويلة تدعى « الطبقات » ، وتركت فتحات دخول لكي يمكن تنظيف القنوات وتصليحها بين فترة وأخرى ، وحافظت القبائل المختلفة على القنوات الموجودة في مناطقها . ويصف ريشتر - بيرنبورغ وسكوت ، في تقريرهما الجيولوجي ، الكمال المدهش الذي غالباً ما يميز إنشاء القنوات ، ويرجعا تاريخ إنشاء بعضها إلى أكثر من ألف عام مضت[2] . أما اليوم ، وبسبب انتقال الرمال السطحية من مكان لآخر ، فإن معظم القنوات ترقد تحت سطح الأرض على عمق يتراوح معدله ما بين ١٠ و ١٨ متراً .

---

(١) الشنطي : **رواسب الحديد الخام وتكلسه .**

(٢) ريشتر - برنبورغ وسكوت : **الأبحاث الجيولوجية في غرب المملكة العربية السعودية ،** ص٣٩-٤٠ .

أسست في عام ١٩٤٦م إدارة المياه المسماة «إدارة العين العزيزية»، ويدعم من الحكومة والقطاع الخاص، عقدت الإدارة إتفاقيات مع مالكي الينابيع في وادي فاطمة للحصول على نصف المياه من الينابيع وضخه إلى جدة. وقام مسؤولو إدارة العين بإقناع المزارعين البدو بالسماح بنصب جهاز جديد، على نفقة إدارة العين، يقسم مياه الينبوع بالتساوي بين السكان والعين، ولم يعتقد المزارعون أن هذا سيؤدي إلى الإضرار بكميات المياه الواردة إلى حقولهم، وحصلوا على مبالغ مالية كبيرة مقابل مياههم. وعلاوة على ذلك، فإن إدارة العين وافقت على نصب حنفيات في مواضع مختلفة على طول خطوط أنابيب المياه لكي يستعملها البدو مجاناً، ولم يعد سكان جدة بحاجة إلى شرب المياه الحاوية على الطين المخزونة في الصهاريج (مستودعات جوفية لحفظ مياه الأمطار)، أو القيام بتقطير الماء الصافي بطريقة الكنداسة (جهاز تقطير) الباهظة التكاليف. وهكذا فقد شعر الطرفان بالرضا عن نظام توريد المياه الجديد في مرحلته الأولى.

لقد نشأت أزمة المياه من جراء حفر العديد من الآبار وإنشاء ثلاثة خطوط أنابيب رئيسية في الوادي خلال الاثني عشر عاماً الماضية دون إجراء أي مسح لتحديد موضع المياه وكميتها بصورة دقيقة. فعندما عقد المزارعون إتفاقيات مع إدارة المياه، شعر معظم مالكي الينابيع منهم أن من المؤكد أن هناك مياه جوفية تكفي لتلبية احتياجات المزارعين وإدارة المياه، على حد سواء، وسيواجه الوادي صعوبات كبيرة، ليس بمفرده وإنما ستشاركه مكة وجدة، إذا نضبت تماماً احتياطات الماء في السنوات القادمة.

شيدت أول خطوط لأنابيب المياه في عام ١٩٥٠م على يد شركة بريطانية لنقل المياه من وادي فاطمة إلى جدة، وأحد هذه الأنابيب يسحب الماء من ينبوع في الجزء الشمالي الغربي من وادي فاطمة، بينما يتلقى الثاني مياهه من ينبوع في أبي شعيب بمركز الوادي. وكان الماء ينقل عن طريق خط أنابيب من الأسمنت الأسبستوس قطره ١٠ بوصات إلى خزانات ضخمة من الخرسانة المسلحة تبلغ طاقتها الاستيعابية ٤٣١٨ متراً مكعباً، تقع على مسافة ١٤ كيلومتراً شرق جدة على طريق جدة ـ مكة العام. ومن هذه الخزانات كان الماء يضخ، عن طريق شبكة أنابيب أصغر حجماً، حسب الحاجة، إلى داخل المدينة. وفي عام

١٩٦٢م، تراوحت كمية المياه المنقولة يومياً، عن طريق هذه الأنابيب، ما بين ٢٢٧٣ و ٢٧٢٧ متراً مكعباً، إلا أن هذه الكمية بلغت ٤٠٩١ متراً مكعباً في عام ١٩٥٩م، وفي خلال ثلاث سنوات حدث نقص قدره أكثر من ١٣٦٤ متراً مكعباً يومياً.

وبدأت إدارة المياه بحفر آبار سطحية ضحلة في قرى أبي شعيب والجموم وأبي حساني (راجع الشكل ٦) التي جفت ينابيعها، وقامت في وقت لاحق بتوسيع نطاق نشاطاتها بإحياء الآبار الميتة في قرى أبي حساني والخلاس وسلطانة، وتحسين الآبار القائمة الأخرى في قريتي البعاجة وبرقع، وشيد خط أنابيب ثانٍ قطره ٢٠ بوصة، في عام ١٩٥٤م، على يد شركة إيطالية، ويحمل هذا الخط المياه من ثلاثة ينابيع وثلاثة آبار إلى نفس الخزان بمعدل ١٨١٨٢ متراً مكعباً في اليوم، أي تبلغ كمية المياه المنقولة يومياً حوالي ٢٠٦٨٢ متراً مكعباً[(١)].

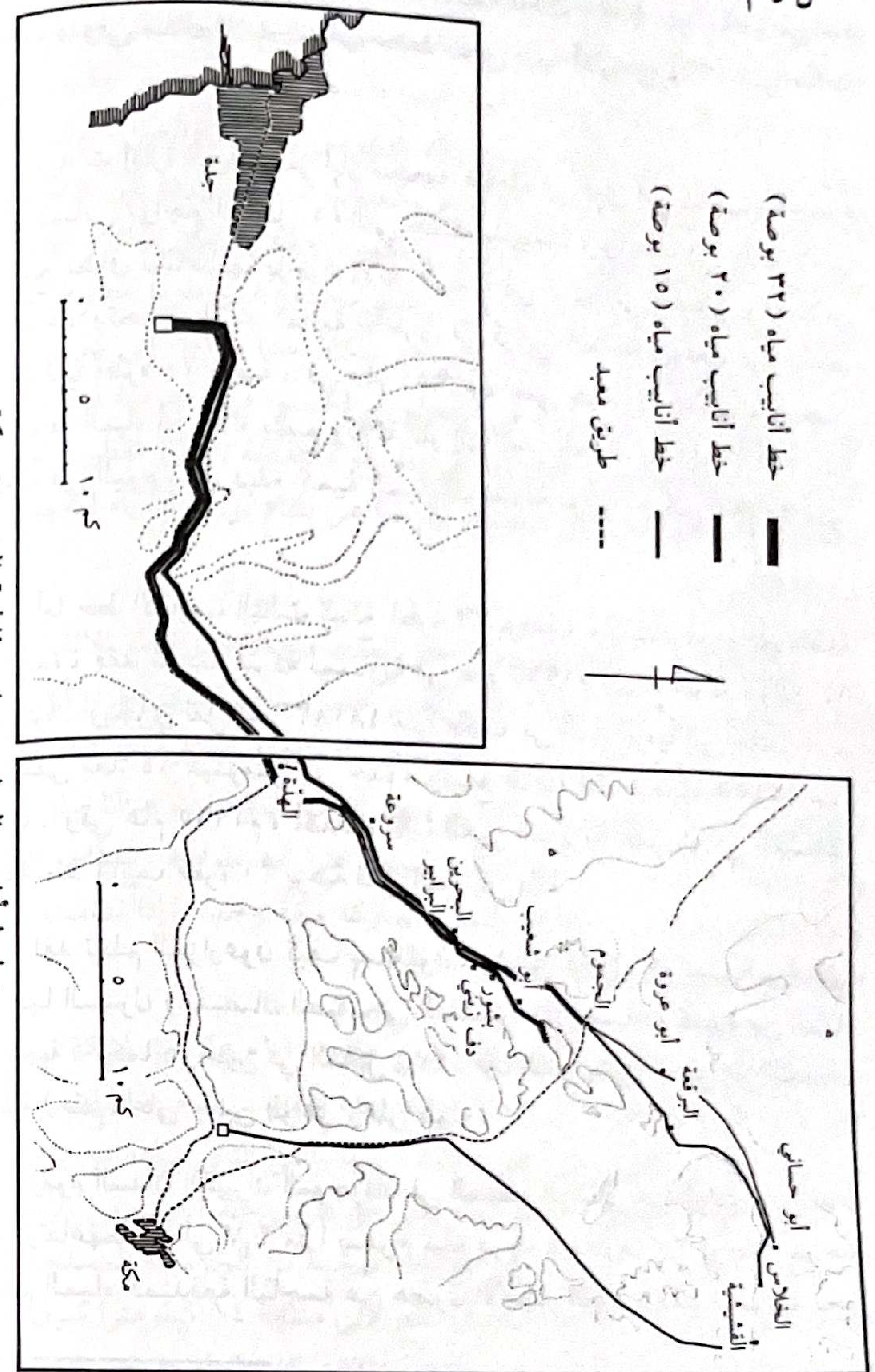
أما خط الأنابيب الثالث البالغ قطره ٣٢ بوصة، والممتد من وادي فاطمة إلى جدة، فقد شيدته شركة نمساوية في عام ١٩٦٢م ويبلغ طوله حوالي ٦٤ كيلومتراً. ويجري نقل نحو ١٨١٨٢ متراً مكعباً من الماء يومياً إلى خزان جديد يقع على بعد ١٤ كيلومتراً من جدة، وتبلغ طاقته الاستيعابية ٤٥٤٥٥ متراً مكعباً. وفي عام ١٩٦٥م، أكملت إدارة العين العزيزية حفر بئر في القشاشية ورافقه خط أنابيب قطره ٢٠ بوصة لنقل الماء إلى مكة.

لقد تعلم المزارعون كيف يستغلون، بشكل كامل، رواسب التربة التي تخلفها السيول والفيضان الصفيحي المنتشر على مساحة كبيرة من المياه السطحية. وكما هو مبين في الشكل (٧)، فإن البدو يبنون سدين من الجدران الرملية (عقم) على جانبي الوادي وعلى طوله.

يقوم السدان الكبيران الموجودان في المنطقة الوسطى من الوادي، واللذان يبلغ ارتفاعهما حوالي ٢,٧ متراً بسفوح تبلغ درجة انحدارها ٣٠ درجة، بتوجيه معظم المياه المندفعة الناجمة عن هطول الأمطار الغزيرة لفترة طويلة نحو

(١) الأمم المتحدة: **تحلية المياه**، ص٢٣٢.

شكل رقم ٦ :



خطوط أنابيب المياه من وادي فاطمة إلى جدة ومكة

الوادي ، وذلك لتجنب قيام هذه المياه باكتساح الحقول . وغالباً ما تفيض المياه وتتسرب إلى المناطق الثانوية الواقعة بين السد الأول والثاني على كل جانب . يبلغ ارتفاع هذه السدود الثانوية ، بصورة عامة ، نحو ١,٦ متراً ، فإذا لم تكن بهذه الارتفاع ، فقد يقوم المزارعون بحفر ثقوب في السدود الرئيسية بغية السماح للمياه بالدخول ، ومن هذه المناطق الثانوية يقوم المزارعون بعد ذلك بالسماح للجداول الهادئة باختراق الأسمنت عن طريق نظام يوزع المياه على الحقول . وفي الفصول الجافة تقوم هذه القنطرة المصنوعة من الأسمنت بحمل المياه من البئر العميقة القريبة عبر قنطرة مرتفعة قد يبلغ ارتفاعها أحياناً ٢,٧ متراً فوق سطح الأرض إلى الحقول . وخلال الفصول الجافة ، يجري غلق «ثقب الفيضان» باستخدام الرملً . وتغلق الثقوب الأخرى المؤدية إلى الحقول باستخدام الخرق البالية ، وعندما يأتي دور كل حقل لاستلام المياه ، يفتح الثقب المؤدي إلى القنطرة الخاصة به .

يبين الشكل رقم (٧) الاستخدام الآخر لمياه السيل . إن قيمة مياه الأمطار المنحدرة من الجبال لا تتمثل بالطبع في الرطوبة التي تحملها إلى الأرض فحسب ، وإنما أيضاً بسبب رواسب الغرين الغنية التي تحملها . وغالباً ما يجري فصل الحقول عن بعضها لكي يجري إغراقها بالمياه التي تترك فيها رواسب غنية من تربة الجبال ، ويجري بعد ذلك اقتلاع التربة العليا على شكل قوالب وبيعها في المدن كمادة خام تستخدم في صناعة الفخار .

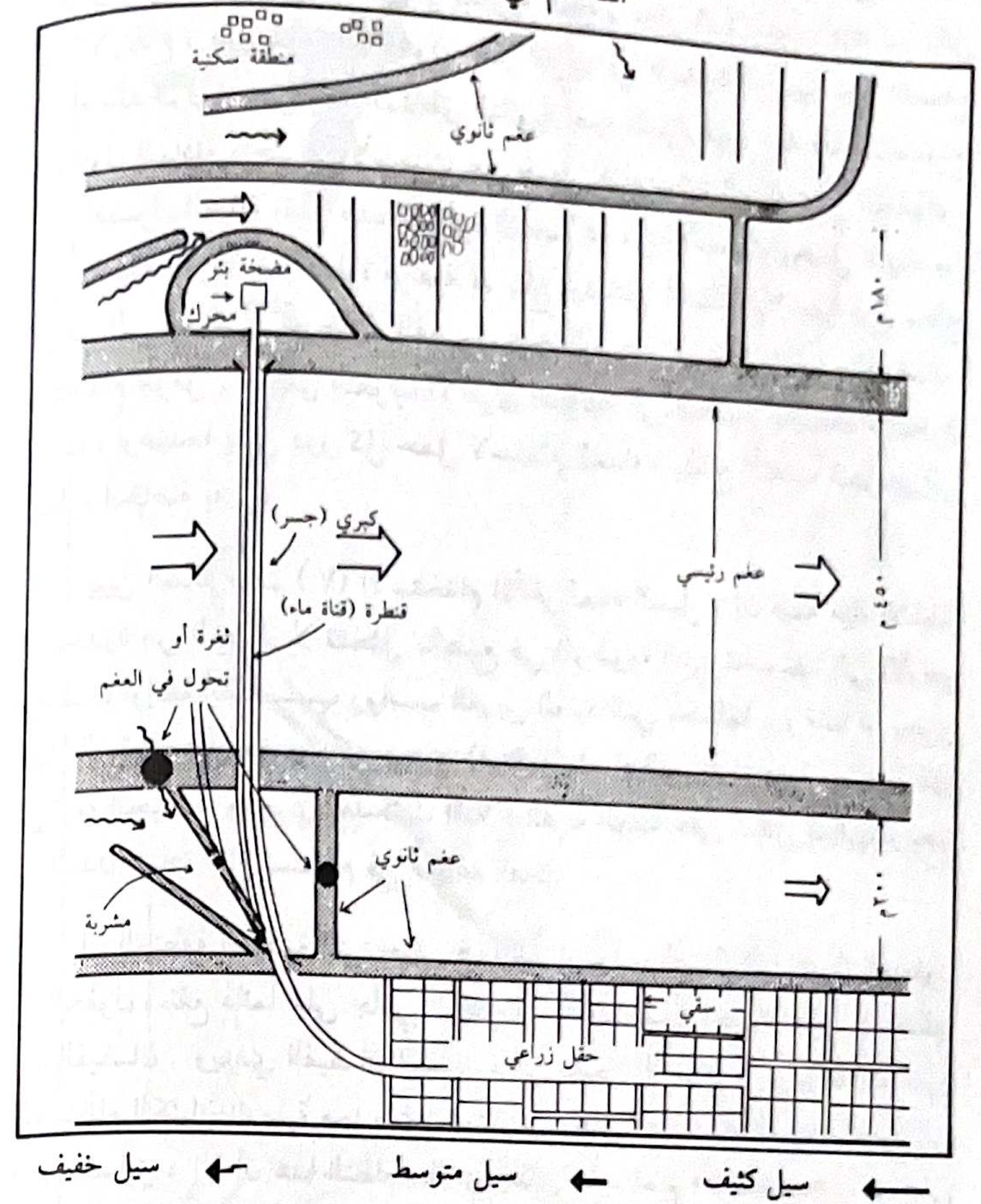
إن المنطقة السكنية التي يعيش فيها المزارعون والعمال الزراعيون العاملون في الحقول ، تقع دائماً على جانبي الوادي ، ولذلك فهناك احتمال قليل أن تصلها مياه الفيضان . ويؤدي الفيضان الشديد ، في بعض الأحيان ، إلى إحداث ضرر بالغ بنظام الكثبان الرملية مما يرغم المزارعين على إعادة بناء السدود لتعود إلى حالها السابق ، إلا أن هذا النظام ، الذي يطلق عليه اسم «المشارب» ، هو على العموم وسيلة فعالة جداً في عملية غمر الحقول الزراعية بالمياه .

الزراعة :

تتألف تربة وادي فاطمة ، من الناحية الجيولوجية ، من ترسبات يعود تاريخها إلى الدهر الجيولوجي الثالث ، وتحتوي معظم الهضاب على صخر فتاتي

شكل رقم ٧ :

التحكم في السيول



بركاني يطلق عليه اسم «حرة»[1] . ومنذ الأزمنة القديمة اعتمدت الزراعة في الوادي على التربة الخصبة التي هي من أصل حرة ، وكلما هطلت الأمطار ، تقوم

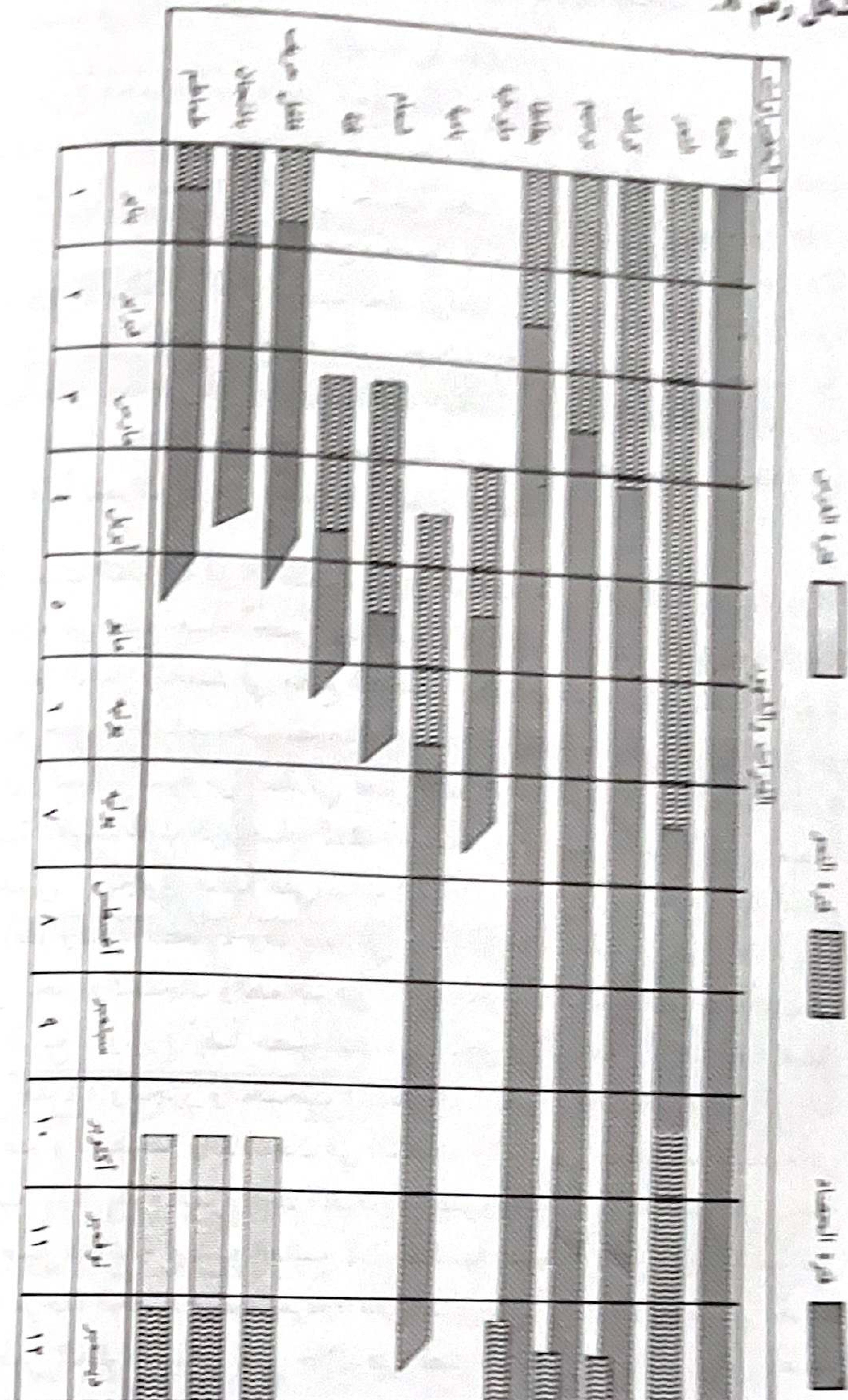
---

(١) هذه الحرار ، أو الصخور البركانية هي نادرة الوجود في العالم إلا في شبه الجزيرة العربية وسهل «دكان» في الهند .

باكتساح بعض من هذا الطفح البركاني وصبه في الجداول الفرعية العشرة أو أكثر التي تصب في وادي فاطمة .

تزرع مجموعة متنوعة من الخضروات في وادي فاطمة (انظر الشكل ٨) . فالحناء هو نبات قوي دائم الخضرة تستخدم أوراقه وسيقانه في صنع مادة برتقالية اللون مائلة إلى الحمرة لأغراض تجميلية وطبية . وتتوفر محاصيل التمور طوال العام تقريباً . وهناك الكراث ، وهو محصول شبه دائم له فترة نمو تقرب من ثلاثة أشهر في أول العام . أما البرسيم فعند زراعته يمكن الاستفادة منه طوال فترة تتراوح ما بين ثلاث وسبع سنوات ، حيث يتوفر محصول جديد يحصد كل خمسة عشر يوماً تقريباً . وتكون فترة نمو البطاطس الحلوة المذاق قصيرة في أول العام ، بينما يستغرق حصادها فترة طويلة تزيد على تسعة أشهر ، ويستفاد من ورقها علفاً للمواشي ، ومن جذورها (البطاطا) طعاماً .

لنبات الملوخية أوراق صغيرة يجري تقطيعها على شكل قطع صغيرة جداً ، وتستخدم في صنع حساء أخضر لذيذ يشبع تناوله بين السكان . ويزرع هذا النبات في أواخر الربيع ويحصد في مطلع الصيف . وينمو نبات البامية في نهاية الربيع ، أما فترة حصاده فتستمر حتى نهاية العام تقريباً . ويتطلب الخربز (البطيخ الحلو المذاق) كميات كبيرة من الماء في فصل النمو أواخر الربيع ، وخلال هذه الفترة المليئة بالنشاطات الزراعية ، تنشأ أحياناً نزاعات بين المزارعين والعمال الزراعيين . ويجري غالباً غلي نبات الدباء (وهو نوع من القرع) مع اللحم والطماطم وتناوله كطعام ، وهو ينمو في أوائل الربيع ويحصد في أواخره . ويزرع الفلفل الحار والباذنجان والطماطم في أواخر الخريف ، وتمتد فترة حصادها حتى فصل الربيع . وتزرع أيضاً خضروات مثل الفجل والشطيطة ، أو الشطة (الفلفل الحار جداً) ، والجزر والحبحب (البطيخ) . يقوم معظم المزارعين بزراعة الطماطم والشطيطة والباذنجان في الشتاء ، والخربز والحبحب والبامية في الصيف . ولا يقوم المزارعون الصغار ، بصورة عامة ، بالاستثمار في زراعة المحاصيل الدائمة أو شبه الدائمة لأن معظمها يستغرق وقتاً طويلاً نسبياً قبل بلوغها مرحلة الحصاد ويعود بمردود مالي ضئيل نسبياً ، إلا أن محصولي الكراث والبطاطس الحلوة المذاق تنمو خلال فترة قصيرة ، مما يشجع المزارعين الصغار على الاستثمار فيهما كمحاصيل دائمة .



وتزرع أيضاً الفواكه مثل الليمون والعنب والجوافة (وهي فاكهة استوائية ذات رائحة قوية) في وادي فاطمة. غير أن فترة الانتظار الطويلة جداً، المطلوبة قبل نضوج محاصيل هذه الفواكه، لا تجعل إلا المزارعين، أو المستثمرين الزراعيين الكبار، قادرين على زراعتها، رغم أنها تعود على زارعيها بمردود مالي جيد عند بيعها.

هناك ثلاثة طرق تستخدم في تسميد الأرض في وادي فاطمة ألا وهي نشر السماد الحيواني، أو ترك الأرض دون زراعة حولاً أو أكثر، أو الحصول على الأسمدة الكيمياوية من الحكومة المركزية لاستخدامها في تسميد هذه الأرض. ويستخدم بصورة رئيسية سماد الأبقار، المجلوب من جدة، في تسميد الحقول، ويتم هذا مرة في العام بشكل عام، كما يستخدم أيضاً سماد الحمير والأغنام والماعز، وتباع في سوق جدة أكياس السماد الحيواني التي يبلغ طول الواحد منها ١٠٠ سنتمتر وعرضه ٧٥ سنتمتراً ويبلغ سعره حوالي ريالين.

بعد حصاد المحصول، قد تترك الأرض دون زراعة لعام أو لعامين. فمحصول الطماطم يستهلك نسبة عالية جداً من العناصر المعدنية في التربة، ولذلك يتوجب إراحة الأرض زمناً كافياً لكي تستعيد نشاطها. وتستخدم هذه الطريقة لاستعادة حيوية الأرض من قبل الزارعين الكبار بصورة رئيسية. أما المزارعون الصغار فهم بحاجة إلى مردود من الحصاد والدخل بصورة منتظمة، ولذلك لا يمكنهم ترك مساحات كبيرة من الأرض دون زراعة لهذه الفترة الزمنية. ففي قرية اليشور مثلاً، يقوم المزارعون بشكل عام بتسميد حقولهم بسماد حيواني مرتين في العام.

لقد أعدت حكومة المملكة العربية السعودية الترتيبات اللازمة لتزويد المزارعين بالأسمدة الكيمياوية وحسب طلبهم. غير أن المزارعين يخشون استخدام هذه الأسمدة، وربما يسيئون استخدامها، ولم يستغلوها إلا بشكل محدود رغم قيام السلطات، بشكل متكرر، بحثهم على ذلك. وفي أول الأمر، اعتقد بعض المزارعين البدو أنه كلما زادت كمية الأسمدة المستخدمة في الحقول، كلما تحسنت محاصيلهم، إلا أنه بعد قيام أحد المزارعين بالإفراط في تسميد نباتات غريبة وشاذة الشكل، أصبح العديد من المزارعين في شك مما يمكن أن تسببه الأسمدة الكيمياوية من نتائج سلبية.

تقع معظم الحقول الزراعية على بعد كيلومتر واحد على الأقل من المناطق السكنية (راجع الشكل ٧). ويجب أن تكون هذه الحقول قريبة من مناطق السيول، بينما ينبغي أن تكون المنازل بعيدة عن مخاطر السيول. ويجري بناء المناطق السكنية بعيداً عن الحشرات التي تهاجم محاصيل الخضروات في معظم الأحيان. ويجب إبقاء الحيوانات الداجنة، مثل الحمير والأغنام، بعيداً عن المحاصيل الزراعية. وعلاوة على ذلك، كان البدو قديماً يستمتعون بإجراء سباقات الخيل التي تطلبت وجود ميدان جري رملي كبير حول منطقتهم السكنية. وأخيراً، إذا كانت المنازل واقعة في مناطق رملية وليس حقول مكسوة بالطين، فإن من اليسير مطاردة المجرمين مثل اللصوص والزناة عن طريق تتبع آثار أقدامهم في الرمال.

إلا أن هناك استثناء لهذه القاعدة، ولا سيما في ما يخص العمال الزراعيين الأجانب، فعلى سبيل المثال، يقيم أربعة أو خمسة عمال يمنيين في بيت عشاشي ضيق واحد بجوار الحقول التي يعملون فيها.

ملكية الأرض:

على الرغم من أن نظام الملكية الحالي في وادي فاطمة هو نظام معقد إلى حد بعيد، إلا أنه لم يكن كذلك قبل الخمسينات والستينات[1]. كان معظم المزارعين يملكون أراضيهم، التي بلغت مساحة كل مزرعة منها ما بين ٦ و٢٠ دونم (٠,٦ ـ ٢ هكتار)، وكانوا يعيشون قرب الينابيع التي أنعشت مزارعهم التي كانت تعود إليهم، وحتى عندما كان المزارعون المستأجرون يقومون بتأجير الأراضي منهم، فإنهم كانوا ينتسبون إلى نفس عشيرة مالك الأرض وليس من خارجها إطلاقاً، وكان رسم الإيجار يتوقف بصورة عامة على المسافة الفاصلة بين الأرض والينبوع، وكان المزارع ومالك الأرض والينبوع يقتسمان غلة الأرض بصورة متساوية، وقد اعتمد كل منهم على الجمَّال (راكب الجمل في ذلك الحين، ومسؤول النقل في الوقت الحاضر) لنقل المنتوج الزراعي إلى المدينة

(١) تأسست دائرة ملاكي الأراضي في وادي فاطمة منذ سنة ١٩٥٠ من قِبَل المعمِّرين الذين يعيشون في الوادي، والقيمين على مركز التطور الاجتماعي والعقلاء الذين فكروا بأنهم ولدوا في الوادي ولم يرحلوا عنه أبداً.

لغرض بيعه. ولأن مالك الأرض والمستأجر كانا ينتسبان إلى نفس العشيرة[1] ويعيشان قرب الحقول، فإن علاقتهما كانت تتسم بالود والتعاون الكبير. وكان المستأجرون حريصين على اكتساب المعرفة من مالكي الأرض، الذين كان يطلق على معظمهم لقب «شيخ» نظراً لتقدمهم في السن وحكمتهم. وفي الحقيقة كان المستأجرون يستشيرونهم في أغلب الأحيان حول شؤون عائلية وشؤون أخرى.

كانت قطع الأراضي صغيرة الحجم، وأحد أسباب ذلك هو أن معظم سكان الوادي كانوا بدواً شبه رحل. ورغم أنه لا يزال هناك احتمال أن يعود هؤلاء إلى ممارسة حياة الترحال والتنقل بصورة تامة، فإن معظم هذه القبائل قد بدأت في ممارسة النشاطات الزراعية ولم تعد تربي قطعاناً كبيرة من الأغنام والماعز. ونظراً لأن هذه القبائل لم تتحول إلى مجموعات مستقرة استقراراً راسخاً، فإن أراضيهم كانت صغيرة بسيطة. وعلاوة على ذلك، فإن معرفتها بالطرق الزراعية كانت محدودة وبدائية إلى الحد الذي جعلها غير قادرة على إدارة أراضٍ زراعية أكبر حجماً، واعتمدت على ينابيع الواحات أو مياه الأمطار في سقي حقولها الزراعية. كان معظم المنطقة يتألف من أرض بور، مما جعل من الضروري الاقتصاد في كميات المياه المستخدمة، وذلك من أجل الاحتفاظ بكمية من مياه الشرب للكسان وقطعان الحيوانات، كما كانت هناك حاجة إلى الأراضي المغطاة بالحشائش لأغراض الرعي.

لقد تأثر نظام ملكية الأراضي أيضاً بشكل سلبي بسبب غياب حق البكورة (حق البكر في الإرث كله دون سائر الأبناء) في ذلك الحين. فوفق التعاليم الإسلامية، التي كانت سائدة في وادي فاطمة، قسمت الأرض الموروثة من جيل لآخر بين جميع الأبناء، ولذلك فقد بدأت قطع الأراضي تصبح أصغر حجماً جيلاً بعد جيل. وعندما أدرك البدو أخيراً أن الأراضي كانت من الصغر إلى الحد الذي أدى إلى تناقص الانتاج، بدأ الأخوة يعملون معاً بصورة مشتركة ضمن نظام «المشاركة» من أجل إبقاء الأراضي الكبيرة الحجم على حالها. أما إذا قام مالك

(١) كلمة «عشيرة» دائماً تعني فرعاً من قبيلة عربية، أو أحياناً تجمعاً صغيراً. ويطلق البدو، عادة، اسم «عشيرة» على كل تجمع يتراوح بين خمس أو عشر خيم يعيشون ويتفاعلون فيما بينهم، وعندما يعرِّفون على بعضهم يقولون: هو من عشيرتي.

الأرض بجعل أرضه وقفاً ، فسترد مناقشة ذلك في وقت لاحق .

إن تأسيس إدارة العين العزيزية قد أحدث تغييراً كبيراً في النظام ، فقد دفعت الإدارة ١٢٠٠٠ ريال (٢٨٨٠ دولاراً أمريكياً) كل عام مقابل الحصول على نصف المياه المتدفقة من كل ينبوع ، وكان هذا مبلغاً ضئيلاً بالنسبة للإدارة ، إلا أنه كان هائلاً للشيوخ الذين كانوا يملكون الينابيع والذين اعتقدوا أنه ستظل هناك كميات كافية من المياه لسد الاحتياجات المحلية . واستخدم مالكو الأرض ثروتهم الجديدة لشراء العديد من مستلزمات الترف الحديثة ، وانتقل بعضهم للإقامة في جدة ومكة ، تاركين مهمة الإشراف على الأراضي المؤجرة في وادي فاطمة للممثلين الزراعيين لهم الذين يطلق عليهم اسم «النظار» .

إن فترات الجفاف غير الاعتيادية ، التي حدثت خلال الستينات ، والتي رافقها قيام سكان المدن بسحب كميات كبيرة من مياه الينابيع ، قد أديا إلى هبوط مستوى المياه في الوادي إلى عمق جديد . وفي عام ١٩٧٠م ، أصدرت الحكومة السعودية قانوناً يقضي بمنح جميع الأراضي الحكومية (غير المملوكة لأفراد) في وادي فاطمة لإدارة العين العزيزية لكي تساعدها في مواردها لدعم المشروع ولكي تحفر فيها آباراً إضافية ، إلا أن الإدارة امتنعت عن دفع رسوم الإيجار عن بعض الينابيع زاعمة أن كميات المياه فيها لم تكن بالقدر المطلوب . ولأن سكان القرى المحلية كانوا يفتقرون إلى رأس المال اللازم لحفر آبار ارتوازية عميقة لحسابهم الخاص ، فإن احتكار إدارة العين العزيزية للمياه ازداد يوماً بعد يوم . وأشار تقرير أجري في عام ١٩٦٩م إلى أن كمية المياه المسحوبة من الوادي إلى مكة وجدة بلغت نحو ١٥ مليون غالون يومياً .

يتوجب على المزارع الصغير ، في وادي فاطمة ، اليوم منافسة الأراضي الزراعية الكبيرة العائدة للمالكين المتغيبين المقيمين في المدن . ويجهل المزارعون المستأجرون ، والعمال الزراعيون العاملون في الحقول ، حتى أسماء العديد من مالكي الأراضي . وظهرت إلى الوجود طبقات محددة تستند على النفوذ والدخل ، مع ظهور علاقات متداخلة معقدة بين شتى الأشخاص العاملين ضمن نطاق الاقتصاد الزراعي . ولا تزال هناك مزارع معدودة حيث يقيم المالك قرب الينبوع والأرض ، ويقتسم مع المزارعين المستأجرين لأرضه أرباح المحاصيل الزراعية . وهناك مزارع يملكها أشخاص متغيبون يقيمون في المدن

ويستلمون إيجاراً شهرياً من المدراء المستأجرين . ويقتسم المدراء المستأجرون والمزارعون المستأجرون ، على التعاقب ، المحاصيل التي تنتجها الأرض . وفي الهيكل الزراعي الأكثر تعقيداً ، يقيم المدير المستأجر ومالك الأرض خارج القرية التي تضم الأرض الزراعية . وعلى الرغم من أن المدير المستأجر يواصل دفع إيجار سنوي إلى مالك الأرض ، فإنه يقتسم ربح هذه الأرض ليس مع المزارعين المستأجرين منه فحسب ، وإنما مع ناظر يمثله في المنطقة ويشرف على النشاط الزراعي في الأرض بصورة مباشرة .

إن الاستئجار الزراعي البسيط ، حيث يكون هناك مالك واحد يسيطر على جميع أجزاء الأرض ، هو نظام نادر جداً الآن في وادي فاطمة ، وبدلاً عن ذلك ، يسود الآن عادة نظام اقتصادي يسبق عادة النظام الاقتصادي الرأسمالي يتصف باشتراك الوسطاء في عمليات الانتاج والتسويق . إن هؤلاء الوسطاء ليسوا عناصر طفيلية بالضرورة ، بل يلعبون غالباً أدواراً إيجابية في تسهيل النشاط الاقتصادي . إن المدير المستأجر قد يقوم بتوفير الأموال المطلوبة لحفر بئر ارتوازية إضافية في وقت يعجز فيه مالك الأرض في وادي فاطمة عن تقديم مثل هذه الأموال ، أو قد يوفر مهارات إدارية وانتاجية في المزرعة يعجز المالك عن توفيرها . من الواضح أن هذا الهيكل الإداري المتعدد يمكن استبداله في المستقبل بهيكل يقوم فيه مقاول زراعي واحد بالسيطرة علي المزرعة بتوفير رأس المال والمهارات الإدارية على حد سواء . وفي الحقيقة إن هذا الهيكل أصبح فعلاً حقيقة واقعة في قرية دف زيني بدأ تأثيرها يظهر على وادي فاطمة .

ليس جميع مالكي الأراضي في وادي فاطمة اليوم هم من أفراد الطبقة المترفة التي تملك ثراء ونفوذاً . والواقع أن عدداً منهم قام بتأجير أراضيه للمدراء المستأجرين وهاجر إلى المدن لأنه لم يكن قادراً على حفر الآبار العميقة الغالية المطلوبة لسقي الحقول ، عندما بدأت الينابيع بالجفاف . أما البعض الآخر ، الذي وجد نفسه يملك أرضاً بوراً وينابيع جافة ، فقد أصبح مزارعاً مستأجراً يخضع لسلطة المستأجر . غير أن مزارعين آخرين ظلوا متمسكين بأرضهم رغم ضعف انتاجها ، وقد رفضوا بيعها للآخرين بسبب المكانة الاجتماعية العالية التي يكتسبها مالك الأرض الموروثة ، إلا أن من اليسر على المرء أن يرى في وادي فاطمة أن أولئك الذين يتحكمون بالمياه ، يتحكمون أيضاً باقتصاد الصحراء .

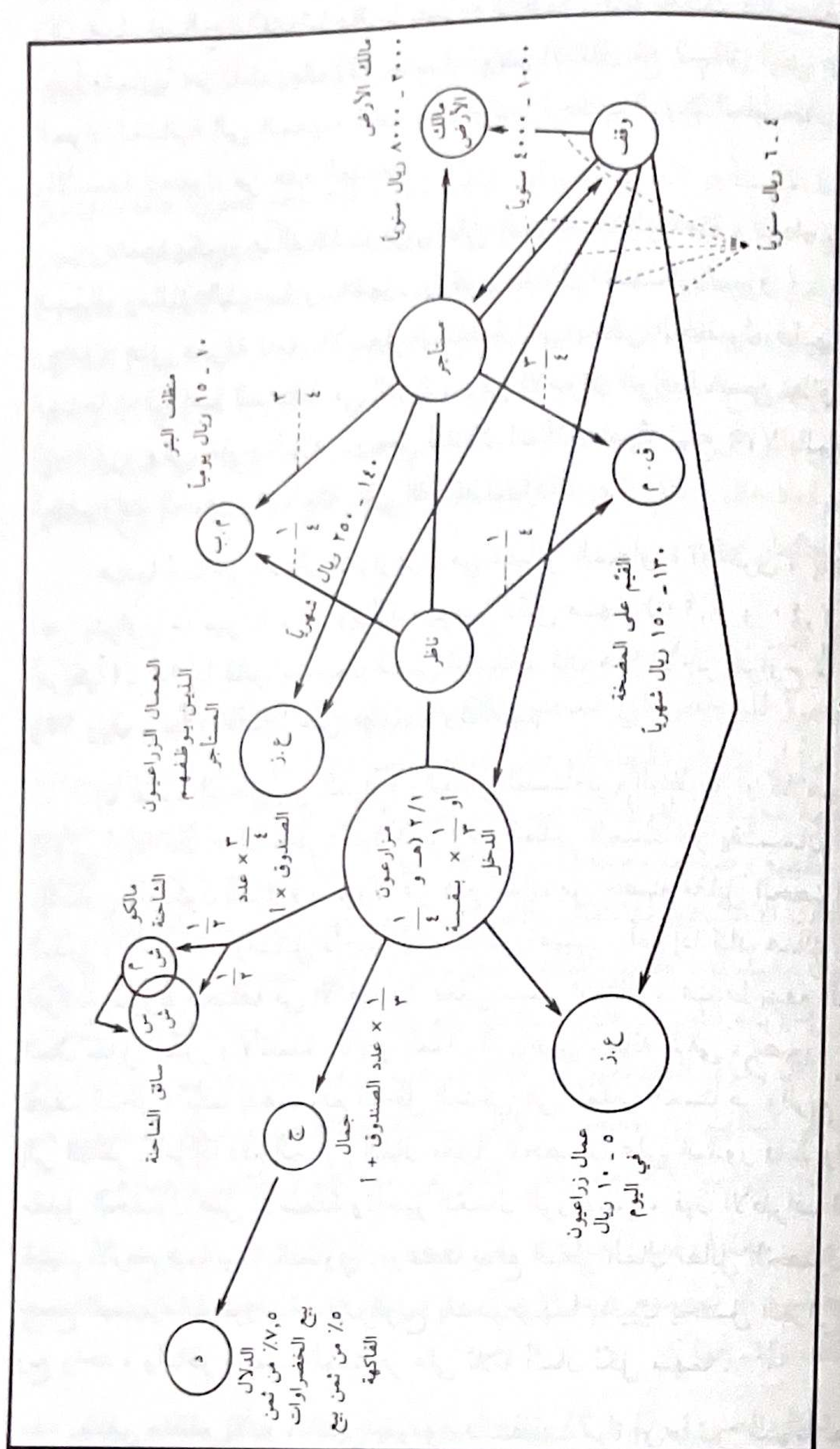
توزيع الدخل :

نظراً لعدم توفر البيانات الرسمية عن اقتصاد وادي فاطمة ، اضطررتُ إلى جمع المعلومات التالية عن طريق إجراء العديد من المقابلات الشخصية المنفردة ، ليس مع المزارعين والمدراء المستأجرين ومسؤولي النقل وسائقي الشاحنات في الوادي فحسب ، وإنما أيضاً مع وكلاء المبيعات ومالكي الأرض في المدن . وكان من العسير جداً تحليل شبكة العلاقات القائمة بين مالكي الأرض والمزارعين ووسطائهم ، وتتبع حركة الدخل والإنفاق . إن نظام التسويق نفسه معقد أيضاً وذلك لأن بعض الإجراءات يمكن تفسيرها حسب المفاهيم الرأسمالية الحديثة ، بينما استخدم بعضها الآخر منذ العصور الوسطى دون أن يطرأ عليها أي تغيير .

يبين الشكل (٩) العلاقة المتبادلة بين الأدوار الزراعية في وادي فاطمة في الوقت الحاضر . إن المدير المستأجر يقوم بصورة عامة باستئجار أرضه من مالك الأرض بسعر يتراوح ما بين ٢٠٠٠ و٨٠٠٠ ريال (٤٨٠ _ ١٩٢٠ دولار أمريكي) سنوياً ، حسب مساحة هذه الأرض . وتتم عملية الاستئجار حسب اتفاقية استئجار تتضمن شروطه . وتقع على عاتق المدير المستأجر مسؤولية الحفاظ على الآبار المطلوبة لسقي الأرض وحفر آبار ارتوازية جديدة سداً للحاجة ، كما يقوم هذا المدير بدفع راتب شهري للمسؤول عن صيانة البئر ، يتراوح ما بين ١٣٠ و ١٥٠ ريال (٣٢ و٣٦ دولاراً أمريكياً) ، وإذا كان المدير المستأجر مشرفاً متغيباً ، فإنه يعين أحد المزارعين ناظراً على المزرعة .

عندما ينتهي المزارع من حصد محاصيل الطماطم والباذنجان والفلفل والبطيخ الأخضر ، وغيرها من المنتجات الزراعية ، يقوم بتعبئتها في صناديق خشبية كبيرة ، ثم توضع بعد ذلك على جانب الطريق لكي يقوم الجمَّال (مالك الشاحنة) بالتقاطها مرتين في اليوم . ويقوم هذا الجمَّال ، الذي يعمل مع سائق شاحنة ، بحفظ سجلات دقيقة بالمنتجات الزراعية التي يتم تسليمها بهذه الطريقة وبمبيعات هذه المنتجات في المدينة في وقت لاحق ، ويقبض ثلث ريال عن كل صندوق ، بينما يقبض السائق ، الذي يملك شاحنته ، ثلثي ريال عن كل صندوق من المنتوج الزراعي المنقول إلى جدة أو مكة . فإذا كان السائق يعمل لصالح مالك الشاحنة ، فإن المزارع يدفع لهذا المالك ثلثي ريال عن كل صندوق ، ويستلم السائق راتباً شهرياً يتراوح ما بين ٢٥٠ و٥٠٠ ريال (٦٠ و١٢٠ دولار

شكل رقم ٩ :



العلاقة المتبادلة بين الأدوار الزراعية وتوزيع الدخل

أمريكي) اعتماداً على طول خدمته ومهارته . أما إذا كان السائق لا يملك شاحنة ولا يعمل لصالح مالك شاحنة ما بصورة منتظمة ، فإنه ومالك الشاحنة يتلقيان أجراً متساوياً هو ثلث ريال لكل منهما . ويتم الاتفاق مع السائق ليس على نقل المواد الغذائية إلى المدينة فحسب ، وإنما لجلب الزيت لمضخات المياه والأسمدة للحقول من هذه المدينة .

عندما يكون هناك طلب كبير على المنتجات الزراعية ، تزداد مكاسب الجمّال ومالك الشاحنة وسائقها . ويكون الدلاّل (سمسار السوق) ، في مكة وجدة ، على معرفة تامة بالأسعار المتقلبة التي يمكن الحصول عليها مقابل المنتجات الزراعية المختلفة في المدن ، وفي الأسواق الواقعة ضمن نطاق نشاطه التجاري ، وفي خارج البلاد . ويحق للدلاّل استلام عمولة تبلغ ٧,٥ بالمائة على الخضروات المباعة و٥ بالمائة على الفواكه المباعة .

عندما يُستأجر العمال المزارعون من القبائل المجاورة الأخرى ، يُدفع لهم أجر يتراوح ما بين ٥ و١٠ ريالات يومياً لكل منهم (١,٢٠ و ٢,٤٠ دولاراً أمريكياً) . أما إذا كانوا ينتسبون لنفس القبيلة ، فإن هذا الأجر يتراوح ما بين ٨ و١٣ ريال يومياً ، اعتماداً على مهارتهم وكفاءتهم .

إن تقسيم الدخل بين المزارع والمدير المستأجر والناظر ، أو كلاهما ، هو كالآتي : إذا كان هناك ناظر ، فإن المزارع والمدير المستأجر يقتسمان الدخل بالتساوي ، ويكون المزارع مسؤولاً عن دفع المال من حصته مقابل الحصول على البذور والأسمدة ، ومقابل تأجير العمال الزراعيين . أما إذا كان هناك ناظر ، فتوضع شروط مختلفة في الاتفاقية . فعلى سبيل المثال ، عندما يدفع المزارع المال مقابل البذور والأسمدة وتأجير العمال الزراعيين ، فإنه يتلقى ، بصورة عامة ، نصف الدخل ، بينما يذهب ربع الدخل المتبقي إلى المدير المستأجر والربع الآخر إلى الناظر . أما إذا دفع المزارع المال مقابل الحصول على البذور فقط والناظر مقابل الحصول على الأسمدة وتأجير العمال الزراعيين ، فإن الأطراف الثلاثة تقتسم الأرباح فيما بينها بالتساوي . وعندما يدفع الناظر المال مقابل الحصول على جميع المستلزمات الزراعية ، فإن الربح يقتسم بينهما بحيث يحصل المزارع على ربع واحد ، والناظر والمدير المستأجر على ثلاثة أثمان لكل منهما .

يتلقى منظفو الآبار ، الذين يقومون بالتنظيف مرة أو مرتين سنوياً لصيانة

الآبار ، أجراً قدره ١٠ ريالات (٢,٤٠ دولاراً أمريكياً) لكل شخص يومياً مقابل العمل خارج البئر ، و١٥ ريال (٣,٦٠ دولاراً أمريكياً) مقابل العمل داخل البئر . فإذا كان هناك ناظر ، فإنه يقوم بتغطية ربع هذه النفقات ، بينما يقوم المدير المستأجر بتغطية ثلاثة أرباعها .

عندما يستأجر المدير المستأجر أرضاً وقفاً ، فإنه يدفع بصورة عامة ، ما بين ١٠٠٠ و٤٠٠٠ ريال (٢٤٠ و٥٦٠ دولاراً أمريكياً) كأجر سنوي مقابل استئجار هذه الأرض . وبصورة عامة يقوم المدراء المستأجرون الجدد ، الذين يستثمرون الكثير من رؤوس الأموال الخاصة بهم في مزارعهم ، بدفع راتب شهري لعمالهم الزراعيين يتراوح ما بين ١٤٠ و٢٥٠ ريال (٣٤ و ٦٠ دولاراً أمريكياً) . ويميل هؤلاء إلى التركيز على المنتجات الزراعية التي تستغرق زراعتها زمناً طويلاً لكنها تعود بمردود عال ، مثل الجوافة والليمون والبرسيم التي لا يقدر المزارع الصغير على الاستثمار فيها .

نظام الوقف :

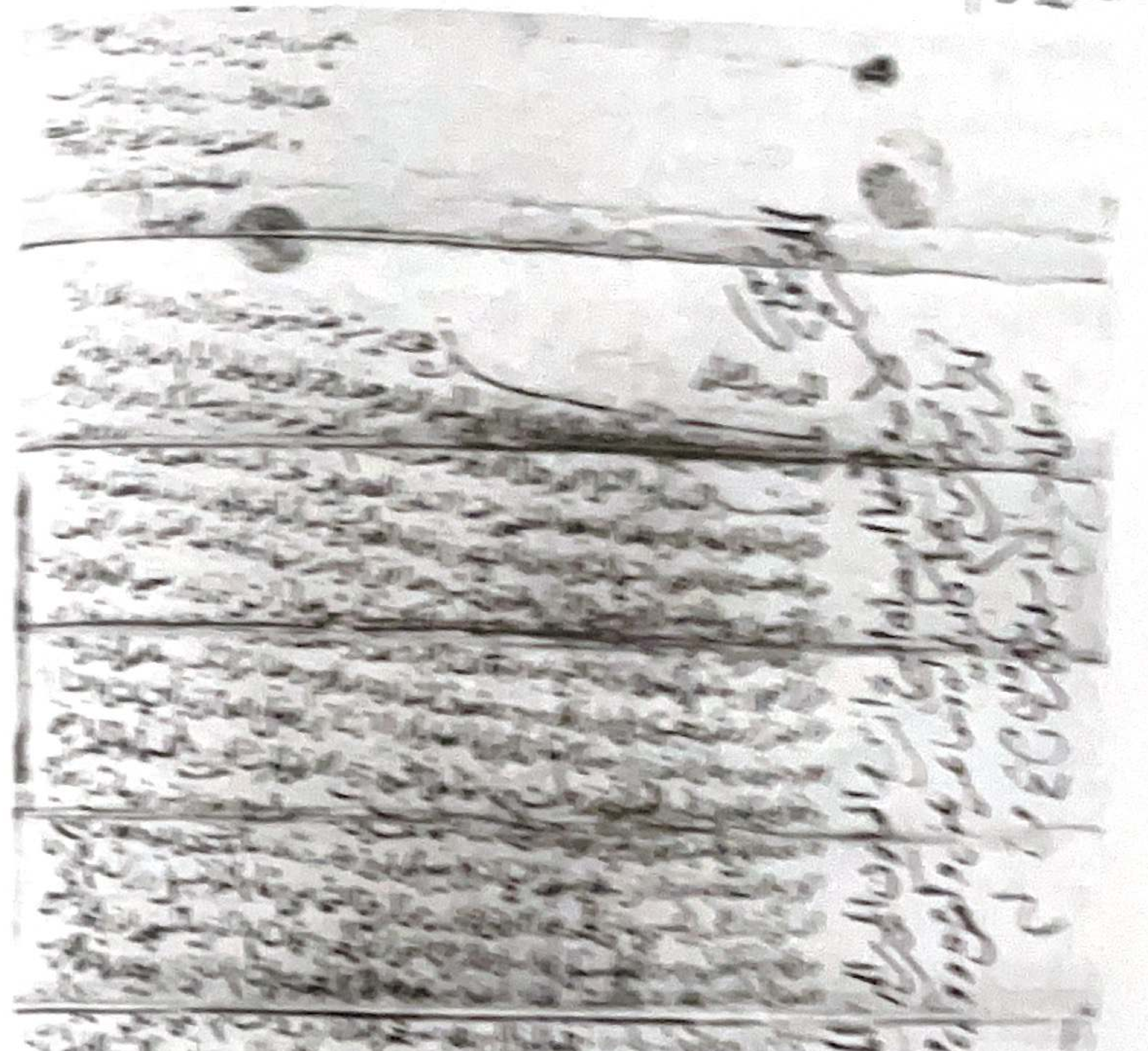
يجوز للشخص في المجتمع الإسلامي أن يجعل ملكه وقفاً (سواء أكان ذلك أرضاً أو بناء أو كليهما) . يعني الوقف قصر منفعة ما ، عقاراً كان أو سواه ، على جهة معينة أو أفراد محددين ، وذلك من قبل المالك الأصلي ، وحسب شروط فقهية وضّحها وحدّدها الإسلام . ويؤدي هذا إلى تجنبه خضوع المُلْك للإجراءات الاعتيادية للانتقال والميراث والتصرف . ويقتسم عامة الناس ، أو منتفعون معينون ، حسب ما هو محدد في الوقف الخاص ، فيقتسم الأرباح بالتساوي الأبناء الذين تربطهم صلات الدم بالواهب . وفي حالة الوقف الطبقي ، لا يجوز أن يكون المنتفعين إلا أبناء الواهب ، وفي حال وفاتهم ، تؤول أرباح الوقف إلى أبنائهم من بعدهم . أما في حالة الوقف الحشري ، فإن المنتفعين هم جميع أبناء الواهب الأحياء ، بغض النظر عن أجناسهم وأجيالهم وأعمارهم .

وفي حالة الوقف الخيري ، يقرر صاحب الملك ، لأسباب إنسانية أو دينية أو شخصية أو لجميع هذه الأسباب ، بوضع ملكه تحت إدارة وزارة الحج والأوقاف وإشرافها .

تمثل الصورة رقم (٣) وثيقة أصلية لسند وقف. وعلى الرغم من أن هذه

الوثيقة التاريخية تغطي قطعة من أرض وقف في قرية ... زبني، فإن أي ... هذا النوع سيكون مستقلاً لهذه الوثيقة. وهذه الوثيقة تغطي عشرين قطعة أو ... من أرض مزروعة جعلت وقفاً، فإن هذه الأرض لا يمكن في المستقبل بيعها أو رهنها أو منحها كهبة أو استبدالها أو تقسيمها إلى أجزاء أصغر العرض الإرث. إنها مؤرخة بتاريخ ٢٣ ربيع الثاني في السنة ١٢٤٦ الهجرية (١٨٢٦ ميلادي تقريباً). وهي إحدى الوثائق القانونية القليلة المتبقية من تلك الفترة التي ... وهي تحمل التواقيع الأصلية لرئيس المحكمة في مكة حيث تم تسجيلها، والشيخ عبد الله بن شيخ الإسلام، والشيخ محمد بن عبد الوهاب. وقد أطلق على الأرض أصلاً اسم «القويسي» وكانت تعود للشيخ متركل.

الصورة رقم ٣:



صك وقف يعود إلى عام ١٨٢٦، يضع أملاك الحرثي تحت إدارة من المستفيدين المعنيين أو الجيهين بحيث لا يمكن بيعها أو رهنها أو منحها أو مبادلتها أو تقسيمها على الورثة في أي وقت من الأوقات

يطلق على الأشخاص المستفيدين من عقار وقف اسم «المستحقين». ويقوم هؤلاء بانتخاب ناظر (مشرف) من بينهم، يقوم بمهمة توزيع الأرباح والمنافع السنوية المستحقة لهم في بداية، أو نهاية، كل عام محسوماً منها تكاليف صيانة العقار. وفي حالة وجود تذمر من الناظر، يجوز لأي مستحق تقديم شكوى ضده إلى المحكمة الشرعية مطالباً فيها بعقد جلسة لسماع هذه الشكوى. ورغم أن الوقف غير قابل للنقل، فيجوز للمستحق عقد اتفاق مع ناظره لاستبدال بناية وقف قديمة بأخرى جديدة.

مواقف البدو التقليدية تجاه العمل:

على الرغم من دخول مفاهيم الاقتصاد الحديث إلى وادي فاطمة، فإن القيم التقليدية لا تزال على حالها تقريباً وتراعى بشكل صارم. فهناك أعمال معينة جرى العرف على أن يقوم بها العبيد، يعتبرها البدو عيباً. فالبدوي يرفض القبول، ببساطة، بمهن مثل مهنة القصاب ومربي الدجاج والحلاق والخادم المنزلي، ومنظف البئر وغيرها من الأعمال اليدوية.

عند إجرائي مقابلات مع رجال القبائل، كنت أقوم، في معظم الأحيان، بتوجيه السؤال التالي: «إذا استشارك صديق ما إذا كان ينبغي عليه القيام بعمل يدوي براتب شهري قدره ٣٠٠ ريال (٧٢ دولاراً أمريكياً) أو عملاً كتابياً براتب شهري قدره ٢٠٠ ريال (٤٨ دولاراً أمريكياً)، فما هي نصيحتك له؟» وفي تسع حالات من مجموع عشرة، كان الشخص ينصح صديقه بالقيام بالعمل الكتابي لأنه عمل «نظيف» محترم، بينما يعتبر العمل اليدوي عيباً.

عندما بدأت إدارة العين العزيزية نشاطاتها، وفرت العديد من فرص العمل الجديدة. فقد كانت هناك حاجة إلى أشخاص لصيانة المضخات وقيادة الشاحنات وتصليحها وصيانة الآبار. وعلى الرغم من الرواتب العالية لهذه الوظائف، فإن البدو لم يظهروا أي اهتمام بها. إن الراتب الشهري لمنظف البئر يتراوح ما بين ١٣٠ و١٥٠ ريال (٣١ و٣٦ دولاراً أمريكياً)، وهو أعلى بكثير من موارد دخل معظم البدو، كما أنه أكثر انتظاماً، ومع ذلك لم يقدم أي منهم طلباً للحصول على هذه الوظيفة. وقد أدى هذا إلى ملء هذه الوظائف الشاغرة، التي بلغ عددها ٣٠٠ وظيفة، بالعمال اليمنيين.

وفي نهاية المطاف أقنعت الإدارة بدوياً معدماً، من قبيلة عتيبة، كان يطوف في أرجاء وادي فاطمة، بتعلم قيادة شاحنة لصالحها. وسرعان ما أظهر رجال آخرون، من نفس القبيلة، رغبة في القيام بأعمال عرضتها عليهم الإدارة المذكورة. ويشكل رجال هذه القبيلة وحدها حالياً ٩٠ بالمئة من القوة العاملة للإدارة، أما البقية البالغة ١٠ بالمئة فتتألف من العمال الأجانب مثل الفلسطينيين.

يجب التأكيد هنا على قوة مشاعر الانتماء القبلي، وهذا هو الحال في المدن أيضاً. فإنه بعد نجاح شركة ما في تعيين شخص واحد من قبيلة معينة، تستطيع هذه الشركة تعيين أشخاص آخرين من نفس القبيلة (هذه القبيلة فقط لا غيرها). عندما كنت أعمل ضمن فريق من الخبراء الجيولوجيين، لاحظت بين صفوف الجيش أنه على الرغم من وجود العديد من الخيام في المعسكر، فإن بعضها كان ممتلأ، إلى أقصى حد، بالجنود بينما كان البعض الآخر لا يضم إلا جندياً أو جنديين، والسبب في ذلك هو توزيع الجنود على هذه الخيام كان قد تم حسب أصولهم القبلية.

إن الخدم في منازل المدن هم بصورة عامة من الأحباش واليمنيين والسودانيين.

عندما بدأ البدو، لأول مرة، في الاستقرار في وادي فاطمة، بدأ جيرانهم، من البدو الآخرين، بالسخرية منهم ووصفهم بالضعف لتركهم حياة الصحراء القاسية والعمل في الزراعة، إلا أن الحاجات الاقتصادية الشديدة أرغمت المزيد من البدو على اتباع طرق العيش هذه، ومن المحتمل، في المستقبل، أن تزول مشاعر العيب التقليدية، إلا أن زوالها لن يكون سريعاً.

تقسيم العمل حسب العمر والجنس:

يحمل الطفل غالباً على جانب أمه في جراب جلدي متنقل معلق برباط حول عنقها، إلا أنه حالما يبدأ الطفل بالمشي، يكلف، سواء كان أنثى أم ذكراً، بالقيام بأعمال بسيطة. ويقوم الأطفال الصغار عادة بتقديم المساعدة في رعاية الحيوانات.

عندما يبلغ الأطفال سن الثامنة، توكل إليهم، بصورة عامة، مسؤولية جلب الماء من البئر أو الواحة القريبة إلى مسكن الأسرة مرتين في اليوم. وقد يحمل الصبيان علب الصفيح المملوءة بالماء على جانبهم إما مشياً على الأقدام،

أو على ظهور الحمير. أما بالنسبة للفتيات، فإن ركوب الحمير يعتبر عيباً، وبدلاً من ذلك، يقمن بتعلم المهارات المنزلية في المسكن ويساعدن في تقديم الطعام والقهوة والشاي للضيوف. ويقوم الصبيان أيضاً بتقديم هذه الأشياء إلى النساء حتى بلوغهم سن الثالثة عشر.

عندما يبلغ الصبيان طور المراهقة، يمكنهم المساعدة في جمع الحشيش والأعشاب للحيوانات، ووضع هذا الحشيش والأعشاب في حزم تجفف بوضعها على جدران الحدائق الرملية، وكذلك المساعدة، خلال فصول الحصاد المليئة بالنشاط، في الحقول. وعند تعلم الفتيات مهارات الخياطة والتطريز، يقمن بالمساعدة في صنع الأفرشة والمخدات والصدريات للنساء والأثواب للرجال والبيز (أوعية مزينة تعلق على الجدران أو تستخدم للصب)، كما يتعلمن حياكة سعف النخيل لصنع الأبسطة والمراوح، وأسلوب قص الخيام وخياطتها، وطرق تصميم الأقنعة المعقدة لبعض القبائل.

هناك قول شعبي عربي هو «رجال برة، نساء جوة»، ورغم أن هذا هو العرف المتبع بصورة عامة، إلا أن هناك بعض الاستثناءات، فغالباً ما تقوم الأمهات والفتيات الصغيرات برعي الأغنام والأباعر في مراع تبعد عن أماكن السكن أحياناً في غياب الأزواج والآباء، كما يستمتع الرجال أيضاً بالاشتغال في حرف، مثل صنع الأبسطة والمراوح من سعف النخيل. وعندما تكون النساء مشغولات باستقبال الضيوف في المناسبات الاجتماعية الكبيرة، يقوم الرجال، بصورة خاصة، بأعمال الطبخ وتقديم الطعام والشراب (راجع الصورة ٤)، إلا أن الرجال لا يقومون بحياكة الخيام، إذ أن هذه هي مهمة النساء دائماً اللواتي يقمن بصنعها وامتلاكها (راجع صورة ٥)، ورغم أن النساء لا يمتطين الحمير، إلا أنهن يركبن الجمال، وهن يقمن بذلك.

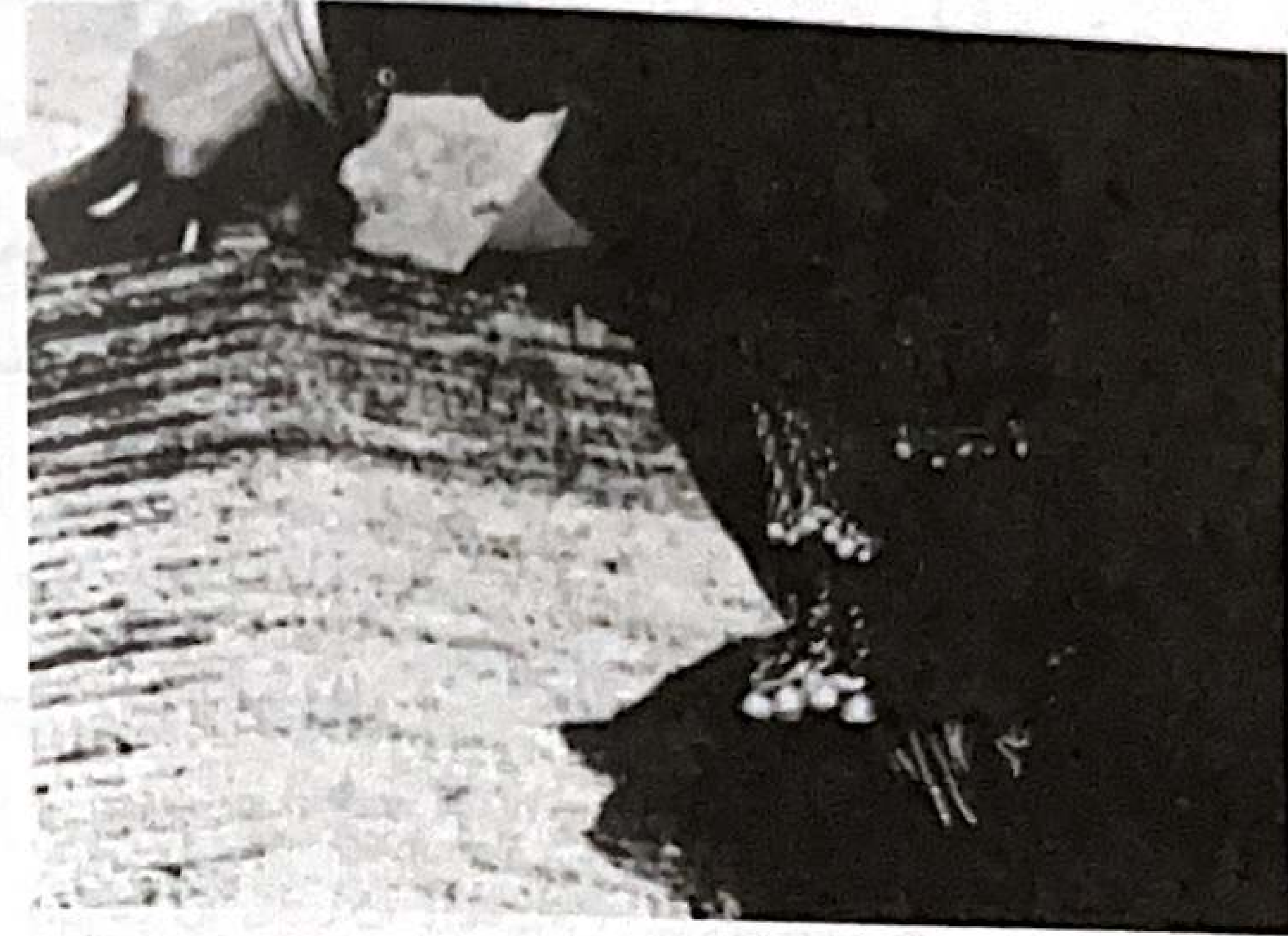
لاتمارس النساء، بصورة عامة، النشاطات الزراعية خشية الكشف عن أنفسهن أمام أعين الرجال العاملين في الحقول. أما الرعي فيعتبر أكثر أمناً لأنه يجري في المراعي المكشوفة بعيداً عن أعين الناس الآخرين. والاستثناء الواضح لهذه القاعدة يحدث خلال شهر الحج عندما يقوم عدد، لا بأس به، من النساء برعاية الحقول الزراعية بسبب ذهاب عدد كبير من الرجال للعمل في المدن. وتشارك النساء البدو شبه الرحل في الأعمال الزراعية أكثر من مشاركة نساء البدو

الصورة رقم ٤ :



رجال من القرية يحضرون طعام العرس

الصورة رقم ٥ :



امرأة من عتيبة تغزل خيمة من صوف الجمال أو الأغنام الخشن

المستقرين . إن تقسيم العمل بين أفراد قبائل البدو الرحل هو أكثر مرونة من مثيله بين أفراد قبائل البدو شبه الرحل أو المستقرين .

العمال الأجانب :

على الرغم من أن هناك أدلة بسيطة على أن اهتمام رجال القبائل المحليين بالعمل في وادي فاطمة يزداد يوماً بعد يوم ، فإن معظمهم لا يزال يمتنع عن القيام بأعمال معينة بسبب مشاعر العيب تجاه هذه الأعمال . وهناك طبعاً بعض الوظائف

التي تتطلب مهارات وخبرات إدارية أو تقنية متخصصة ، ولا يمكن شغلها إلا بالعمال المتعلمين ، وتوفر هذه الوظائف حالياً فرص عمل كثيرة للعمال الأجانب .

في عام ١٩٧٠م بلغ عدد اليمنيين أربعمائة شخص تقريباً كانوا يعملون كمسؤولين عن الآبار وعمال حفر (منظفي آبار) ، وعمال زراعيين ومزارعين . ويقيم كل مسؤول بئر في صندقة قرب البئر المسؤول عنها ، ويستلم راتباً يتراوح ما بين ١٣٠ و٢٠٠ ريال (٣١ و٤٨ دولاراً أمريكياً) اعتماداً على خبرته وطول مدة خدمته . ويقيم العمال اليمنيون ، الذين جلبوا أسرهم معهم إلى وادي فاطمة ، في خيام أو صندقات في المنطقة السكنية ، إلا أن يمنيين آخرين يقيمون عادة في عشة تقع في وسط الحقل الزراعي ، وهؤلاء هم عمال مؤقتون لا يقضون سوى عامين أو ثلاثة أعوام يعودون بعدها إلى أسرهم في اليمن .

يقوم بعملية تنظيف البئر أربعة عمال يعملون سوية ، وتستغرق العملية أسبوعاً واحداً . ويقوم اثنان منهم بالعمل خارج البئر ، بينما يعمل الاثنان الآخران داخلها ، إذ يقومان بحفر قعرها للمحافظة على مستوى المياه فيها . وتقوم خمس فرق بالمحافظة على جميع الآبار في وادي فاطمة ، إذ تزور كل منها مرتين أو ثلاثاً في العام .

يأتي العمال الأجانب الآخرون في وادي فاطمة من فلسطين والأردن وسوريا ومصر والعراق والسودان . وفي مايو ١٩٧٠م ، عندما أجري هذا الإحصاء ، كان يقيم في وادي فاطمة ما يقرب من ٤٠٠ يمني و٦٤ فلسطينياً و٢٨ أردنياً و١٢ سورياً و٨ مصريين و٥ عراقيين و٤ سودانيين . وكان أربعة عشر فلسطينياً يعملون كميكانيكيين للسيارات ، وقام تسعة آخرون بتأجير الجرارات والمزارعين ، وعمل سبعة كتقنيين زراعيين ، وثلاثة كمدرسين واثنان كموظفين في إدارة العين العزيزية . وكان معظمهم يكسب أجوراً عالية تراوحت ما بين ٢٠٠ و١٧٠٠٠ ريال (٤٨ و٤٠٨٠ دولاراً أمريكياً) شهرياً ، وأقام معظمهم مع أسرهم في الوادي . وكان يعمل في مركز التنمية الاجتماعية سبعة أشخاص من الأردن وسوريا ومصر كموظفين اجتماعيين ومهندسين زراعيين وموظفين طبيين كانوا يستلمون راتباً يزيد على ١٠٠٠ ريال (٢٤٠ دولاراً أمريكياً) كل شهر . وكانت المعلمات ، في مدارس البنات ، أجنبيات من العراق والسودان والأردن وفلسطين وسوريا ، وكان راتبهن يتراوح بصورة عامة ما بين ٧٠٠ و١٠٠٠ ريال (١٦٨ و٢٤٠ دولاراً أمريكياً) .

الفصل الخامس

المجتمع البدوي بين الحقيقة والأوهام الشائعة

في مناقشتنا، في الفصل الرابع، لأنماط الحياة المتنوعة للقاطنين في وادي فاطمة، تحدثنا عن ثلاثة أنواع من السكان البدو الذين يعيشون هناك: البدو الرحل، وهم قبائل يعتمدون في معيشتهم على تربية الجمال وقطعان الغنم، والبدو شبه الرحل، ومعظمهم يعملون في مجال الزراعة، بصورة أو بأخرى، كما أن بعضهم أخذوا، مؤخراً، يعملون في المصانع في المدن، وهم لا يهتمون بتربية قطعان كبيرة من المواشي والأغنام، وهؤلاء البدو شبه الرحل بعضهم ما يلبث أن يستقر ويستوطن بصورة دائمة، وبعضهم الآخر ما يلبث أن يستأنف الترحال ويرجع لحياة البادية كبدو رحل. وثالثاً، البدو المستقرون المستوطنون، وهؤلاء يعيشون في قرى يشيدون فيها مسجداً لهم، ويعملون في الزراعة كمصدر أساس لرزقهم. وقد أشرنا سابقاً أن من السكان الذين استقروا في وادي فاطمة، علاوة على البدو المتسوطنين، فئتان أخريان من السكان. فإدارة العين العزيزية تستخدم عدداً متزايداً من العمال والموظفين معظمهم من أبناء قبيلة عتيبة الذين يعيشون في الجوار، وكذلك يستقر في أرجاء وادي فاطمة عدد متزايد من الأغراب الوافدين للعمل هناك. وفي شهر مايو ١٩٧٠م بلغ عدد هؤلاء حوالي ٥٢١ شخصاً، ومعظمهم يعملون في المهن والوظائف، كمعلمين وميكانيكيين ومرشدين زراعيين، ومهندسين، وكتبة، وفي الخدمات الاجتماعية، والخدمات الطبية، وفي مجال القضاء والوظائف الحكومية الإدارية، وكأصحاب حوانيت.

الصورة رقم ٦:



رحيل أسرة من البدو الرحل

الصورة رقم ٧:



رحيل أسرة من البدو الرحل

النسب والأنساب:

ذوو النسب الواحد هم وحدة اجتماعية هامة في وادي فاطمة، وفي عموم المملكة العربية السعودية. وفي أغلب الأحوال، يستقر كل فرد من أفراد العشيرة بين بني عشيرته ليتمتع بشيء من الضمان الاجتماعي في صفوف جماعته، ويتلقى منهم التوجيهات بشأن عاداتهم الاجتماعية المستقاة من تقاليدهم. وينتسب معظم سكان وادي فاطمة لواحدة من خمس قبائل هي: قريش، وحرب، ولحيان،

وشيوف، وخزاعة. وسنناقش في هذا الفصل كذلك فئة المولدين، وإن كانوا من صنف مختلف عن القبائل الخمس هذه.

وهناك البعض من قبيلة قريش ينحدرون من أسرة «بني هاشم»، وهم يشعرون بأنهم أكرم المسلمين محتداً لأن النبي محمد ﷺ قد جاء من هذه الأسرة، وهم يلقبون «بالأشراف» نسبة من «الشرفاء» (أي ذوي الأصل الطيب والمحتد الكريم)، ويرجع تلقيبهم بالشرفاء إلى العهد العثماني. ولا يتخالط أبناء قبيلة قريش اجتماعياً سوى مع أبناء قبيلتهم ومع أبناء قبيلة «الشيوف» الذين يعتبرون، أيضاً، من كرام المسلمين، ومع أبناء قبيلة «خزاعة»، وهم ينحدرون من القبائل الأصلية التي استوطنت وادي فاطمة، ولذلك يعتبرون من أصل طيب. والأشراف هم، من حيث قيافتهم البدنية، قصار القامة، نحيفو القوام، ووسيمو القسمات. وفي السنوات الأخيرة، غادر كثيرون من عشيرة «الأشراف» منطقة وادي فاطمة ليعيشوا في مدينة مكة، وإن كان بعضهم يترددون على مساكنهم فيها من حين لآخر، وخصوصاً في العطل والأعياد. ورغم ذلك، فإن حوالي ثلث سكان وادي فاطمة ينحدرون من هؤلاء القوم المكرمين. وفريق آخر من قبيلة قريش، وهم أبناء عشيرة «حسين» يستوطنون قريتي «أبو شعيب» و«أبو عروة»، وفريق آخر من هذه القبيلة، وهم عشيرة المناعمة، يستوطنون قرى «الريان»، و«المبارك»، و «الطرفاء»، والعبادلة، وأبناء عشيرة «العوجة» يعيشون في قرية «الخيف»، وأبناء عشيرة «المفالجة» يستوطنون في قرى «صروعة»، و «الدوح الكبير» و «الدوح الصغير»، وأبناء عشيرة «بنو مساعد» استوطنوا في «المرشدية» وفي «الجموم»، ولا سيما في السنوات السابقة عندما كانت المواصلات إلى مدينة «الطائف» والمناطق الأخرى صعبة المسالك. وأما أبناء عشيرة «السادة» فاستقروا في قريتي «الدوح الكبير» و «الدوح الصغير»، وأبناء عشيرة «القرشان» استقروا في مستوطنة صغيرة قرب قرية أبو شعيب.

أما أبناء قبيلة حرب فقد استقروا في وادي فاطمة بعد القبائل الأربع الأخرى بزمن طويل، ومع ذلك هم من حيث العدد والكثرة ثاني أكبر تجمع قبلي هناك (أقل بقليل من ثلث المجموع الكلي). وقد وفد كثيرون من أبناء قبيلة حرب إلى وادي فاطمة طلباً للعمل كعمال زراعيين، ومعظمهم، اليوم، مزارعون، وإن كان البعض منهم يرتزقون من التجارة أو يستأجرون الأرض من غيرهم. ورغم

أن أبناء قبيلة حرب هم قصار القامة ونحيفو الأبدان ولون بشرتهم داكن، وإن شجاعتهم في القتال، وحسن بلائهم في الحرب، جعلت منهم أشد المحاربين. وأما أبناء عشائر العوفي والسعدي واللهيبي والحازمي فقد استقروا في الجموم، وأما سلالة المحمدي فيعيشون في روكان، وأبناء عشيرة الصبحي فيستوطنون قرية الدية، وعين شمس والجموم، وأبناء عشيرة الشمادي قرب دف زيني وفي الجموم، وأبناء عشائر البشور والمعابدي والصبحي فيستوطنون بجوار قرية دف زيني وكلهم من حرب.

واستقرت قبيلة لحيان في قرية عين شمس حيث يعتمدون في معيشتهم على تربية الأغنام والمواشي والزراعة التي يسمونها العثري. وفي الماضي كانت تملك نبع المياه هناك امرأة اسمها شمسة، وعندما نضبت مياه هذا النبع وجفت عام ١٩٦٥م، قام نفر من البدو الأشداء بحفر أربع آبار مياه عميقة. وقد تحول أبناء هذه القبيلة إلى بدو مستوطنين، ويرتزقون من تربية المواشي والقليل من الأغنام. وبفضل قوة أواصر القربى ومتانة عرى التضامن، التي تشد أبناء هذه القبيلة إلى بعضهم البعض، يقال إنه لم يسبق أن عانت قبيلتهم من أي تصدع أو انقسام، فهم مخلصون في ولائهم لشيخ قبيلتهم ويحترمون كبار السن فيهم، ويتميز رجالهم بوسامة خارقة، وتشتهر نساؤهم بجمالهن الفائق، ومرة سألني رجل من قبيلة أخرى بصوت هامس: «هل صحيح ما يقولونه بأن نساء عين شمس فائقات الجمال؟».

أما أبناء قبيلة الشيوف فهم يفخرون بانتسابهم للأنصار[1]، وهو الاسم الذي أطلق على أبناء قبيلتي الأوس والخزرج، الذين عاونوا النبي محمد ﷺ في رحلة الهجرة من مكة إلى المدينة في القرن السابع الميلادي، وانتشر أحفاد هؤلاء، من هذا الموقع، وتوزعوا على القرى التي أصبحت تدعى «الجديدة» و«القصر» و«الحميمة» و«المرشدية»، وتوجد وثيقة شراء هذه الأرض الآن لدى الشيخ أحمد عباس زيني، وقد برهنت هذه الوثيقة على قيمتها الثمينة عندما منح الملك فيصل أراضي وادي فاطمة الحكومية للعين العزيزية. ومعظم أبناء

(١) غالباً ما تعني كلمة «أنصار» التابعين، ولكنها أتت هنا بمعنى أصحاب النبي محمد ﷺ، الذين ساعدوه وآزروه عندما اضطهده عبدة الأوثان، تجار مكة الأثرياء، وقد حموه عندما هاجر إليهم إلى المدينة المنورة.

قبيلة الشيوف طوال القامة، وبنية أبدانهم متينة، بل وضخمة. ورغم أن أفراد هذه القبيلة لا يشتهرون بالوسامة والجمال، مثل أبناء قبيلة لحيان، فإنهم يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة بصفتهم من نسل الأنصار، وهم يشتهرون بكرم الضيافة وحسن المعشر.

وأما أبناء قبيلة «خزاعة»، وهم السكان الأصليون لمنطقة وادي فاطمة، فأجسامهم ضخمة البنية، شديدة المظهر، ونساؤهم أصواتهن عميقة مبحوحة، ويخيل لي أن هذه البحة في أصواتهن تشبه بحة الصوت التي كانت عند جدتهن السالفة فاطمة. وتمارس كثيرات من نساء هذه القبيلة مهمات «الداية» المولدة للأطفال، ومهمات «المطهر» للصبيان، وبعضهن يمارسن أعمال التجارة في المدن. وقد أصبح أبناء قبيلة «خزاعة» المستوطنون في وادي فاطمة أقلية من حيث العدد، وهم يعيشون في قرية «دف خزاعة».

أما المولدون فهم في الأصل أفريقيون، وقد جلبوهم إلى شبه الجزيرة العربية كعبيد. وقد كان الأثرياء من شيوخ البدو يملكون عبيداً كثيرين إلى أن قام الملك فيصل بإعتاق العبيد في عام ١٩٦٦م، فأصبح جميع العبيد أحراراً، بيد أن معظمهم استمروا في خدمة العائلات التي كانت تمتلكهم، لأنه ليس عندهم مكان آخر يتوجهون إليه، وهم يشتغلون اليوم كعمال زراعيين ويعيشون في فقر مدقع، وكثيراً ما يتلقون دعوات من أبناء القبائل المجاورة لهم لزيارتهم وتناول الطعام معهم، ولكن حدود معاشرتهم تتوقف عند المخالطة بالزواج، فالعرف السائد لا يسمح لهم بالتزواج مع أبناء وبنات القبائل المجاورة لهم. ونظراً لأن التعاليم الإسلامية تحض على المساواة بين جميع الناس، فإن أبواب الأعمال الأخرى وفرص التعليم مفتوحة أمامهم، حتى إنه يتسنى لبعضهم تسلم المناصب السياسية[1].

تعريف القرية:

في وادي فاطمة، يطلقون كلمة «قرية»، بصورة غير محددة المعنى، للإشارة إلى أي تجمع للمساكن، رغم أن المستوطنات في الوادي تتباين في مراحل نموها وأنواعها وأحجامها. فالمستوطنات التي يعيش فيها البدو شبه

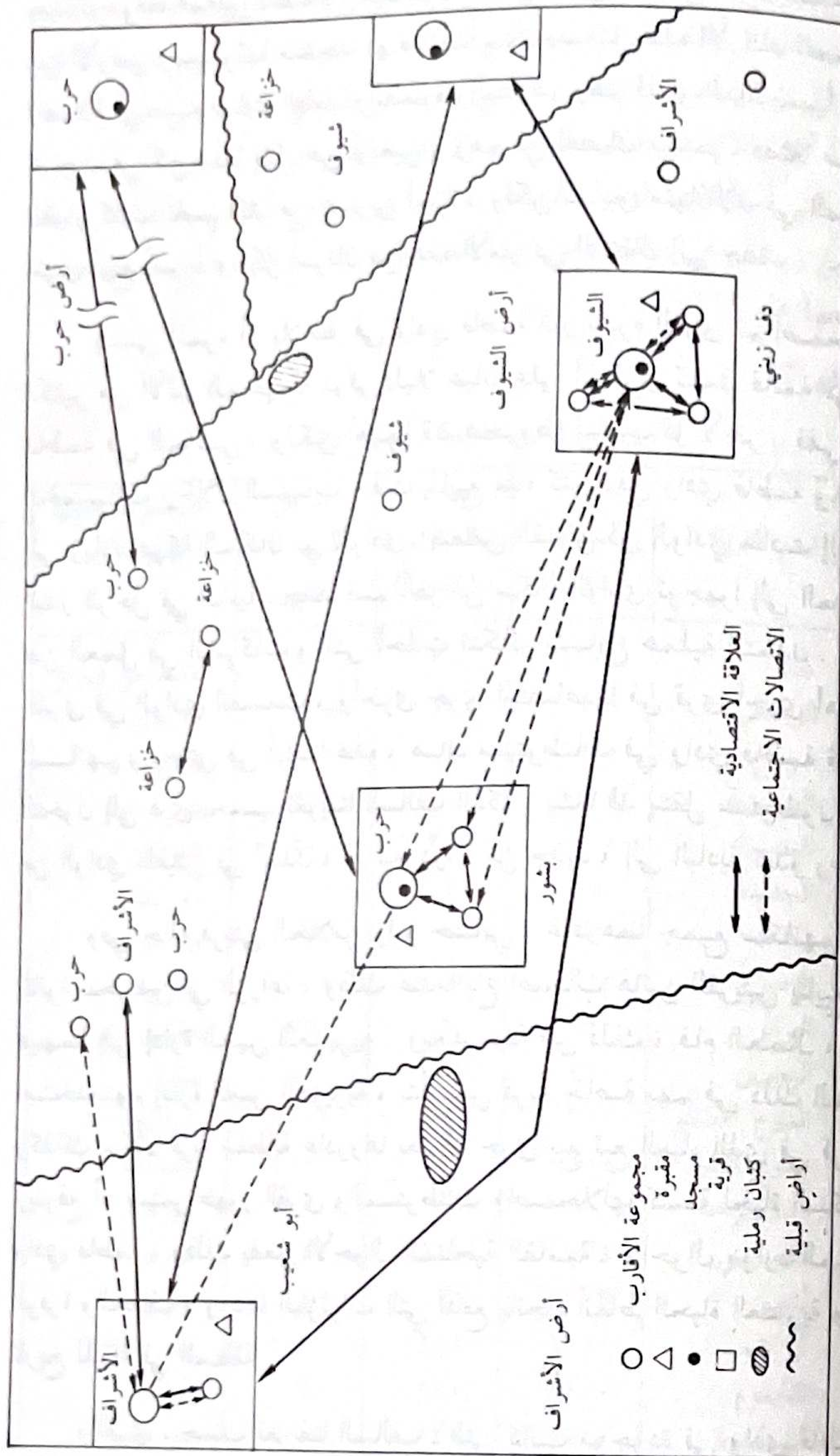
(١) أحد الوزراء في الحكومة السعودية، في الأيام الحديثة، كان من المولّدين.

الرحل هي حديثة النشأة، وقد تتطور لتصبح قرية دائمة أو لا تكون. وهناك مستوطنات لمستخدمي إدارة العين العزيزية وأخرى للعمال الزراعيين، وغيرها للمزارعين والملاك، وبعض هذه القرى قد تشتمل على عدد قليل من المساكن لا يزيد على خمسة، وبعضها الآخر قد يشتمل على ستمائة بيت.

وبعد أن لاحظت، بعناية، بنية كل واحدة من المستوطنات في وادي فاطمة، قررت بأن استعمال كلمة «قرية» يغدو أكثر موضوعية إن هو حصر في تسمية تلك المستوطنات التي أصبحت راسخة إلى حد أن سكانها قد بنوا فيها مسجداً لهم، سواء كان هذا المسجد من الطين أو الحجارة أو الأسمنت، وأن سكانها قد أصبحت لهم مقبرتهم الخاصة في هذه القرية. فالمسجد والمقبرة هما مؤشران بأن سكان تلك القرية يعتزمون الاستقرار فيها بصورة دائمة، كما يشيران بأن عدد الرجال في تلك المستوطنة لا يقل عن أربعين، لأن هذا هو الحد الأدنى المطلوب لاستكمال النصاب لإقامة صلاة ظهر يوم الجمعة في المسجد، وهي أهم صلوات الأسبوع.

وخير وسيلة لتوضيح هذا الأمر هي بإعطاء مثال حقيقي من المنطقة. فعندما يتحدث سكان منطقة وادي فاطمة عن قرية «دف زيني»، بما في ذلك موظفو مركز التنمية الاجتماعية هناك، فإنهم يشيرون بذلك، بصورة عامة، إلى عموم مستوطنات الجماعات المرتبطة برابطة النسب، والتي تقع قرب بعضها البعض في المنطقة التي تستوطنها عائلة الشيخ زيني. فمستوطنات «الطيار»، و«العمارة» و«المدرة» لا يوجد في أي منها مسجد مستقل لأداء صلاة الجمعة، وإن كان يوجد، في كل منها، فناء صغير مفتوح يستخدم للصلاة، في حين تجد في قرية البشور مسجدها الخاص المشيد من الطين، وهو مسجد ساهم عموم قرية البشور في بنائه عام ١٩٦١م، أي بعد سبع سنوات من إقامتهم فيها. ورغم أن أهل قرية البشور يستأجرون الأرض التي يسكنونها من عائلة زيني، وبعضهم يعملون كمزارعين في أراضي «الوقف»، التي نذرتها عائلة زيني، فإن أهالي البشور لا يشاركون عائلة «زيني» في المخالطات الاجتماعية بل لهم حياتهم الاجتماعية الخاصة بهم، ويقيمون صلاة الظهر الخاصة بهم أيام الجمعة، ولهم مقبرة خاصة بهم. ويبين الشكل رقم (١٠) العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية المتبادلة بين الجماعات والقرى والقبائل المرتبطة بأواصر الأنساب في منطقة دف زيني والبشور.

شكل رقم ١٠ :



العلاقات الاقتصادية الاجتماعية المتداخلة بين مجموعات الأقارب، والقرى وأراضي القبائل في بشور

بعد أن ينصب البدو الرحل خيامهم في وادي فاطمة ، بثلاثة أو أربعة أيام ، يعدون موقعاً صغيراً للصلاة ، فيصفون مجموعة من الحصى حول قطعة صغيرة من الأرض ويسمونها مسجداً أو مشهداً ، وتجد مثل هذه الأركان المخصصة للصلاة في مستوطنات الطيار والعمارة والمدرة ، وهم قليلو العدد نسبياً ، وعدد الرجال في كل منها يقل عن أربعين ، وهم في نقصان مستمر . فمثلاً مستوطنة الطيار كانت تضم أكثر من عشرين أسرة ، ولكن لم يبق منها الآن في المستوطنة سوى أربع أسر ، وتفكر أسرتان من هذه الأسر في الانتقال إلى جدة .

يتسنى للمرء أن يلاحظ في وادي فاطمة آثار نشوء القرى ثم اضمحلالها . فكثير من الآثار المجهولة توفر دليلاً عياناً على أن قرى كانت قائمة في وادي فاطمة في الماضي ، ولكن أهلها قد هجروها لسبب أو لآخر . ففي أواخر الخمسينات وخلال الستينات جفت ينابيع مياه كثيرة في وادي فاطمة وهذا أدى إلى زيادة حركة السكان في الوادي. فبعض القبائل في الوادي عادت إلى حياة البدو الرحل في البادية ، بينما قسم آخر من سكان الوادي توجهوا إلى المدن بحثاً عن العمل في الشركات ، التي أخذت تتكاثر بتسارع عملية التمدن . وبعض القرى في الوادي انقسمت ، وأخرى جرى امتصاصها في قرى أخرى أهلها من أنسبائهم ، وحتى في أيامنا هذه ، هناك مستوطنات في وادي فاطمة في طور التحول إلى قرى بحسب تعريفنا السالف الذكر ، بينما قد ينتقل مستوطنون آخرون من الوادي للعيش في المدن ، أو ليعودوا ، من جديد ، إلى البادية كبدو رحل .

وفي حالة قريتي الخلاص وأبو حساني ، غادرهما جميع سكانهما الذين كانوا منخرطين في الزراعة ، وذلك عندما باع أصحاب هاتين القريتين ينابيع المياه فيهما إلى إدارة العين العزيزية . وبعد سنة من ذلك ، قام العمال ، الذين استخدمتهم إدارة العين العزيزية ، بتأسيس قرية خاصة بهم في ذلك الموقع ، وكذلك سكان قرية سُلطانة غادروها بعد أن جرى بيع نبع المياه الذي في قريتهم . ويتوقع أن يستمر ظهور القرى والمستوطنات واضمحلالها كسمة لحياة السكان في وادي فاطمة ، وذلك بفعل الأحوال المناخية القاسية ، وأحوال موارد المياه بين الوفرة والجفاف ، وزيادة المؤثرات التي تدفع باتجاه أنماط الحياة العصرية ووجود تاريخ للنقلة في المنطقة .

والقرى - حسب تعريفنا السالف - التي كانت موجودة في وادي فاطمة في

شهر يونيو عام ١٩٧٠م ، تجدها مدرجة في الجدول رقم (٣) ، الذي يشتمل على اسم القرية وعدد سكانها (بالتقدير) ، وتقدير لعدد البيوت فيها ، وتقدير لعمر استيطانها ، والقبيلة الرئيسية التي تستوطنها . وكانت ثماني وعشرون من مجموع القرى الإحدى والثلاثين ، التي كانت في الوادي آنئذ ، هي مستوطنات زراعية عامة ، وثلاثة هي قرى خاصة بعمال إدارة العين العزيزية ، وهناك مستوطنة القشاشية التي يستوطنها العمال الزراعيون لإحدى المزارع الحكومية هناك وعمال إدارة العين زبيدة وهي متفرعة من إدارة العين العزيزية ، والتي بدأت تزويد مدينة مكة بمياهها عام ١٩٦٩م .

جدول رقم ٣:

القرى في وادي فاطمة (يونيه ١٩٧٠)

الرقم	اسم القرية	عدد السكان (تقديراً)	عدد المنازل (تقديراً)	عمركل قرية (تقديراً)	المجموعة القبلية الرئيسية
٠١	جدة	١٤٠٠	٢١٤	١٣٠٠	خليط من القبائل
٠٢	الريكاني	٦٠٠	١٣٠	٨	مُحمَّدي
٠٣	سرواع	٥٠٠	٩٥	١٠٠٠	المفالجة
٠٤	المرشدية	١٠٠٠	٢٠٠	٣٥٠	بنو مساعد
٠٥	الخميمة	١٠٠٠	٢٠٠	٢٠٠	شيوف
٠٦	الجديدة	١٨٠	٤١	٦	بنو سليم
٠٧	السمْد	٢٥٠	٥٣	٧	بنو سليم
٠٨	القصر	٣٠٠	٦٨	٨	بنو سليم
٠٩	البرابر	٥٠٠	٩٠	٧٥٠	مُعَبَدي بَشري
١٠	البحرين	٥٠٠	٩٣	٩٠٠	سادة
١١	الدوح الصغير	٧٠٠	١٥٠	١٠٠٠	المفالجة
١٢	الدوح الكبير	٦٠٠	١٢٣	١٠٠٠	المفالجة
١٣	دف خزاعة	٨٠٠	١٦٠	١٤٠٠	خُزاعة
١٤	دف زيني	٧٣١	١١٤	٣٥٠	شيوف
١٥	بُشور	٢٠٣	٤٦	١١	بُشري
١٦	أبو شعيب	١٠٠٠	٢١٤	١٠٠٠	بنو حسين
١٧	الجُموم	٣٠٠٠	٦٠٠	٣٠	حَرب
١٨	أبو عُروة	٧٥٠	١٣١	١٠٠٠	بنو حسين

١٩	البُرقعة	٢٠٠	٤٠	٩٠٠	بنو حسين
٢٠	السَّمد	٢٨٠	٦٨	٨٥٠	بنو حسين
٢١	المُندسّة	٢٤٨	٤٥	٢١	لحيان
٢٢	عين شمس	٤٣٣	٩١	٢٦	لحيان
٢٣	الخيف	١٢٠٠	٢٤٠	١٠٠٠	العواجاء
٢٤	النُدُب	٢٠٠	٤٠	١٤	يَمني ، بُشري
٢٥	أبو خُساني (١)	٢٥٠	٥٠	١٥	عتيبة
٢٦	الخلاص	١٩٠	٣٨	٨	عتيبة
٢٧	القشاشية (٢)	٢٥٠	٤٨	١٠	يمني ، متنوع
٢٨	الدُبا	٢٠٠	٤٠	١٣	حازمي
٢٩	الطرقة	٥٠٠	٩٢	٨٠٠	المناعمة
٣٠	الريان	٦٠٠	١٢٠	٨٠٠	المناعمة
٣١	المبارك	٦٠٠	١١٠	١٠٠٠	المناعمة

ملحوظة :

أُدرجت القرى في القائمة كما تمتد شمالاً شرقاً من قرية الهدَّة إلى قرية مبارك . وقد استخدمت نفس أرقام القرى في الشكل رقم ١١.

تقديرات عدد السكان :

من العسير جداً احتساب العدد الإجمالي لسكان وادي فاطمة نظراً لتباين أنواع السكان البدو هناك ، وجنوح الكثير من العشائر هناك للنقلة ، ولم يسبق إجراء إحصاء رسمي للسكان . ويشتمل الجدول رقم (٣) على تقديرات لعدد السكان والأسر التي تستوطن القرى الإحدى والثلاثين التي كانت مأهولة في وادي فاطمة في شهر يونيو ١٩٧٠م ، ومجموع هؤلاء هو ١٩١٦٥ شخصاً و٣٧٤٤ أسرة . ويمكن بصورة تقديرية ، توزيع هؤلاء السكان حسب القبائل التي ينتمون إليها على النحو التالي : قبيلة قريش ٣٠٪ ، وقبيلة حرب ٣٠٪ ، وقبيلة لحيان ١٥٪ ، وقبيلة الشيوف ١٠٪ ، والمولدون ٥٪ ، وآخرون ١٠٪ .

(١) قرية تابعة لعمال العين العزيزية

(٢) قرية حكومية للعمال الزراعيين

المؤسسات الإدارية :

المؤسسات الإدارية الرئيسية الموجودة في وادي فاطمة هي مقر الأمير ، والمحكمة ، وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومركز الشرطة ، والبلدية ، والجمعية التعاونية ، ومكتب البريد ، ومكتب الهاتف ، ومجلس القرية ، ومركز التنمية الاجتماعية ، وجميعها مقرها في الجموم .

ومقر الأمير يشتمل على مكاتب الأمير بصفته الحاكم الإداري في وادي فاطمة ويعاونه ثلاثة مسؤولين إداريين وكتبة . وفي السابق كان لممثل الأمير أربعة مقرات منفصلة في كل من : الريان ، والطائف ، والخيف ، والجموم ، ولكن في عام ١٩٥٥م ، تقرر أن يكون المركز الرئيسي في الجموم وأن تصبح المكاتب الثلاثة الأخرى مكاتب فرعية ، وتتبع إمارة وادي فاطمة إدارياً إمارة مكة المكرمة .

أما المحكمة فقد أسستها الحكومة هناك في عام ١٩٦١م لتتولى مهمة تسوية المشاكل القضائية وفق الشريعة الإسلامية ، وهي تشتمل على قاضٍ وشرطي وكاتبين .

ومركز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأسس في عام ١٩٥٥م ، وهو يضم رئيساً وسبعة مساعدين دينيين . والغرض من هذا المكتب هو صيانة التعاليم الإسلامية والأخلاق والعادات في منطقة وادي فاطمة . ويحض المسؤولون العاملون فيه السكان على الصلاة وتجنب الملابس غير المحتشمة ، كما يحققون في حالات الزنا وغير ذلك من الأمور غير اللائقة .

وأما مركز الشرطة فقد أنشىء في عام ١٩٦٠م ، ويعمل فيه عشرون رجلاً بأمرة ضابط مسؤول بفترات دوام متتابعة ، مدة كل منها ست ساعات . ومهمة الشرطة هي المحافظة على الأمن العام في المنطقة ومساعدة الأمير في أمور شتى .

وأما البلدية فهي ، في الواقع ، فرع من بلدية مدينة مكة ، وقد أسست في الجموم في عام ١٩٦٣م للعناية بالأعباء المتزايدة لهذه البلدة . وفي الوقت الحاضر ، الوظائف الرئيسية للبلدية هي تأمين إضاءة الشوارع والمحافظة على نظافة الأماكن العامة ، وبلورة الأفكار والخطط المتعلقة بتخطيط المدن .

بعد أن أكمل مركز التنمية الاجتماعية الدراسات الأولية ، جرى تنظيم

«الجمعية التعاونية» في عام ١٩٦٤م، وكان عدد أعضائها، عند التأسيس، ٢٢٠ عضواً، ورأسمالها ثلاثين ألف ريال سعودي (حوالي ٧٢٠٠ دولار أمريكي)، وبحلول عام ١٩٧٠م ارتفع عدد أعضائها إلى ٣٨٠ شخصاً، وارتفع رأسمالها إلى مائة ألف ريال سعودي (حوالي ٢٤٠٠٠ دولار أمريكي)، وبدأت الجمعية التعاونية في بناء محطات البنزين في عام ١٩٦٥م، ووفرت مواد البناء مثل الأسمنت، وغير ذلك من الضروريات مثل زيت الديزل والبنزين، وأنشأت مقاهي للجمهور، وهم يستخدمون في إنشاء هذه المقاهي سعف النخيل ويؤثثونها بدكك مستطيلة وأجهزة تلفزيون، ويتسع المقهى، في العادة، لحوالي عشرين إلى ثلاثين شخصاً، وقد شجعت هذه الجمعية التعاونية السكان البدو على دفع أثمان المواد والحاجيات التي يشترونها نقداً بدلاً من أخذها على حساب الدين.

وفي عام ١٩٥٨م، أسست وزارة المواصلات مكتباً للبريد في بلدة الجموم. وفي الأصل، كان البريد يصل إلى الجموم مرة واحدة في الأسبوع، ولكن منذ عام ١٩٦١م أخذ البريد يصل مرتين في الأسبوع، وتحاول الحكومة زيادة وتيرة إيصال البريد وزيادة سرعة خدماته المحلية.

وفي أوائل عام ١٩٦٥م، تم مد خط هاتفي بين مدينة مكة وبلدة الجموم وذلك كجزء من شبكة خطوط الهاتف الداخلية، وبذلك تم تأسيس مكتب الهاتف في وادي فاطمة. وبحلول عام ١٩٧٠م، بلغ عدد أجهزة الهاتف، المستخدمة في المكاتب والبنايات الحكومية في بلدة الجموم، خمسين هاتفاً، كما أن خمسة وعشرين من السكان حصلوا على خطوط هاتفية، وإن كانت مكلفة لهم، وهم في الحقيقة لا يحتاجونها. أما إدارة العين العزيزية فيتوفر لديها نظام مستقل خاص بها للاتصالات اللاسلكية لتأمين اتصالات يومية كفوءة وفعالة.

أما مجلس القرية، وهو يدعى في الأساس «كبار القرية»، فهو لجنة أهلية نشأت وتبلورت بين السكان تعمل لمعالجة قضايا تنمية المجتمع، ويشرف عليها مركز التنمية الاجتماعية هناك، وتساهم مع المؤسسات الأخرى في حل المشكلات التي تعترضها، وللجنة سجلات ونظام إرشادي صادر عن وزارة العمل والشؤون الاجتماعية تمارس في ضوئه نشاطها. ويتألف «مجلس القرية»، في الوقت الحاضر، من عدد يتراوح بين خمسة أعضاء إلى تسعة، وجميع الأعضاء هم من الذكور البالغين، ويتم انتخابهم من المجتمع، ويقوم أحد

معلمي المدرسة بمهام سكرتير المجلس ليسجل وقائع ما يتداوله المجلس من قضايا، وما يتخذه من قرارات.

وهناك صنفان آخران من المؤسسات الإدارية في وادي فاطمة يستحقان أن يناقشا بشيء من التفصيل وهما المدارس ومركز التنمية الاجتماعية.

مركز التنمية الاجتماعية:

جرى تأسيس مركز التنمية الاجتماعية في وادي فاطمة في عام ١٩٦١م، وهو واحد من ستة عشر مركزاً من هذا النوع جرى تأسيسها بجهد مشترك من وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، ووزارة الزراعة والمياه، ووزارتي الصحة والتربية والتعليم. والأهداف العامة لهذا المركز هي العمل على تحسين مستويات الشؤون والأوضاع الاجتماعية والثقافية والتربوية والزراعية والصحية في المنطقة. ومن غايات هذا المركز المساعدة في تطوير القيادات في المجتمع المحلي بهدف تحقيق التقدم الاجتماعي في منطقة الوادي، والعمل على تعديل تلك العادات والتقاليد التي تعترض سبيل التقدم الاجتماعي، وتطوير وسائل استخدام المواد الخام المحلية لتحسين الانتاج الزراعي والصناعات القروية، ونشر التعاليم الإسلامية والقيم الإنسانية في المجتمع، وتمويل إنشاء المقاهي في المنطقة كوسيلة لتشجيع البدو على لعب دور اجتماعي أكبر، وتحسين مستوى البيئة وأحوال السكان من الناحية الصحية، وتشجيع التعليم سواء بين الشبيبة أو البالغين. وقد أوعزت الوزارات المتبنية لمركز التنمية الاجتماعية ومرافقه إلى خبرائها بتقديم ما يلزم من عون ومعلومات للعمل على تحقيق هذه الأهداف. ويقوم مدير المركز، وغيره من المسؤولين الإداريين فيه، بلعب دور حلقة الصلة بين مركز التنمية الاجتماعية في وادي فاطمة وبين الوزارات وخبرائها ومراكز التنمية الأخرى.

ويعطي الخبراء الاجتماعيون العاملون في المركز أولوية عالية لمهمة تزويد السكان المحليين بمهارات جديدة، وتشجيع المعلومات التوجيهية للسكان على أن يلعبوا دوراً نشيطاً وفعالاً في اللجان والهيئات الاجتماعية، وتزودهم التعاونيات بفرص للحصول على تدريب إضافي والتعارف وبناء علاقات مع معارف جدد، والتمتع بنشاطات اجتماعية جديدة. وينظم المركز دراسات حول

المواضيع الاجتماعية المتعلقة بحياة الناس هناك ، مثل شذوذ المراهقين ومشاكلهم ، ومحو الأمية ، وأمور النظافة والطهارة . ويشجع المركز السكان على إلحاق أطفالهم بالمدارس ، وينهاهم عن أكل اللحم الذي تعرض للذباب ، ويشجعهم على زيارة الطبيب للعلاج والتطعيم ضد الأوبئة .

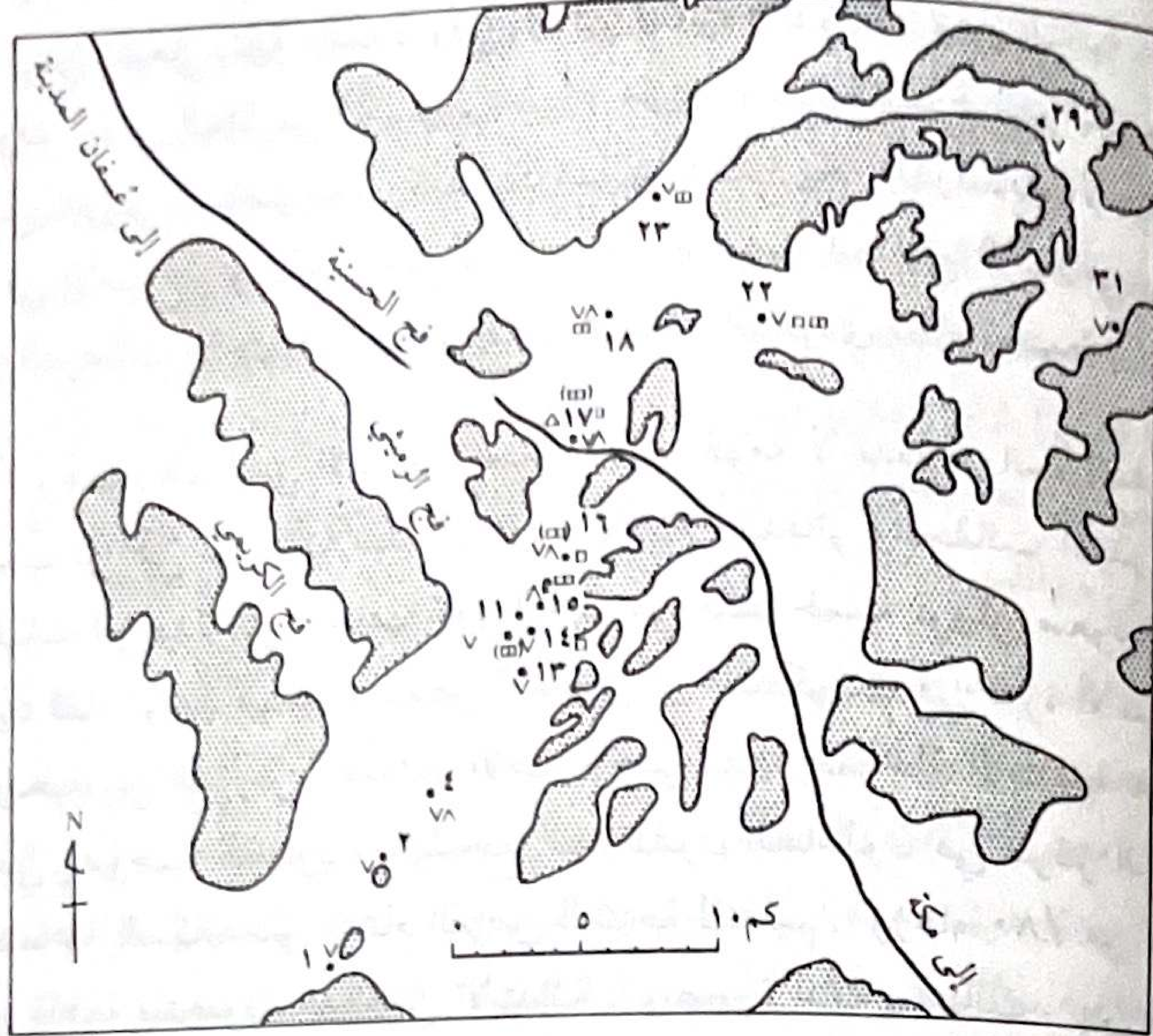
وتقوم باحثة اجتماعية سورية ومساعدتان مصريتان لها ، عاملات في مركز التنمية الاجتماعية ، بتقديم تدريب للفتيات وأمهاتهن حول أصول التدبير المنزلي وبعض الحرف والصناعات الريفية ، وكذلك ينظم المركز صفوفاً لتعليم الفتيات والنساء القراءة والكتابة ليصبحن مواطنات صالحات ، ويشجع المركز السكان على إقامة علاقات الصداقة مع أبناء القبائل الأخرى ، كما يشجعهم على تسجيل الولادات وإلحاق الأطفال بالمدارس . وقام مدرب مهني ، من أسرة المركز ، بمساعدة بعض شباب القرية على تعلم عدد من الحرف والمهارات مثل النجارة بأمل أن هذا سيساعد المجتمع ، وأن الاهتمام بمثل هذا التدريب سينتشر ، ويشمل مركز التنمية الاجتماعية كذلك على عيادة صحية سيجري الحديث عنها لاحقاً .

المدارس والتعليم :

حسبما هو مبين في الشكل رقم (١١) ، هناك في وادي فاطمة ثلاثة عشر مدرسة ابتدائية للصبيان (وهي كائنة في الهدَّة والركاني والمرشدية ودف خزاعة ودف زيني وأبو شعيب والجموم وأبو عروة والخيف وعين شمس والطرفاء والدوح الصغير والمبارك) ، وخمس مدارس ابتدائية للفتيات (في المرشدية والبشور وأبو شعيب والجموم وأبو عروة) ، ومدرسة متوسطة واحدة من الصف السابع وحتى الصف التاسع ، وهي مدرسة للصبيان ومقرها في الجموم ، وأربع مدارس لمحو الأمية للذكور البالغين (وهي في دف زيني وأبو شعيب والجموم وعين شمس) ، وأربع مدارس لمحو الأمية للنساء (في كل من البشور وأبو عروة والخيف وعين شمس) . وفي السنوات السابقة ، كانت هناك ثلاث مدارس أخرى لمحو الأمية للنساء (في كل من دف زيني وأبو شعيب والجموم) ، ولكن هذه المدارس أقفلت ، وفي الوقت الحاضر لا توجد مدارس ثانوية في وادي فاطمة ، ولذلك يضطر الصبيان ، الذين يرغبون في إتمام تعليمهم ، للتوجه إلى مدينة جدة أو إلى مدينة مكة .

الشكل رقم ١١ :

خريطة المدارس في وادي فاطمة



- ٧ =مدارس ابتدائية للبنين
- ٨ =مدارس ابتدائية للبنات
- Δ =مدارس متوسطة للبنين
- ( ) =مدارس سابقة
- □ =مدارس محو أمية للرجال
- ◫ =مدارس محو أمية للنساء
- ● =قرى (انظر الشكل رقم ٥)

والموضوعات الرئيسية التي تدرس في المدارس الابتدائية هي الدين الإسلامي ، وقراءة اللغة العربية وكتابتها . وتبدأ الصفوف ، في العادة ، حوالي الساعة السابعة والنصف صباحاً وتستمر حتى حوالي الساعة الواحدة ظهراً ، كي يتسنى للأطفال تناول وجبة الغداء في بيوتهم .

والمدارس الأكثر تجهيزاً، في وادي فاطمة، هي مدارس الصبيان في الجموم، ودف زيني وأبو عروة وعين شمس. وكل من مدرسة الجموم ومدرسة دف زيني تشغل بناية دائمة، وفي الأولى ثمانية صفوف، وفي الثانية خمسة صفوف. وفي المدارس الكبرى، نسبياً، جرى توسيع المنهاج الدراسي بحيث يشمل تدريس الرياضيات، وكذلك دراسة عامة للتاريخ والدراسات الاجتماعية مرة في الأسبوع. وتعالج دروس التاريخ بصورة خاصة الماضي الإسلامي، بينما تركز الدراسات الاجتماعية على واجبات المواطن السعودي تجاه مجتمعه.

وعموم المدارس الابتدائية مجانية، فالحكومة لا تدفع رواتب المدرسين فحسب بل هي تزود التلاميذ بالكتب والأقلام والدفاتر والحقائب المدرسية. والنفقات الوحيدة التي يتكلفها ذوو الطفل هي فقط خمسة قروش سعودية لكل تلميذ لقاء تزويد التلميذ ببعض الحلوى أو البسكويت في فترة الاستراحة الترويحية بين الدروس. وتعليم الأطفال حتى نهاية المرحلة الابتدائية هو أمر إلزامي بموجب القانون، ويشجع الموظفون العاملون في مركز التنمية الاجتماعية السكان على اغتنام الفرص المتاحة للتعليم. وزهاء ٨٠٪ من أطفال وادي فاطمة يلتحقون بالمدارس الابتدائية. وبصورة عامة، هنالك، بين سكان الوادي، حماس أكيد للتعليم لأن الآباء يأملون بأن التعليم سيحسن من الأحوال المالية لأبنائهم في المستقبل، وبفضل حض وتشجيع مركز التنمية الاجتماعية على ذلك، ثم بفعل الغيرة والحماس فعندما يلتحق أحد الأطفال من إحدى القبائل بالمدرسة فإن آباء الأطفال الآخرين يتشجعون على إلحاق أطفالهم بالمدرسة.

السنة الدراسية مدتها ثمانية شهور، بدءاً من شهر أكتوبر إلى شهر مايو، وهي تتزامن مع الفصول وليس وفق التقويم الإسلامي. وتتخلل السنة الدراسية ثلاثة عطل هي: العطلة الصيفية حوالي أربعة شهور، من شهر يونيو وحتى نهاية سبتمبر، ثم عطلة عيد الفطر ومدتها خمسة عشر يوماً، تبدأ في نهاية شهر رمضان، وهي تتميز بأجواء الأعياد والولائم احتفاء بنهاية شهر الصيام، ثم عطلة عيد الأضحى، وهي تدوم نصف شهر خلال موسم الحج في شهر ذي الحجة. وتعقد الصفوف الدراسية ستة أيام في الأسبوع من يوم السبت إلى يوم الخميس، أما يوم الجمعة فهو عطلة. وفي موسم الحصاد وغير ذلك من

الفترات، التي يزيد فيها عبء العمل على الآباء، يتغيب الأطفال عن المدرسة ليساعدوا أهلهم.

وبصورة عامة، الأطفال شغوفون بالتعليم، وآباؤهم يفخرون بإنجازاتهم في المدرسة. وفي أواخر فصل الربيع، تنشر الصحف نتائج الامتحانات النهائية للتلاميذ. ومرة عندما حصل أحد الصبيان في وادي فاطمة على أعلى العلامات في صفه أقام له أهله حفلة على شرفه، وقد حضر أقرباؤه الذين في مدينة مكة خصيصاً لحضور الحفلة وبكت أمه من الفرح، وبعد وليمة كبيرة ألقى الشاب خطاباً قصيراً شكر خلاله أسرته على إقامتهم هذه الحفلة له وقال: «إن النتائج التي حصلت عليها في الامتحان هي بفضل ما حظيت به من عون من الله ومن أصدقائي ووالدي».

معظم المدرسين في مدارس الصبيان الابتدائية هم من الرجال السعوديين، بينما جميع المدرسات في مدارس البنات هن من أقطار خارج السعودية، من سوريا ومصر والأردن وفلسطين. وعندما يرغب الأهالي بفتح مدرسة في قريتهم كل ما يحتاجون عمله، لتحقيق رغبتهم هذه، هو أن يبلغوا مركز التنمية الاجتماعية بذلك كي تؤمن لهم وزارة التربية والتعليم مدرساً من خلال مركز التنمية الاجتماعية. وهم يزودون كذلك بلوح أسود محمول وما يلزم من الطباشير. وهم لا يستعملون في مثل هذه المدارس مناضد للتلاميذ ولا كراسي، لأن البدو معتادون على الجلوس قرفصاء على شرشف من القماش، أو حصير منسوج من سعف النخيل يفرش على الرمل (انظر الصورة رقم ٨). وبالجلوس قرفصاء في المدرسة يتعلم الأطفال الكتابة في الدفتر المستند على ركبهم. ولا توجد مناضد وكراسي للتلاميذ سوى في غرفة واحدة لأحد الصفوف المتقدمة في مدرسة قرية دف زيني. وعندما تفتتح إحدى المدارس، يجري الإعلان عنها في الصحف المنشورة في المدن، ثم ما تلبث أن تنتشر أخبار ذلك في أرجاء الوادي بتناقل الخبر مشافهة من بيت إلى آخر.

وتلتئم صفوف محو الأمية بين الكبار للنساء، عادة، في الصباح من حوالي الساعة العاشرة وحتى الظهر، بينما تعقد صفوف محو الأمية بين الكبار الخاصة بالرجال، في العادة، بين الساعة الرابعة والساعة السادسة بعد الظهر قبل غروب الشمس.

الصورة رقم ٨:



مدرسة ابتدائية حيث يفترش التلاميذ ، في العادة ، سجادة من القماش أو حصيرة من سعف النخيل على الرمال

حوالي ١٠٪ ، أو أقل من ذلك ، من مجموع التلاميذ الذين يكملون المدرسة الابتدائية في وادي فاطمة يتابعون التعليم في المدارس الثانوية أو المدارس التقنية الصناعية في مدينتي جدة ومكة . ومعظم هؤلاء الطلاب يختارون متابعة دراستهم في المدارس التقنية الصناعية ، حيث يدرسون المهن الهندسية أو التجارية . ويتلقى التلميذ الذي يلتحق بإحدى هذه المدارس حوالي (٢٥٠) إلى (٣٠٠) ريال سعودي في الشهر (٦٠ ـ ٧٢ دولاراً أمريكياً) وذلك بالإضافة إلى المسكن والمأكل .

الصحة والطب والخرافات :

لمعالجة الأمراض يتجه بدو وادي فاطمة إلى الطب العصري مثلما يتجهون إلى العلاج الشعبي التقليدي . وكثيرون منهم ، ولا سيما الشباب والمتعلمون ، يعزون المرض إلى فعل الميكروبات ، بينما آخرون يعزون الإصابة بالمرض إلى فعل الجن (وهم مخلوقات لا تراها الأعين ، منها ما هو مؤذي ، ومنها من هو نافع ومفيد ، ولها تأثير على حياة الناس) .

وفي مركز التنمية الاجتماعية في الجموم عيادة طبية يعمل فيها طبيب باكستاني وزوجته التي تعمل كداية ، وممرضة مصرية ، وأربعة مساعدين طبيين

وصيدلي . وإذا اعتلّت صحة إحدى النساء اللواتي من بعض القرى المتنورة ، فهي لن تتردد في المجيء للمعالجة عند هذا الطبيب الذكر رغم أنها تبقى خلال الفحص والتشخيص الطبي مرتدية عباءتها ومسدلة حجابها ، وإن هي احتاجت إلى حقنة في خاصرتها أو ردفها فإن الممرضة تعطيها هذه الحقنة .

وبعض البدو لا يزورون العيادة الطبية لأن المواصلات صعبة ، ولكنهم شغوفون لمعرفة المزيد عن الصحة . وبصورة خاصة ، بعد أن ساعدتُ في تمريض الابنة الصغرى لشيخ قرية البشور إلى أن شفيت ، فأخذ سكان المنطقة يحثونني على إحضار أدوية لهم من مدينة جدة . وقال أحد معلمي المدرسة هناك بأنه يود لو يعمل لفترة ، خلال العطلة الصيفية ، كمساعد لأحد الأطباء في مدينة جدة ، لعله يتعلم كيف يساعد المرضى من سكان القرية .

ويعطي الجدول رقم (٤) بعض الإحصائيات عن العيادة الطبية في الجموم . وتبين هذه الإحصائيات أن العلل الرئيسية التي شكا منها المرضى ، الذين تم علاجهم في هذه العيادة خلال عام ١٩٦٨م وعددهم ١٤٠٥٥ شخصاً ، هي : الأمراض الصدرية ، وعسر الهضم ، وجروح وكسور ، وأمراض العيون وسوء التغذية . ويبين سجل المرضى ، الذين جرت معالجتهم بين أغسطس ١٩٦٧م ويوليو ١٩٦٨م ، بأن عدد من جرت معالجتهم خلال أشهر الصيف بلغ تقريباً ضعف من جرت معالجتهم خلال أشهر الشتاء (انظر الجدول رقم ٥) ، وكذلك تفيد سجلات العيادة الطبية التابعة لمركز التنمية الاجتماعية أنه خلال عام ١٩٦٨م زار هذه العيادة ٣٦٪ من إجمالي عدد أطفال منطقة وادي فاطمة ، و٣١٪ من إجمالي عدد الرجال ، و١٣٪ من إجمالي عدد النساء .

ورغم أن الثقة في الطب العصري الحديث هي في ازدياد مستمر لدى سكان وادي فاطمة ، فإن اعتقادهم في التقاليد الطبية الشعبية المتوارثة ما زال متأصلاً في نفوسهم . ويبدو أن المعالجة ، حسب هذه التقاليد الشعبية المتوارثة ، هي قائمة على حكمة عملية مكتسبة بالخبرة المتوارثة . ومن أساليب المعالجة الشائعة هذه «الكي» بالنار ، وينطوي هذا على كي منطقة الألم بحجر ساخن جداً ، أو بقضيب حديد محمى إلى درجة الاحمرار . ورغم أن هذا الكي يؤدي إلى شعط بشرة الجلد بحيث يخلف فيها قروحاً واضحة ، فإن البدو يزعمون بأن أصعب الأمراض وأكثرها إيلاماً قد تم معالجتها وشفاؤها بأسلوب الكي بالنار

هذا . وزهاء ٦٠٪ من السكان في وادي فاطمة تجد في هذا الموضع أو ذاك من أبدانهم آثار قروح الكي بالنار . وفي العادة يتلقى الخبير بأصول الكي بالنار مبلغ عشرة ريالات سعودية لقاء كل مرة يستخدم فيها هذه المعالجة . ومرة قرر رجل من قرية البشور ، كان قد أصابه أذى في كتفه ، أن يذهب للمعالجة بالكي بالنار لدى خبير في قرية الشامية ، وهي على بعد ٧٥ كيلومتراً من وادي فاطمة ، وما لبث كتفه أن شفي تماماً بفضل هذا الكي بالنار .

جدول رقم ٤ :

الأمراض التي عولجت في العيادة الطبية بجموم (١٩٦٨)

الفئات	الحالات
الأمراض الصدرية (برد ، أنفلونزا . . . الخ)	٢,٧٠٠
أمراض الجهاز الهضمي	٢,٤٠٠
الإصابات والجروح (نظراً لعدم انتعال البدو للأحذية ، كثيراً ما يعانون من إصابات وجروح القدمين رغم أن باطن أقدامهم بالغ الصلابة)	٢,٠٠٠
أمراض العيون (تراخوما ، مياه بيضاء . . . الخ)	١,٠٠٠
أمراض أنف وأذن وحنجرة	١,٠٠٠
أمراض سوء التغذية (عند الأطفال خاصة)	١,٠٠٠
أمراض القلب والدم (مثل السكتة والأنيميا . . . الخ)	٩٠٠
أمراض جلدية	٨٠٠
انهيارات عصبية	٧٠٠
أمراض الجهاز البولي	٦٠٠
لسعات العقارب	٥٠٠
أمراض معدية (بما في ذلك ٢٠٠ حالة ملاريا و١٠٠ حالة سل و٥٠ حالة أمراض تناسلية)	٤٠٠
طفيليات الدم	٥٠
لدغات الثعابين	٥
الإجمالي	١٤,٠٥٥

المصدر : إحصائيات العيادة الطبية التابعة لمركز التنمية الاجتماعية ، وادي فاطمة ، ١٩٦٩ .

جدول رقم ٥ :

المرضى الذين عولجوا في العيادة الطبية بجموم (من شهر أغسطس ١٩٦٧ إلى يوليه ١٩٦٨)

الشهر	الحالات (عدد المرضى)
أغسطس	١,٦٠٠
سبتمبر	١,٢٥٠
أكتوبر	١,٧٠٠
نوفمبر	١,٢٠٠
ديسمبر	٩٠٠
يناير	٨٠٠
فبراير	٨٥٠
مارس	١,٠٠٠
أبريل	١,٢٠٠
مايو	١,٥٠٠
يونيه	١,٧٠٠
يوليه	١,٤٠٠
الإجمالي	١٥,١٠٠

المصدر : العيادة الطبية التابعة لمركز التنمية الاجتماعية ، وادي فاطمة ، ١٩٦٩ .

وهم يعالجون أوجاع المعدة والمصارين باتباع نظام الحمية ، وذلك بأن يستنكف المريض عن تناول الطعام مدة يوم أو يومين ويشرب فقط شاياً بالنعناع ، أو يغلي عشب البابونج بالماء ويشرب خلاصته . أما الشخص الذي يعاني من الإسهال فيغلي عشب الحرمل في الماء ويشرب خلاصته ، وهو عشب مر المذاق حتى أن الجمال والأغنام ترفض أكله . وإذا لسعت الشخص إحدى العقارب ، يربط موضع لسعة العقرب ربطاً محكماً ويجري مص السم عن طريق الفم ، ثم يضعون سناً من الثوم في موضع اللسعة المجروح ، ثم يكوون ذلك الموضع بالنار ، ثم يربطون بعض أوراق شجرة الحناء على القدمين واليدين . وعندما لسعتني إحدى العقارب تسنى لي أن أتبين بنفسي مدى فعالية هذه المعالجة ، وكانت فعّالة بصورة مذهلة رغم أن اللسعة كانت خطيرة للغاية .

ولا يفكر البدو، بصورة جدية، في زيارة الطبيب العصري إلا عند فشل الطب الشعبي. وإذا لم يتحقق الشفاء بالعلاج الذي يقدمه هذا الطبيب، عندئذ يقررون التوجه للعلاج لدى «السيد» (رجل يمارس المعالجة)، أو لدى السيدة (امرأة تمارس المعالجة). يقول السيد: «رقطوا بدن المريض كله بدم الشاة وما يلبث أن يشفى»، أما إذا عانى الشخص من وجع الأسنان، أو لسعته العقرب: «خططوا آية من القرآن على الرمل وعندئذ يزول الألم». وإذا أصاب أحد أفراد الأسرة الجنون أو أصبح مخبولاً، فإنهم يأخذون هذا الشخص مباشرة إلى «السيد»، وليس إلى الطبيب ولا إلى خبير الكي بالنار، وغالباً ما يعطي السيد الأسرة ورقة مكتوب عليها سطور من القرآن الكريم يغليها في ماء الشاي للشخص المجنون ليشربه، وأحياناً يوصي «السيد» بإقامة رقصة «الزار». وفي هذه الرقصة يقوم الشخص المجنون، أو إحدى قريباته، بالرقص داخل حلقة تشكلها نساء القرية من حولها، وتأخذ هؤلاء النساء في الغناء والتصفيق بإيقاع متواتر سريع، وما تلبث الفتاة، التي في وسط الحلقة، أن ترخي شعر رأسها، وترن خلاخل قدميها وهي ترقص وتلف وتدور وتقفز أسرع فأسرع حتى إن البدو يقولون بأنها غدت مثل العفريت. وأخيراً تغطي وجهها براحتي يديها وتلقي بنفسها على الرمل، ويعتقد الناس هناك بأن الروح الشريرة، التي سببت لوثة الجنون، ما تلبث أن تغادر الشخص المخبول أو المجنون.

ويعتقد كثير من البدو بالتمائم (جمع تميمة)، وهي كيس صغير من القماش يملأ أحياناً بما يزيد على عشرة أنواع من البخور القوي (ومنها، مثلاً، المحلب والصبر والحلبة والحليت)، ويعلق هذا الكيس حول رقبة الطفل الصغير فيحميه من لسعات العقرب ومن الأمراض. وآخرون يلبسون حول رقابهم قرآناً صغير الحجم محفوظاً في كيس جلدي ويدعونه «حجاب»، وهم يعتقدون بأن هذا الحجاب يحفظهم ويحميهم من المصائب وعوادي الزمن.

وهم يعتقدون أنه إذا كحلت امرأة عينيها بكحل امرأة أخرى ولدت على التو طفلاً، فإن هذا يحميها من الإصابة بمرض العيون. وإذا تعسر الحمل لدى امرأة فإنها قد تزور المقبرة وتترك مخدتها هناك. وإذا حملت بعد هذه الزيارة وأنجبت طفلاً معافى فإنها تأخذ طفلها إلى تلك المقبرة سنوياً إلى أن يشب الطفل عن الطوق. ولا يبدو أن أحداً هناك يعرف سبب هذه الممارسة، ولكنهم ببساطة يعتقدون بذلك.

إن السحرة الذين يدعونهم في وادي فاطمة «السيد أو السيدة» لا يزالون يمارسون سحرهم في جميع أرجاء الوادي، رغم أن السلطات قد منعتهم رسمياً من ممارسة سحرهم، كما أن «مركز التنمية الاجتماعية» يدعو الناس بقوة إلى الإحجام عن سحرهم والانقطاع عنهم. ومن أشهر هؤلاء السحرة «السيدة من اليمامة»، واليمامة هو الاسم القديم لمدينة الرياض، ثم ساحر مكة، وكذلك المثقفون الذين في المدن فإنهم يستشيرون أحياناً ساحراً لعله يساعدهم في العثور على شيء فقدوه.

الديانة:

وقد كثيرون من البدو إلى وادي فاطمة كي تتسنى لهم الإقامة قريباً من المدينة المقدسة مكة، وفي الوقت ذاته يستمرون في العيش حسب نمط الحياة التقليدية المحببة إليهم كبدو رحل. ويشعر أفراد قبيلة خزاعة والأشراف، الذين كان أجدادهم من أوائل السكان الذين استوطنوا في منطقة وادي فاطمة، بالفخر والاعتزاز لأنهم يستوطنون بجوار مكة المكرمة.

والعقائد الدينية لبدو وادي فاطمة هي، من وجوه عدة، الروابط التي تشدهم وتوحدهم مع القبائل والمجتمعات والمدن الأخرى في المملكة العربية السعودية. وعندما أخضع «ابن سعود» جميع القبائل تحت حكمه، في العشرينات والثلاثينات، كانت العقيدة الإسلامية هي أداته الفعالة والسلاح الأمضى الذي استخدمه لتحقيق هذه الغاية، ونشر تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب. درس الشيخ محمد بن عبد الوهاب الفقه الإسلامي في مكة والمدينة والبصرة والحسا، ودعا إلى العودة للتعاليم الأساسية للنبي محمد ﷺ والقرآن، وقد تأثر في دعوته هذه بدراساته لمؤلفات ابن تيمية، هذا الفقيه الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي متبعاً للمذهب الحنبلي.

وقبل أن يوحّد ابن سعود القبائل العربية، كانت تلك المنطقة مجزأة ومنقسمة إلى مشيخات صغيرة مشغولة دائماً بحروب ومطاردات، بين زعماء المدن المسورة وبين الشيوخ البدو، للسيطرة على تلك الأنحاء. ورغم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد تعرض لعداوات كثيرة فإنه قد استقبل بالترحاب في بلدة «الدرعية»، التي تقع على بعد ١١ كيلومتراً شمال غرب مدينة الرياض.

وكانت عائلة آل سعود قد سادت على بلدة الدرعية على مدى أجيال ، واشتهرت بحب العدل ولطف المعشر والشرف . ورغم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد توفي في عام ١٧٩٢م فإن دعوته ما تزال مستمرة لنشر التعاليم الإسلامية .

وتتألف الشعائر الدينية الرئيسية ، التي يمارسها البدو في وادي فاطمة ، من الصلوات اليومية ، وصوم شهر رمضان ، والحج إلى مدينة مكة خلال شهر ذي الحجة .

ويؤدي جميع المسلمين المؤمنين خمس صلوات يومياً هي : صلاة الفجر وتؤدى قبل شروق الشمس ، وصلاة الظهر ، وتؤدى عند بدء غروب الشمس ، وصلاة العصر ، وتؤدى بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة بعد الظهر ، وصلاة المغرب ، وتؤدى عند غروب الشمس ، وصلاة العشاء ، وتؤدى عند حلول الليل .

في وادي فاطمة معظم الذكور ، الذين تزيد أعمارهم على سبع أو ثماني سنوات ، يتوجهون إلى المسجد لأداء الصلوات الرئيسية ، وبعد أدائهم لفروض الصلاة يتبادلون الأحاديث والمعلومات والمجاملات الاجتماعية . وبوجه عام ، يبدأ الصبيان أداء الصلاة في سن مبكرة أكثر من البنات ، لأن الصبيان يتعلمون الصلاة في المدرسة ثم يلقون التشجيع لأداء الصلاة في المسجد . ولا تتردد النساء على المسجد في وادي فاطمة ، رغم أنه يفرد لهن ، أحياناً ، جناح خاص في المسجد لأداء صلواتهن فيه . فمعظم النساء يصلين في بيوتهن ، أو خيامهن ، أو في الحدائق الرملية المحيطة ببيوتهن . وأهم صلاة ، سواء في المسجد أو في أي مكان آخر ، هي صلاة ظهر يوم الجمعة .

يؤدي البدو صلواتهم بصورة منتظمة . فعندما يحين موعد الصلاة ، يجوز للمسلم أن يتوقف عن أداء ما يفعله وأن يسجد ويركع ببساطة على الرمل أو على قطعة من القماش عرضها ٥٠ سنتمتراً وطولها ١٠٠ سنتمتر ، أو أن يؤدي الصلاة على سجادة خاصة بالصلاة . وكما في وادي فاطمة ، كذلك في المدن ، عندما يحين موعد الصلاة تغلق جميع المتاجر أبوابها ، وتتوقف برامج الإذاعة والتلفزيون . وكان المؤذن لصلاة المغرب يعتمد في توقيت الآذان بملاحظة غروب الشمس ، أما في هذه الأيام فأخذ يعتمد على ساعة منبه تؤقت بموجب التوقيت الإسلامي الذي يذاع بواسطة الإذاعة .

ويبدأ البدوي النهار بأداء صلاة الفجر ، ثم يعمل في الحقل إلى حين موعد صلاة الظهر ، ثم بعد أدائه الصلاة يتناول طعام الغداء ، وهو الوجبة الرئيسية ، ثم يتحاشى ضراوة حر الظهيرة بالاستراحة والاسترخاء خلال فترة القيلولة ، ثم يؤدي صلاة العصر ، ويعود من جديد إلى الحقل ليعمل فيه حتى قبيل مغيب الشمس بقليل ، وبعد أن يؤدي صلاة المغرب ، يتناول ، في العادة ، عشاء خفيفاً وما يلبث بعد قليل ، أن يتوجه للنوم بعد أداء صلاة العشاء .

وأحياناً ، يؤدي الرجال صلاة جماعة معاً في الحقل ، فيبادر أحدهم إلى الإعلان عن اعتزامه الصلاة ، فيلحق به الآخرون ويصطفون خلفه ويؤدي الصلاة . وبدا لي أن النساء هن أقل مواظبة على الصلاة من الرجال . وقد أبلغتني النساء عندما استفسرت منهن عن سبب ذلك بأن فروض الصلاة هي غير مطلوبة من النساء خلال فترة العادة الشهرية ، أو من المرأة النفساء ، وهي التي لم يمض على ولادتها أربعون يوماً . وبدا لي أن بعض النساء يتجاهلن فروض الصلاة بداعي الكسل ، وإن كانت غالبيتهن متدينات ومؤمنات .

وفي وادي فاطمة يدعون شهر رمضان شهر البركة وشهر مبارك ، فخلال شهر الصيام هذا ، يتأتى على المسلم الامتناع عن الأكل والشرب والتدخين من ساعة طلوع الشمس حتى مغيب الشمس . ولكن بعد مغيب الشمس يزول الحظر عن هذه جميعاً ، ويهيىء البدو أنفسهم لتناول وجبة طعام ثقيلة . ومن أصناف الطعام التي يحبون إعدادها ، في شهر رمضان ، «السمبوسة» ، وهي كعكة دسمة ومغذية تتألف من اللحم والجبن . وقد قال لي بعض البدو بأن وزنهم قد زاد خلال شهر رمضان ، رغم أنهم كانوا يصومون خلال النهار . ونظراً لامتناعهم عن الطعام والشراب خلال النهار ، يغدو من العسير على أولئك ، الذين يعملون في الحقول خلال موسم القيظ ، أن يعملوا بإنتاجية عالية . ويكون الصيام هو أصعب ما يكون إذا جاء شهر رمضان خلال موسم الحصاد . وبعض الأثرياء المسلمين في المدن ينامون خلال النهار ويسهرون طوال الليل حتى يتسنى لهم الأكل والشرب حسبما يشاؤون ، وآخرون يمضون رمضان في السفر في الأقطار الخارجية .

وعندما سألت البدو إن كانوا ينظرون إلى شهر رمضان كفترة معاناة ومقاساة قالوا : «لا ، ليس كذلك ، لأن هذا فرض على الجميع «من الملك إلى

الشحاذ» ، وهو يفكرنا ، من جديد ، كيف يعاني الإنسان الفقير ، ثم إن يرسم أن تأكل وتشرب كما تشاء بعد غياب الشمس» . وهم يتطلعون لفرض الصيام بحماس ديني صادق وكتعبير عن المشاركة الديمقراطية .

وهم يشعرون ، كذلك ، بيقظة روحية خلال شهر ذي الحجة ، موسم الحج . ومازال كثيرون من البدو المستوطنين في وادي فاطمة يحتفظون بخيامهم بحالة جيدة لتكون جاهزة للاستعمال خلال موسم الحج . ويقوم جميع المسلمين ، سواء كانوا من الأغنياء أو الفقراء ، ومن التجار أو المزارعين ، من الذكور أو الإناث بزيارة مدينة مكة لأداء فريضة الحج مرتدين ملابس بسيطة . فيرتدي الرجال قطعتين من القماش الأبيض ، إحداهما تستر الجزء العلوي من الجسم ، والثانية تستر الجزء السفلي من الجسم . وهم لا يرتدون أي شيء آخر ، ولا حتى السروال الذي هو الرداء التحتي التقليدي . أما النساء فيرتدين رداء أبيض يستر جميع الجسم باستثناء الوجه . ويصر البعض على إزالة جميع شعر البدن لغرض الطهارة الدينية .

والشخص الذي يؤدي مناسك الحج في مكة يستحق لقب حاج وللنساء حاجة . وتقريباً ، جميع سكان وادي فاطمة ، باستثناء الأطفال الصغار ، هم من الحجاج . ونظراً لأنني كنت أرتدي ، في العادة ، العباءة والطرحة (الحجاب الأسود) مثل النساء المسلمات ، ولأنني كنت أحفظ آيات قرآنية وأتكلم اللغة العربية ، فقد افترض بعض البدو بأنني قد أديت فريضة الحج إلى مكة ، وكانوا يدعونني «الحاجة منى» (ومنى هو الاسم العربي الذي أعطي لي) .

وعندما يبلغ الصبي أو البنت سن السابعة أو الثامنة من العمر ، يرافق أهله إلى المدينة المقدسة لأداء فريضة الحج . وهي تجربة مدهشة للصغار ، ورغم أنه ، حسب التعاليم الإسلامية ، لا ينبغي على النساء ستر وجوههن بالحجاب خلال أداء مناسك الحج ، فإن السائد في وادي فاطمة أن البنت الصغيرة ، التي تؤدي مناسك الحج للمرة الأولى في حياتها ، تلبس حجاباً بسيطاً من القماش القطني الأبيض تصنعه هي بنفسها ، أو تصنعه لها أمها ، خصيصاً ، لهذه المناسبة .

المساكن :

تظهر المساكن في وادي فاطمة سمات تطورية متميزة في نمطية الإنشاءات

من مساكن البدو الرحل ، إلى مساكن البدو شبه الرحل ، فإلى مساكن البدو المستوطنين ، وتبين الصورة رقم (٩) مختلف أنواع المساكن هناك .

أ- بيت الشعر أو الخيمة ، وهو خيمة منسوجة من الصوف .

ب- العشة ، وهو كوخ يُبنى من سعف النخيل والأغصان والقش .

ج- الصندقة ، وهو بيت من الصفيح ، وهم يشكلون ألواح الصفيح التي يستعملونها في بنائها من البراميل ، وذلك بنزع أغطية البراميل وقيعانها وتسطيح جدرانها .

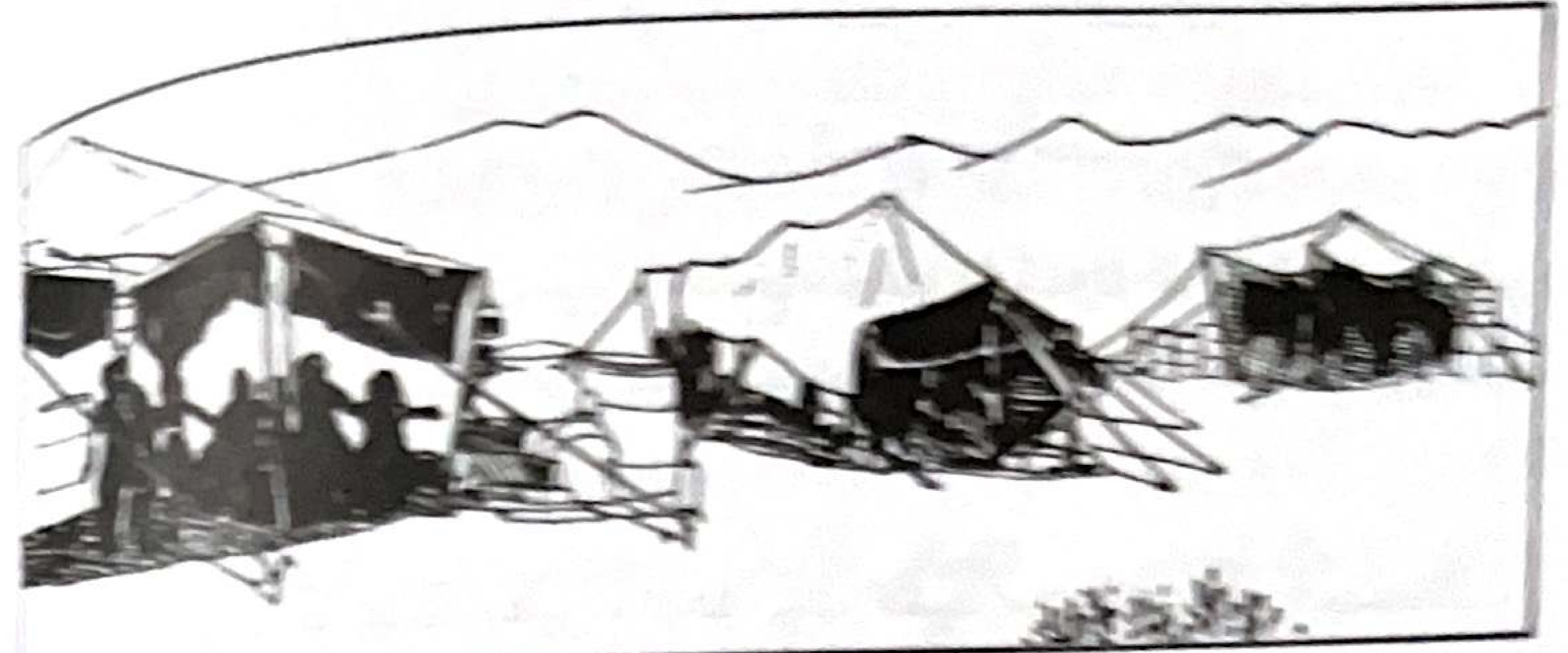
د- المربع ، أو بيت الطين ، وهو بيت مشيد من الطين أو الصلصال ، وبيت الأسمنت ، وهو بيت مشيد من الأسمنت .

ورغم أن المظاهر الخارجية للمساكن قد تختلف وتتباين ، يلاحظ المرء أن التصميم الداخلي لها يظل متشابهاً سواء في الخيمة ، أو في بيوت الطين ، أو بيوت الأسمنت ، (والأكواخ المقامة من سعف النخيل وبيوت الصفيح هي مساكن مؤقتة للعمال الزراعيين الذين يعيشون حياة مزرية وفي ازدحام شديد) . وداخل البيت هو دائماً مقسم إلى قسمين : شطر للرجال ، والشطر الآخر للنساء ، بيد أن البدو يستعملون كذلك الفناء الخارجي للمسكن . فكما أن البدو الرحل غالباً ما يناموا خارج خيامهم على الرمل في ضوء النجوم ، كذلك نجد البدوي المستقر المستوطن غالباً ما ينام في حديقة بيته الرملية ملتحفاً بالسماء ، ولا يعزله عن الآخرين سوى سور بسيط من الطين . وفي المساكن الدائمة ، قد يقام في ركن من حديقة البيت الرملية مرحاض ، ولكن البدو لا يعطون هذا الأمر أهمية كبيرة في تخطيطهم لمساكنهم .

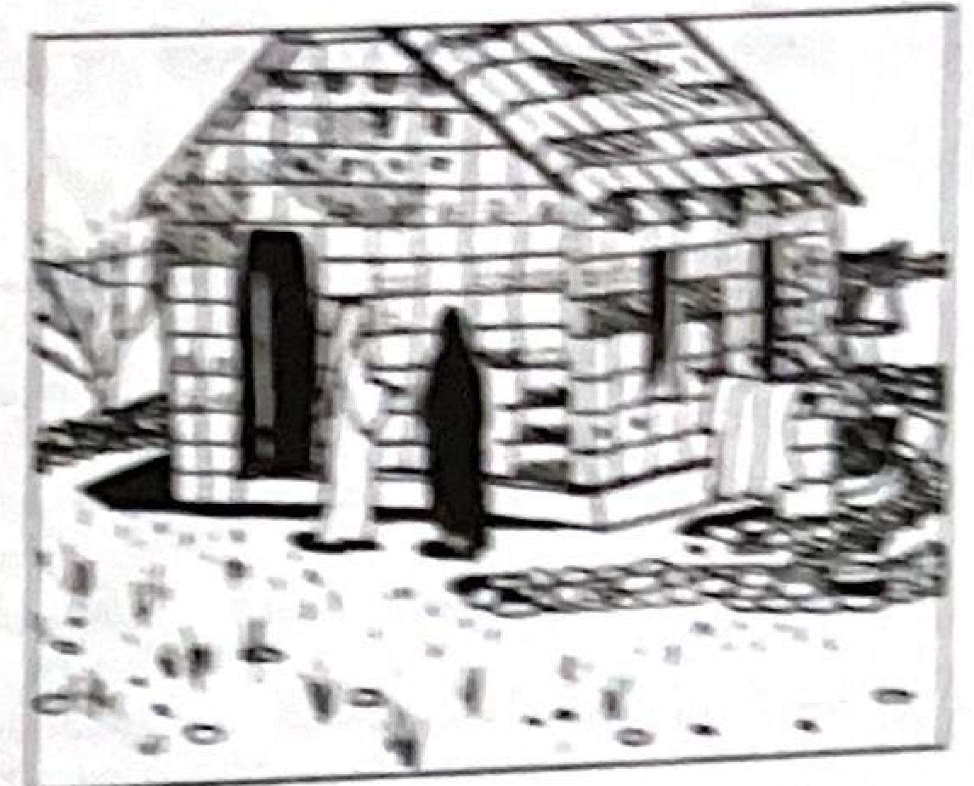
ويبين الشكلان رقم (١٢) ورقم (١٣) مخططاً لأرضية المسكن ، أولهما لأرضية خيمة البدو الرحل ، والثاني لأرضية البيوت الطينية ، أو الأسمنتية التي يسكنها البدو المستوطنون . وفي الخيمة التي يبلغ طولها ، في العادة ، عشرة أمتار وعرضها أربعة أمتار ، تستخدم سجادة للفصل بين ركن الرجال وركن النساء ، بتعليق السجادة في سقف الخيمة مثل الستارة ، وتعلق ستارة أخرى في مؤخرة الخيمة ، بينما يبقون واجهة الخيمة وجانبيها جميعها مفتوحة ، فيما عدا في أوقات الطقس الرديء ، عند هبوب العواصف الرملية وهطول الأمطار وغير ذلك . فلا

الصورة رقم ٩ :

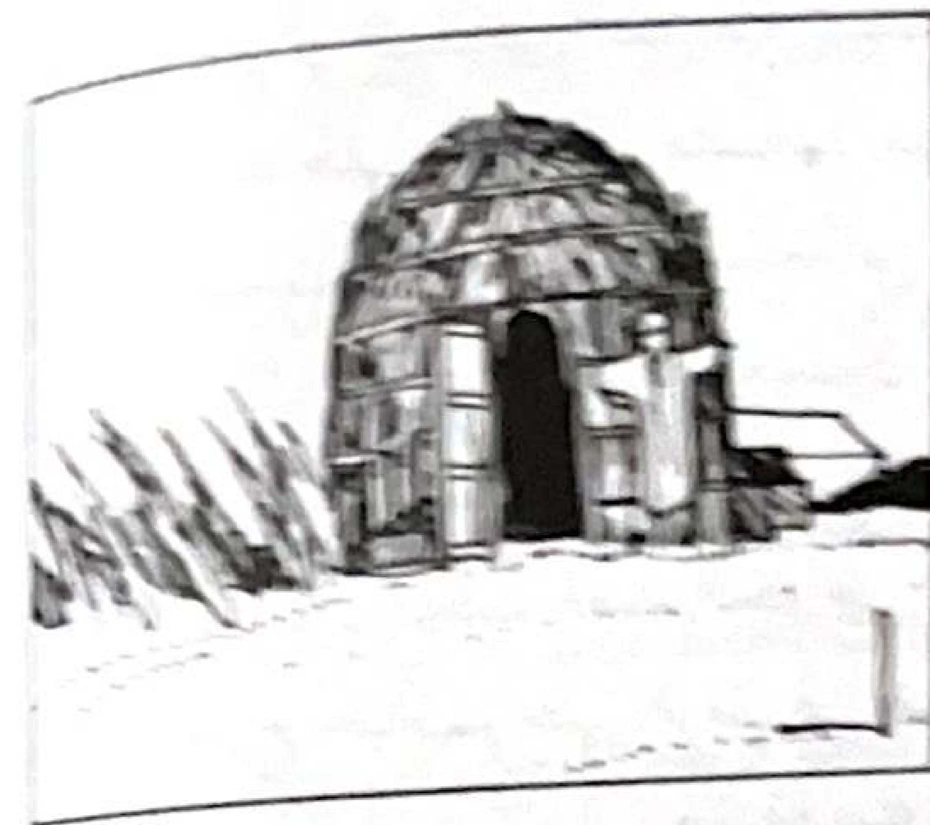
مساكن البدو



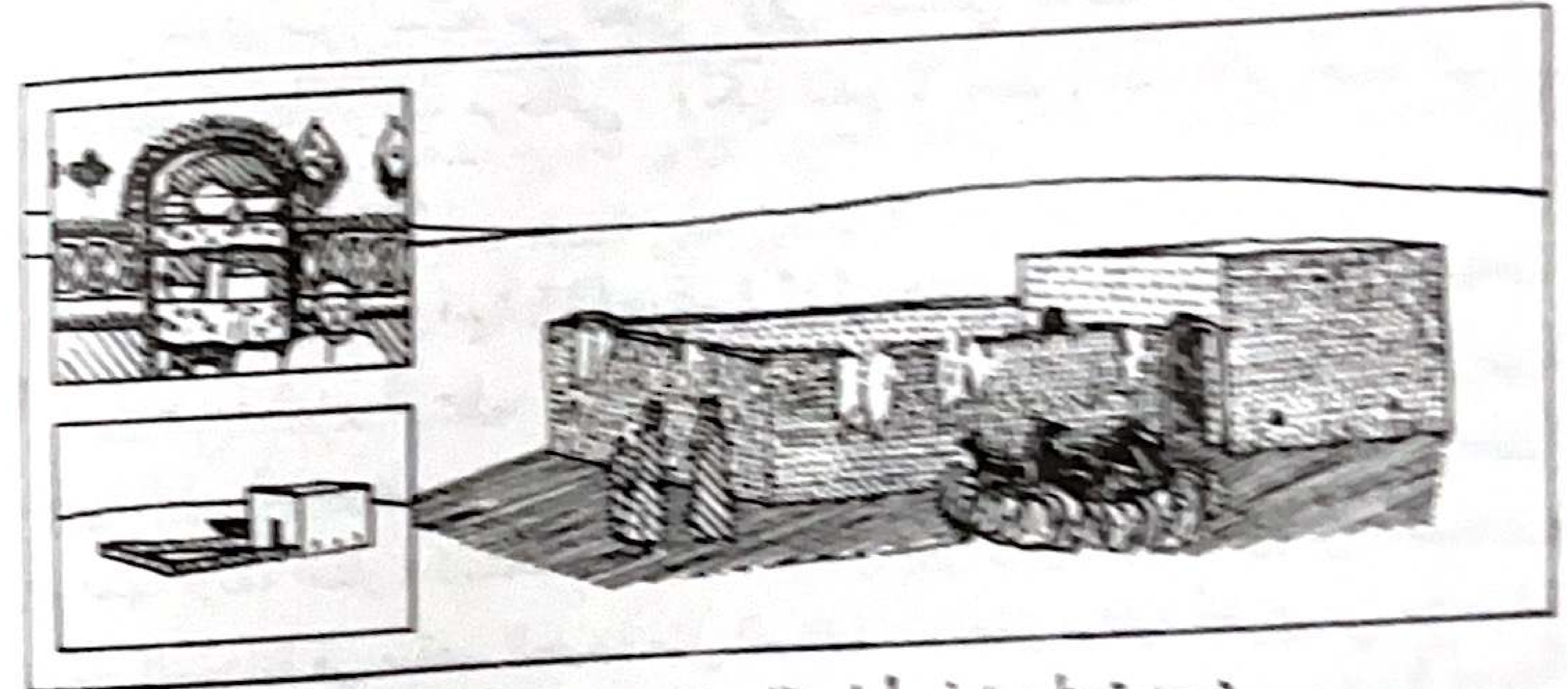
أ - خيمة أو بيت شعر



ب - عشة



ج - صندقة



د - بيت طين ؛ في أعلى اللوحة صورة داخلية للبيت
وفي أسفل اللوحة صورة لمسجد القرية

الصورة رقم ١٠ :

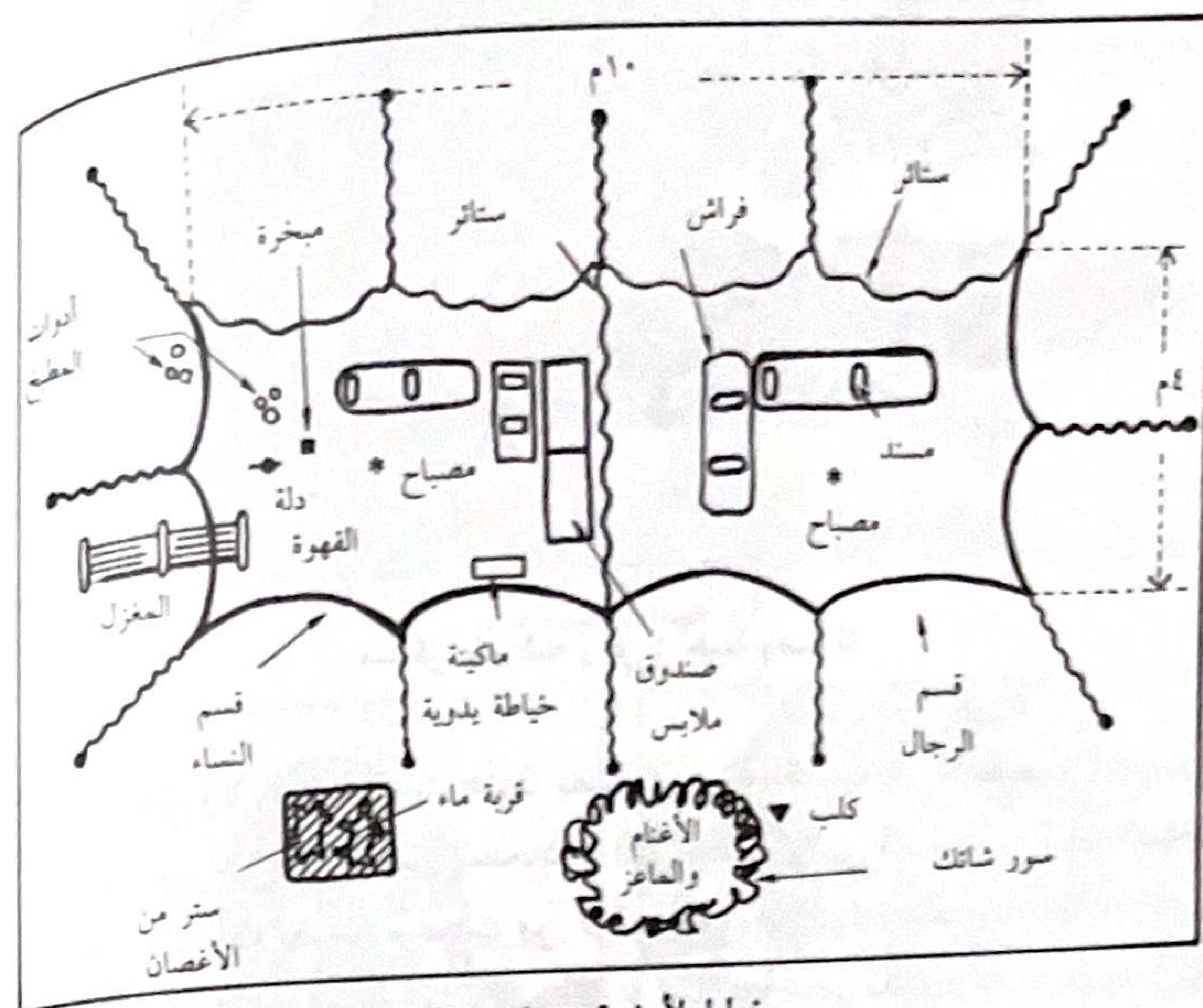


مساكن بدو شبه رحل : خيمة وصندقة

البدو الرحل ولا البدو المستوطنون يضيفون غرفة إضافية إلى التصميم الداخلي لبيوتهم . ويراعى عند تعليق السجادة ، التي تفصل ركني المسكن ، إبقاء فسحة مفتوحة مقدارها بضعة بوصات من فوقها ومن أسفلها وعند جانبيها ، وهذه الفسحات تيسر من تهوية ركني المسكن ، كما أنها تيسر للمرأة مد يدها لمناولة القهوة ، أو غير ذلك من الطلبات ، لركن الرجال . وركنا الرجال والنساء يشتملان على مساند طويلة هي بمثابة مخدات طويلة يستندون إليها عند الاستلقاء والاسترخاء ، وهم يمدون هذه المساند فوق سجادات كبيرة مفروشة على الأرضية الرملية للخيمة . ويشتمل ركن النساء على «دلة قهوة» ، ومحرقة للبخور «ميخرة» ، وأوعية الطبخ والطعام وهي في العادة بسيطة ، وصندوق طويل لحفظ الملابس ، ومغزل للنسج ، وآلة خياطة يدوية . وتنسج النساء بأيديهن القماش اللازم لصنع الخيام والملابس ، كما ينسجن ما يلزمهن من سجاد ، ويبعن أحياناً بعض ما ينسجن من سجاد وأقمشة ، ولذلك فهن يعتبرن ماكينة الخياطة من ضروريات حياتهن . وفي الفناء الخارجي للخيمة ينشئون حظيرة الغنم ، وهي مساحة رملية يحيطونها بسياج من أغصان نبات «السلم» كثير الأشواك ، وكذلك يبنون في الفناء الخارجي للخيمة ، قرب حظيرة الغنم ، «عريشة» من الأغصان يحفظون فيها «قربة الماء» من الحيوانات الداجنة والبرية ، وقربة الماء هي وعاء من جلد الغنم يحفظون فيه الماء . وهم يطبخون طعامهم خارج الخيمة ،

ويتناولون الطعام على صينية مستديرة ينسجونها من أوراق سعف النخيل .

شكل رقم ١٢ :

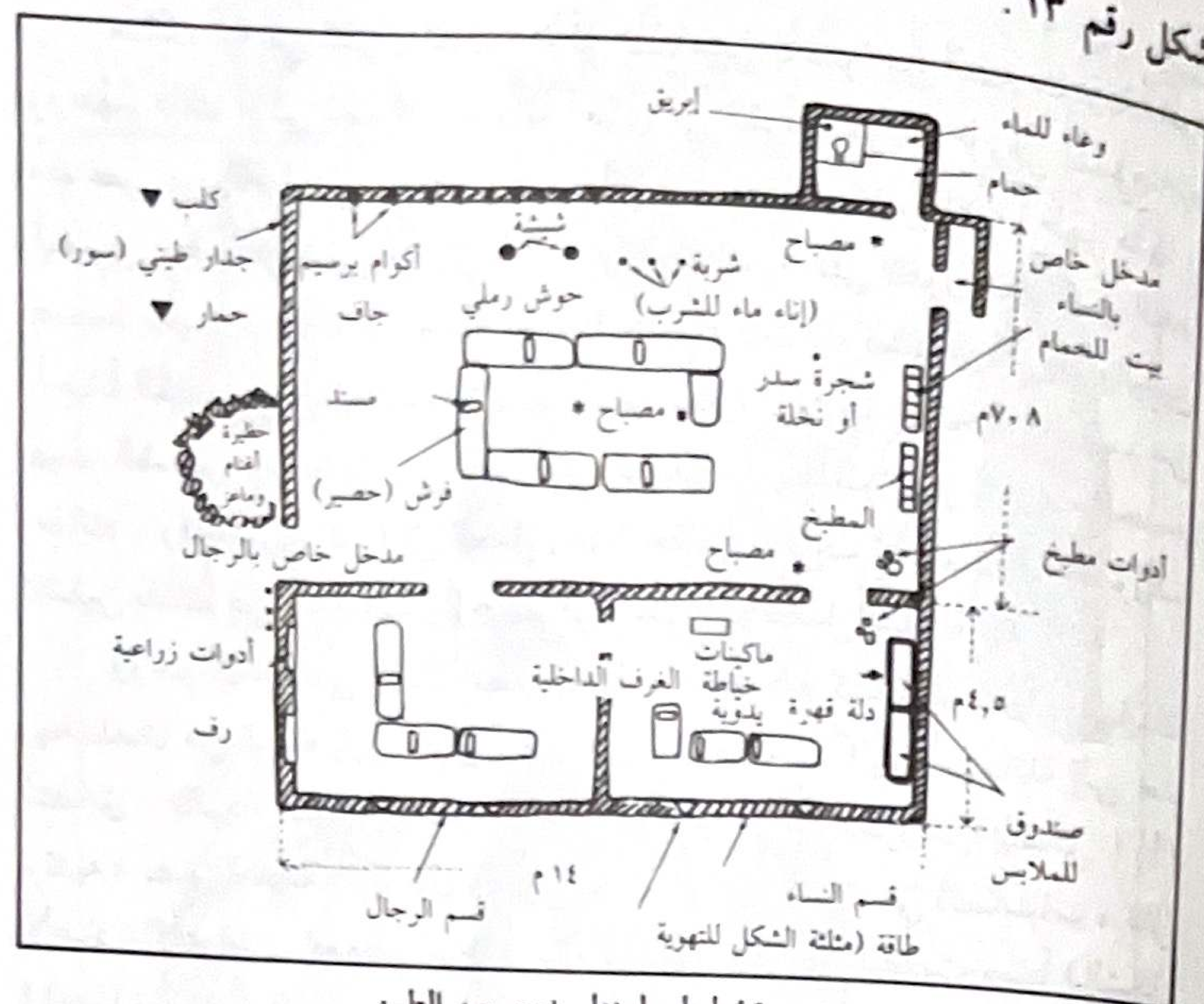


مخطط لأرضية خيمة بدوية

وفي البيوت الطينية والصلصالية ، التقسيم الداخلي لهذه البيوت ومحتوياتها مشابه لما هو عليه في الخيمة ، باستثناء إضافة بعض الرفوف في داخل الجدران ، وتأمين تهوية البيت بواسطة نوافذ مثلثة في الواجهة الشمالية للبيت . فالنوافذ والشبابيك العادية لا تلائم في هذا الجو الحارق صيفاً ، بينما هذه الشبابيك الصغيرة التي يفتحونها في جدار البيت الشمالي على ارتفاع ١٥ إلى ٢٠ سنتيمتراً من سطح الرمل ، تسمح للنسيم بتخلل البيت ، وفي أواسط الصيف يسدون هذه الطاقات بالسجاد ليمنعوا الرياح الساخنة من العبور للبيت .

أما حديقة البيت الرملية (الحظيرة) فيسوّرونها بجدار طيني يتراوح ارتفاعه ، في العادة ، ما بين ١,٤ إلى ١,٧ متر ، وهم يجعلون لهذه الحظيرة مدخلين منفصلين للبيت أحدهما للرجال والآخر للنساء . وهم ينشئون في جانب من حظيرة البيت الرملية هذه ركناً مسقوفاً يستقبلون فيه الضيوف مساءاً . وعند مسامرة الضيوف يفرشون سجادة في وسط الحظيرة ويمدون على السجادة مسنداً لراحة

شكل رقم ١٣ :



رسم تخطيطي لمنزل بدوي من الطين

الضيوف . وغالباً ما يزرعون شجرة نخيل أو شجرة سدر في جانب من الحظيرة فتعطي سكان البيت مكاناً ظليلاً أثناء النهار ، وفي المساء تلقي مصابيح البيت شيئاً من النور على جنبات الحديقة .

وهم يخزنون الماء في أوعية من الفخار يسمونها «زير» ، وهي تستوعب كمية من الماء أكثر من «قربة» الجلد ، كما يحفظون ماء الشرب في أباريق من الفخار يسمونها «شَربة» . وهم يحفظون الطيور والحيوانات داخل الحظيرة وخارجها ، وذلك إزاء جدار الطين الذي يحفظون عليه التبن . وعند البدو الرحل يعتبرون الكلب هو ملك صاحبه وحده ، بينما عند البدو المستقرين المستوطنين يعتبر الكلب هو ملك القرية جمعاء وعموم أهلها . ويبدو أن الكلاب نفسها تدرك هذا التمييز ، فهي تعرف جميع سكان القرية ولا تنبح عليهم ، ولكنها تنبح بشدة ، وبلا انقطاع ، عندما يقترب أحد الغرباء من البيت .

الملابس :

هنالك آية في القرآن تقول: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾[١]، وآية أخرى في القرآن تقول: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[٢]. يلاحظ المرء على الفور أن ملابس البدو مصممة بحيث تكاد تغطي جميع أجزاء الجسم، باستثناء قسم من الوجه واليدين وأحياناً القدمين، كما تتسم ملابسهم بأنها عملية للغاية، إذ تحمي الجسم من لهيب الشمس ووهجها ومن العواصف الرملية، وكذلك تستر عورات الجسم ومفاتنه. وقلما يرى المرء في الحقل رجالاً يعقدون أطراف ثيابهم حول خصورهم كاشفين بذلك عن سراويلهم وأرجلهم كي يتسنى لهم العمل بسهولة أكثر.

ورغم أن ملابس رجال البدو وتصفيف شعرهم كانا، تقليدياً، يتباينان ويختلفان من قبيلة إلى أخرى، فإن هذه قد أصبحت اليوم متماثلة إلى حد التطابق. فالرداء التقليدي للرجال «الردنية» أو الثوب المرودن (الشكل ١٤أ) يرتديه، بصورة عامة، الرجال المسنون، كما يرتديه الشبان في المناسبات، مثل الأعياد والأعراس. فمعظم الرجال اليوم يرتدون «الثوب» الحديث نسبياً (الشكل ١٤جـ)، وبغية الراحة والاسترخاء بدأ كثير من الرجال يرتدون «الفانلة» و«الفوطة» الملونة أو ذات التشكيلات المربعة، وهي تشبه «الوزرة» اليمنية.

والقطع الرئيسية لرداء الرجل البدوي هي الفانلة، والسروال ذو الدكة، والثوب أو الثوب المرودن، والفانلة، التي هي بمثابة القميص التحتي للرجال وهي، في العادة، من القطن، وإن كانوا ينسجونها أحياناً من صوف الخراف. أما السروال فهو أبيض اللون وهو من الملابس التحتية للرجال، ويلبسونه تحت الثوب، وأحياناً يكشفون عنه عندما يكون الرجال منهمكين في العمل في الحقول. ولغرض تثبيت السروال في موضعه يحزم بالدكة، وهي قيطان من القطن تلف حول خاصرة الرجل. أما الثوب الأنيق والردنية التقليدية، اللذان يكونان الرداء الخارجي الكامل، ينسحبان حول الجسم حتى كاحل القدمين. وفي حين أن جميع البدو الرحل يلبسون الفانلة، كقميص تحتي، فإن بعض رجالهم وجميع أطفالهم لا يلبسون السروال لأنهم يشعرون بأنه يعيقهم.

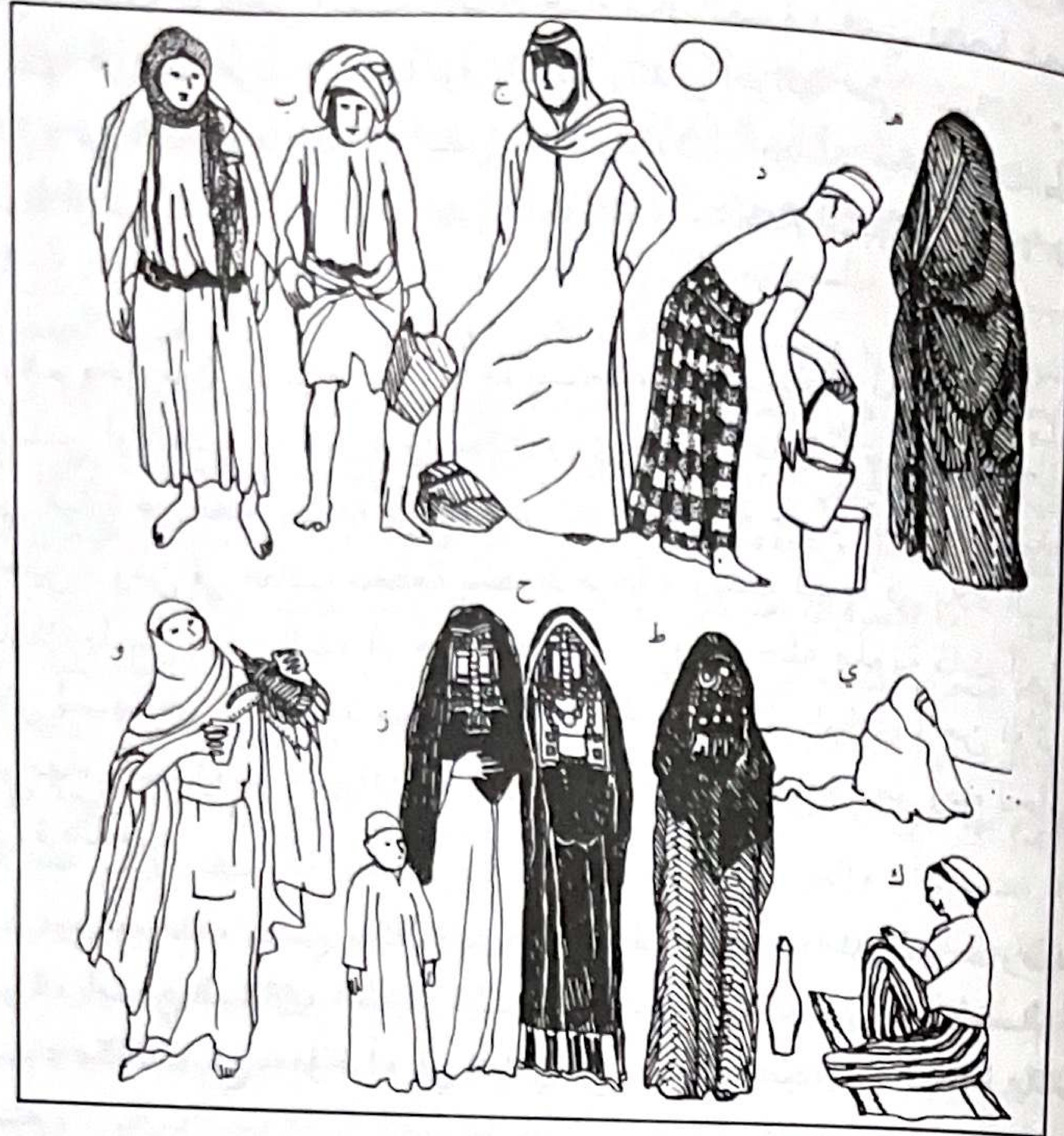
---

(١) سورة النور، الآية٣٠.

(٢) سورة النور، الآية٣١.

شكل رقم ١٤:

الملابس البدوية



أ ـ لباس تقليدي للرجل: الردنية والأحرام

ب ـ ثوب معقود حول الوسط لتمكين العامل من أداء عمله.

ج ـ ثوب يرتدى في العادة مع الأحرام والشطافة.

د ـ فوطة كاروهات يمنية الأصل.

هـ ـ عباءة ترتديها النساء عند مغادرة القرية.

و ـ ثوب امرأة من قبيلة الأشراف.

ز ـ والدة وابنها من قبيلة حرب بوادي فاطمة.

ح ـ امرأة من قبيلة حرب بالشامية.

ط ـ امرأة من قبيلة عتيبة.

ي ـ فتاة صغيرة جاثية في الصمادة.

ك ـ امرأة مسنة في البيت بوادي فاطمة.

ويتضمن لباس الرأس، عند الرجال، الكوفية، والأحرام، أو الغترة والشَّطَافَة. والكوفية هي طاقية صغيرة يلبسونها دائماً على رؤوسهم حتى وهم داخل الخيمة أو داخل البيت. أما الأحرام، أو الغترة، فهي قطعة قماش مساحتها ١,٥ متر مربع يلبسونها فوق الطاقية وتتدلى أطرافها حتى الصدر، وهي تصنع، في العادة، من قماش أبيض اللون وتكون، أحياناً، مخططة بخطوط حمراء أو سوداء. أما الشطافة فهي «العقال» وتستخدم لتثبيت الغترة على الرأس.

وهم يحتزمون بالحزام، وغالباً ما يستخدمونه كمحفظة للنقود وكحامل للمسدس أو الخنجر. والمزيد من سكان وادي فاطمة أخذوا يرتدون «الفوطة»، وهي عبارة عن قطعة مربعة من القماش تلف بسهولة حول الخاصرة وتغطي الرجلين، وهي في الغالب مخططة بخطوط مربعة، ويشيع لبسها في بلاد اليمن. وكذلك يلبس بعض البدو الرحل «الصدرية»، وهي حلة ملونة ذات أزرار، ولكن لبسها غير شائع عند سكان وادي فاطمة. أما زوار الوادي، من الأثرياء والوجهاء والمسؤولين، فيرتدون، خارج البيوت، «المشلح» وهو رداء بحاشية مطرزة بالذهب.

وبوجه عام، يمشي سكان وادي فاطمة حفاة القدمين داخل البيوت وضمن القرية، أما في المشاوير الطويلة فيلبسون صنادل مصنوعة من جلد الجمال أو الغنم، وكذلك راج، مؤخراً، في الوادي لبس صنادل خفيفة من المطاط يابانية الصنع.

وفي الغالب، تشتمل ملابس النساء على سمات معينة تميز ملابس نساء تلك العشيرة اللواتي ينتمين إليها. وأزياء النساء، عند البدو، لها تقاليد عريقة، وإن كان قد يخيل للمرء، للوهلة الأولى، بأن هذه الأزياء لم يطرأ عليها أي تغيير، أو أي ابتكار، أو تبديل منذ العصور الخوالي. ولكن النساء المسنات في الوادي أخبرنني بأن قدراً غير ضئيل من التغيير قد طرأ على أزياء ملابس النساء خلال القرون الماضية. إذ يبدو أن أزياء نساء بعض العشائر والقبائل تتأثر، في بعض الأحيان، بأزياء نساء بعض القبائل والعشائر الأخرى. فمثلاً، رغم أن أزياء ملابس نساء قرية البشور مستمدة من منطقة الشامية، وهي قرية تقع على بعد ٧٥ كيلومتراً إلى الشمال من وادي فاطمة، فإن أزياءهن قد اقتبست بعض

السمات التي تتسم بها أزياء نساء القبائل المستوطنة في وادي فاطمة، والتي استقر البشور بين ظهرانيهم. (انظر الشكل رقم ١٤، وقارن بين الأزياء ف، ج، هـ).

وبوجه عام تتضمن الأجزاء الأساسية لملابس المرأة البدوية (الشكل ١٤ ف) الصدرية والسروال ذا الدكة والثوب أو الفسطان. والصدرية هي سترة مثل القميص منسوجة من صوف الخراف او الحرير او القطن، وغالباً ما تشتمل على تزيينات بارعة بالتخريم بالإبرة، كما أنها محلاّة بصف من الأزرار الذهبية يسمونها «زِرّة»، ويتسنى فك هذه الأزرار ووضعها جانباً عند غسل الصدرية. وهذه الصدرية هي دائماً بيضاء اللون، وترتديها جميع النساء دون أن يلبسن تحتها حاملة الثديين، وهي رداء عملي جداً، إذ أنها تمتص العرق، وهي قليلة الكلفة، وتغسل وتجفف بسهولة، ويمكن فتحها وإرخاؤها بيسر عند إرضاع الطفل. أما السروال الأبيض - وأحياناً مخطط بالمربعات - والذي تلبسه جميع النساء فيحزم لتثبيته في موضعه بواسطة «الدكة»، وهي قيطان بيضاء تشد حول الوسط. بيد أن الدكة، التي يحتزم بها سروال النساء، تختلف عن الدكة التي يحتزم بها سروال الرجال، من حيث أنه يتدلى منها مئزر، أي مريلة رفيعة طولها ٦٠ سنتيمتراً، والغرض منها الزينة وربط السروال حول الوسط. ويتم عقد هذه الدكة وشدها بإحكام، فإن غفلت المرأة عن ذلك وأبقت الدكة مرخية فيكون ذلك كناية على أن المرأة غير محافظة. أما الثوب فلا ترتديه سوى النساء المتزوجات، وهو رداء طويل واسع يمتد حتى كاحل القدمين، وله أكمام طويلة بطول الذراعين وواسعة جداً بحيث أن أطرافها يمكن أن تلامس الأرض. ويشتمل الثوب على ألوان كثيرة متباينة، ويزين أحياناً، بتطريز جميل من الزهور أو أشجار النخيل. أما الفتاة غير المتزوجة فتلبس الفسطان، وهو رداء طويل يكون أحياناً بسيطاً خالياً من التطريز وأحياناً أخرى موشى بالتطريز.

وبصورة عامة، تجدل النساء شعرهن الطويل، غير المقصوص، بشريط من صوف الخراف، فيجدلن حول هذا الشريط جدائل شعر الرأس ثم يثبتن هذه الجدائل على هيئة دائرة في قمة رؤوسهن. وهن يدعين هذا الشعر المجدول على هذه الهيئة مَحَرْمَة، والغرض من جدل هذه المحرمة وتصفيفها على هذه الصورة هو للمساعدة في تثبيت المُدَوَّرَة في مكانها. والمدورة هي غطاء للرأس يتكون من قطعة من القماش طولها حوالي ٢,٤ متر وعرضها ١,٢ متر، وهي تتدلى

خلف الرأس من الكتف الأيسر إلى الكتف الأيمن ، ثم تسحب أمام الجزء السفلي من الوجه ، ومن على الكتف الأيسر وحول الظهر لتثبت وتعقد على الجانب الأيمن . والقماش الذي يستخدم في صنع المدورة يشبه نسيج صوف الخراف ، ولكنه خفيف للغاية وناعم الملمس . ويجوز للمرأة المتزوجة أن ترخي شعرها في بعض المناسبات ، ولكنها تلبس المدورة دائماً عندما تكون خارج منزلها ، أما الفتاة غير المتزوجة فلا يجوز لها أن تكشف عن شعرها . و«الشُّرْشف» هو منديل خارجي للرأس مصنوع من نسيج صوف الخراف أو من الحرير ، ولا تلبسه سوى النساء المتزوجات . وأما «الصَّمادة» فهي رداء الرأس للفتيات غير المتزوجات ، ويبدأن في لبسها بعد بلوغهن سن الثالثة عشر ، وهي تشبه «المدورة» وإن كانت أطول منها بكثير ولكنها ليست أعرض منها . وعندما تُلف الصمادة حول جسم الفتاة تبدو منتفخة ويظل يتدلى منها ذيل من القماش ينسحب على الأرض خلف الفتاة (انظر الشكل ١٤ ج) . أما «البُرْقُع» فهو حجاب ملون موشّى بالزخارف ترتديه نساء بعض القبائل ، ولا سيما نساء قبيلتي حرب وعتيبة . وفي بعض الأحيان يزينون البرقع بالقطع النقدية ، والقطع المعدنية وبعض قطع القماش ، ومثل هذا الحجاب يغطي الوجه بصورة كاملة فلا فتحات فيه سوى خرقين للعينين لتيسير الرؤية .

وتحتفظ النساء البدويات بمدخراتهن من الذهب معهن طول الوقت . وتشمل حليهن الذهبية ، علاوة على «الزُّرَّة» الذهبية أربع أو خمس أساور ذهبية ، وأحياناً عشر أساور إلى عشرين أسورة ذهبية على كل ذراع . وبعضهن يزين أسنانهن بالذهب ، ويجعلن الحشوات الذهبية في مقدمة الفم بحيث يراها الآخرون (بعض النساء لم يستطعن أن يفهمن ، بعد أن عدت من زيارة لطبيب الأسنان ، لماذا جعلت حشوة الذهب في مؤخرة فمي) . وكذلك تتزين بعض النساء ، أحياناً ، بعقود وخلاخل لها رنين مميز عندما تنهمك النساء في الرقص ، وغالباً ما تزين الخلاخل بأشكال هندسية أخاذة .

والملابس الزاهية المزركشة للنساء البدويات ، بوجه خاص ، تتباين بصورة أخاذة مع مناظر الصحراء المجدبة التي يعشن فيها . فهذه الملابس بألوانها الزاهية المتألقة من حمراء ، وبرتقالية وزرقاء ، وخضراء ، وأرجوانية ، وبيضاء ، وصفراء ، تتآزر في خلق انطباعات بهية ولا سيما عندما يجتمع حشد النساء لإحياء أحد الاحتفالات .

الفصل السادس

المناسبات الاجتماعية

لقد قيل أن الزواج في العالم الإسلامي يخضع تماماً لقرار الوالدين ، وأن عروس وعريس المستقبل لا يلتقيان بأحدهما الآخر حتى يحل يوم الزفاف . عندما سألت أهل وادي فاطمة عن أعراف الزواج الخاصة بهم ، كانت أجوبتهم متفقة مع هذا القول ، إلا أنه بعد قضائي فترة زمنية بين البدو ، اتضح لي أن طبيعة الخطوبة مختلفة بعض الشيء عما هو شائع .

الخطوبة :

قبل فترة طويلة من زواج الشاب ، أو الشابة ، في وادي فاطمة ، تتوفر له ، أو لها ، المعرفة بجميع أبناء الأعمام والشبان من أبناء وبنات الأسر المجاورة ، ويستطيع ، أو تستطيع ، التعرف عليهم حتى من على بعد . وحتى بلوغ الفتيات سن السابعة أو الثامنة ، عندما يبدأن بارتداء الحجاب والبرقع المتعارف عليهما ، يلعب الأطفال مع بعضهم في الصحراء في غالب الأحيان . وحتى الصبيان والفتيات الأكبر سناً ، الذين لا يلعبون سوية ، يلتقي بعضهم بالآخر عند الآبار مثلاً حيث يقومون ، كجزء من واجباتهم اليومية ، بضخ المياه والعودة بها إلى منازلهم .

تنص التقاليد العربية على أن أفضل شريك في الحياة الزوجية هو ابن أو بنت العم . أما الأقرباء الآخرون ، الذين يرتبطون بالشخص بصلة الدم ، فإن التفضيل يكون على النحو التالي :

(١) بنت العم أو ابن العم

(٢) بنت الخال أو ابن الخال

(٣) بنت العمة أو ابن العمة

(٤) بنت الخالة أو ابن الخالة .

خلال فترة طويلة تسبق الزواج ، يقوم الشاب ، أو الشابة ، بتقييم أفضلية اختيار أبناء أو بنات الأعمام ، أو الأخوال ، أو العمات ، أو الخالات شركاء في الزواج ، إلا أنه يُعتبر عيباً على الشاب ، أو الشابة ، النظر إلى أشخاص من الجنس المقابل المقاربين له ، أو لها ، في السن ، ويتظاهر الشباب والشابات بعدم رؤية أحدهما الآخر . وقد يشيح كلاهما وجهه ، أو وجهها ، عن الآخر عندما يمران بالقرب من أحدهما الآخر . وتجلس الشابات القرفصاء أحياناً على جانب الطريق محاولات إخفاء أنفسهن برداء الضَمَادة الطويل الذي يرتدينه عن الشباب القادمين نحوهن . وتستطيع الشابات الرؤية بوضوح من خلال حجابهن المسدل ، ويبدو أنهن يلاحظن نشاطات الجنس المقابل أكثر من ملاحظة الرجال لنشاطاتهن .

خلال إقامتي مع زوجي في المملكة العربية السعودية ، دعينا غالباً للتمتع بضيافة البدو في منازلهم ، حيث كان من بين الحاضرين الشابات غير المتزوجات . إلا أن العُرْف كان يقضي بفصل زوجي عني ، حيث كان يؤخذ إلى غرفة الرجال ، بينما أذهب أنا إلى غرفة النساء ليتناول كل منا طعامه ويجري أحاديثه منفصلاً عن الآخر . لقد أصابتني الدهشة عندما اكتشفت أنه على الرغم من أن زوجي لم يقابل إطلاقاً شابة غير متزوجة طوال فترة إقامتنا في المملكة العربية السعودية ، فإن جميع صديقاتي كن مطلعات تماماً على سلوكه وطبيعته ، فقد كن يسألنني غالباً عن «الرجل الياباني» وكان باستطاعتهن وصفه وصفاً دقيقاً .

عندما يرغب الشاب في الزواج يذهب والده (أو والدته أو الشاب نفسه أحياناً) إلى والدَيْ الشابة المرغوبة ويطلب يدها منهما . والمتعارف عليه أن يقول والد الفتاة : «هل لك أن تنتظر بعض الوقت رجاء؟» ، ويقوم والدا الفتاة عادة بالرد على الطلب خلال أسبوع أو نحوه . وعلى الرغم من أن الناس يقولون أنه لا ينبغي على الوالدين استشارة ابنتهما حول رغبتها ، فإن الأم والابنة تفلحان دائماً في مناقشة الموضوع ، وبصورة عامة تلقى مشاعر الفتاة احتراماً في الواقع العملي .

وعلى الرغم من أن رد الوالدين يكون بالإيجاب عادة ، إلا أنني شهدت ، خلال قيامي بأبحاثي في وادي فاطمة ، رفض طلبين من مجموع ستة طلبات للزواج . وكانت إحدى هاتين الحالتين تتعلقان بفتاة كانت قد فقدت أمها وعاشت مع أبيها لزمن طويل . فقد فضلت الاستمرار في مساعدته ورعاية أطفال شقيقتها الأكبر سناً بدلاً من الزواج بابن عم قبيح الشكل كان قد طلب يدها (كان عمرها في ذلك الحين ثلاثة وثلاثين عاماً تقريباً) .

أما الحالة الثانية فكانت تتعلق بقصة حب نشأت منذ الطفولة . فعندما تقدم ابن عم إحدى الفتيات لطلب يدها ، حزنت الفتاة حزناً شديداً لأنها كانت تبادل ابن عم آخر مشاعر الحب منذ الصغر ، إلا أن هذا الشاب كان ابن خالها ولهذا اعتبر أقل شأناً من ابن العم . فتضرعت الفتاة إلى أبيها قائلة : «أرجوك أن ترفض طلب الزواج ! إطلب على الأقل من والدي ابن عمي الانتظار بعض الوقت ، لأنني لا أزال حزينة على وفاة شقيقتي الصغرى التي سقطت في البئر» ، وكان حادث سقوط الشقيقة الصغرى قد وقع فعلاً قبل عامين من ذلك التاريخ . ويقدم دائماً مثل هذا العذر بغية التخفيف من حدة الرد بالنفي على طلب بالزواج . وكررت الفتاة هذا العذر مرات عديدة حتى قام ابن عمها أخيراً بالزواج من بنت خاله بدلاً عنها . ثم تقدم بعد ذلك ابن عم للفتاة كان يعمل في محل بقالة بجدة ، وكانت الفتاة تفضله سراً طوال ذلك الوقت ، لطلب يدها ، وسرعان ما تلقى رداً بالإيجاب من أبيها .

إن أهم جانب في الخطبة هو المَهْر ، أو المال الذي تدفعه أسرة العريس إلى أسرة العروس . وبعد الاتفاق على الزواج ، تجري مناقشة المهر . وتنص الشريعة الإسلامية أن يقوم الخاطب بدفع مهر إلى خطيبته ، غير أنه لا يتوجب على أسرة العروس دفع أي مهر . وفي منطقة ريفية مثل وادي فاطمة ، يكون مبلغ المهر مماثلاً ، في جميع الحالات تقريباً ، ويجري تحديده كإجراء شكلي . غير أن هناك أحياناً تعقيدات بهذا الشأن . فعندما طلبت أرملة عجوز جشعة بعض الشيء أكثر من المبلغ المتعارف عليه مقابل يد ابنتها ، كاد الخاطب أن يسحب طلبه ، غير أن الابن الأكبر للأرملة ، الذي كان سائق شاحنة ومتزوجاً وميسور الحال نسبياً ، شجع الخاطب على الموافقة على المبلغ المطلوب وساعده في دفع المبلغ الإضافي .

عند عقد المِلْكَة[1] (عقد القِرَان) يلتقي والدا عروس وعريس المستقبل في بيت الإمام (إمام المسجد) يرافقهما شاهدان من الذكور من كلتا الأسرتين. ويظهر على الورقة (ورقة العقد) اسما العريس والعروس وتاريخ المناسبة ومبلغ المهر، وتعطى نسخة واحدة من الوثيقة لعريس المستقبل.

إن هذه المِلْكَة هي في الحقيقة أكثر أهمية من مراسيم الزفاف الفعلية. ففي بعض المدن يؤذن رسمياً بإتمام الزواج حالما يتم عقد القران، إلا أن الحال مختلف في وادي فاطمة، إذ يظل العريس والعروسة منفصلين عن بعضهما حتى انتهاء مراسم الزفاف.

يُقسم المَهْر إلى مبلغين، المهر المقدم الذي يدفع للعروس عند الخطوبة، والمهر المؤخر الذي توعد به الزوجة في حالة الطلاق، وفي حالة وفاة الزوج، يحسم هذا المبلغ من عقاره.

يختلف مبلغ المهر من مكان لآخر ومن حالة لأخرى. ففي مجتمع صغير مثل قرية البشور، حيث يرتبط الناس بصلات القرابة الوثيقة، ويعرفون بعضهم الآخر معرفة جيدة، يكون مبلغ المهر محدداً ومنخفضاً نسبياً وهو ٥٠٠ ريال (١١١ دولاراً أمريكياً)، إلا أنه إذا كان العريس لا يزيد عن كونه قريباً بعيد الصلة، وكان والد الفتاة في شك من إمكانية التعويل عليه، فقد يُطلب مهر أعلى من المعتاد. وتقوم أسرتان أحياناً بترتيب تبادل للبنات عن طريق الزواج. فعلى سبيل المثال، قد تقوم بنت إحدى الأسرتين بالزواج من ابن الأسرة الأخرى، بينما تقوم بنت الأسرة الثانية بالزواج من ابن الأولى، وفي هذه الحالة تنخفض قيمة المهر.

يبلغ معدل المهر في بعض قرى وادي فاطمة ٥٠٠ ريال. وفي دف زيني، فإن المهر الاعتيادي هو ٧٠٠ ريال، يدفع منه الثلثان عند الخطوبة ويحدد الثلث المتبقى كمهر مؤخر. وقام أثرياء معدودون في دف زيني من المتأثرين بعادة تقديم مهر أعلى في المدن، بإعطاء مهر قدره ٣٠٠٠ ريال (٦٦٧ دولاراً أمريكياً)، أو أكثر، مقابل خطوبة أبنائهم. وإحدى دفعات المهر العالية جاءت

(١) عقد القِران أو عقد الكتاب وتعني الرباط بين الزوجين ولها تسميات شعبية عدة في بلدان إسلامية أخرى.

من شيخ ثري يملك الكثير من الأراضي كان ابنه قد عمل معلماً في مكة لزمن طويل. وكانت أم الفتاة، التي طلب ابن الشيخ الزواج منها، لا تريد لابنتها الانتقال إلى مكة، بل الاستقرار بالقرب منها، كما هو متعارف عليه. ولهذا السبب، فقد طلبت مهراً قدره ٦٠٠٠ ريال يقسم إلى مهر مقدم قدره ٢٥٠٠ ريال ومهر مؤخر قدره ٣٥٠٠ ريال. وأخيراً وافق الخاطب على أن يقيم عاماً واحداً مع زوجته الجديدة قرب مسكن أمها قبل الانتقال إلى مكة، كما وافق أيضاً على دفع المهر المطلوب.

في قرية أبو عُروة، يتوجب على طالب يد المرأة دفع مبلغ يسمى «الجارِيَة» بالإضافة إلى المهر الاعتيادي. وهذا مستمد من تقليد قديم كان يفرض على العريس تقديم خادمة لعروسه لكي تلبي حاجاتها. ولأن حكومة المملكة العربية السعودية ألغت الرق في عام ١٩٦٦م، فإن على الخاطب أن يدفع الآن مبلغاً إضافياً قدره ١٠٠ ريال تقريباً، إلا أن المهر الأساسي في أبو عُروة هو منخفض جداً (لا يزيد إطلاقاً على ٣٠٠ ريال) بسبب وجود الثقة بين الناس، وبسبب مشاعر الفخر بالقبيلة التي يحملها الناس باعتبارهم أحفاد الرسول محمد ﷺ مباشرة.

لا يهتم البدو، بصورة عامة، بعمر الشخصين الراغبين في الزواج. وكان العديد منهم يجهل حتى عمره الحقيقي عندما أصبح لزاماً على الآباء والامهات، في عام ١٩٦٤م، تسجيل أطفالهم لغرض إدخالهم في المدارس. وكشفت بحوثي في قرى وادي فاطمة عن إحصاءات متباينة لمجموعات سكنية مختلفة فيما يتعلق بالعمر المتوسط للزواج. ففي قرية البشور كان متوسط عمر الفتيات المتزوجات أربعة عشر عاماً وسبعة عشر عاماً للفتيان، أما في قرية دف زيني فقد كان هذا العمر عشرين عاماً للأولاد والبنات على حد سواء، وفي قرية أبو عروة كان العمر المتوسط للزواج ثمانية عشر عاماً للأولاد والفتيات على حد سواء، وفي قرية عين شمس كان هذا العمر خمسة عشر عاماً للفتيات وثمانية عشر عاماً للصبيان.

أثناء قيامي بجمع هذه المعلومات، لاحظت أنه كلما زادت عراقة التقاليد البدوية، التي تتسم بها المجموعة السكانية، كلما صغر عمر الأشخاص الراغبين في الزواج. أما في المجموعات البشرية المستقرة، فإن متوسط العمر المناسب

للزواج هو أعلى من ذلك بصورة عامة. وتقع المجتمعات شبه البدوية، أو المستقرة حديثاً، ما بين المجموعتين السابقتين. وفي قرى، مثل أبو عروة ودف زيني، حيث للنساء نفوذ قوي في بعض القضايا مثل الزواج، وحيث تستقر الابنة المتزوجة غالباً قرب مسكن والديها (وليس قرب مسكن والدي زوجها)، فإن عمر الزواج هناك هو أعلى من متوسط عمر الزواج في جميع أنحاء المنطقة.

لا يعير الناس اهتماماً خاصاً لأي فارق في العمر بين الزوج والزوجة، إذ يمكن غالباً مشاهدة زوجات يكبرن أزواجهن الشبان، فهناك امرأة في دف زيني تكبر زوجها بعشرين عاماً. إن صلة الدم بين شخصين متزوجين هي أكثر أهمية من تقارب العمر.

يقع موسم الزفاف، في وادي فاطمة، في أواخر الصيف ومطلع الخريف، ولا سيما في سبتمبر وأكتوبر. ويعود أحد أسباب ذلك إلى أنه بعد إكمال حصاد الخربز (وهو نوع من البطيخ الحلو المذاق) والتمر، يتوفر المال اللازم للمهر، هذا بالإضافة إلى أن ليالي هذا الفصل هي ألطف من ليالي الصيف الحار، وهي أطول ليالي العام. كما أن المدارس تغلق أبوابها خلال عطلة الصيف حتى أكتوبر، ولذلك يقضي الطلاب والمعلمون أوقاتهم في البيوت للمشاركة في الاحتفالات وتقديم يد العون في إعداد مراسيم الزفاف.

صورة رقم ١١:



مسكن بدو مستقرين: بناء بيت من الآجر كمسكن دائم لعروسين

يقرر العديد من الرجال والنساء إجراء مراسيم الزواج قبل حلول شهر

رمضان (وهو الشهر التاسع في التقويم الإسلامي) بفترة وجيزة. ورغم أن الزواج غير مرغوب فيه في شهر الصيام، إلا أن أيام عيد الفطر السعيد سرعان ما تعقب ذلك، وقد يتطلع الرجل والمرأة المتزوجان حديثاً إلى الاستمتاع بالعيد سوية.

الاحتفالات التي تسبق الزفاف:

تحتفل أسرة الفتاة المقبلة على الزواج بـ «قطع الستارة»، ويجري هذا عادة في اليوم الذي يعقب يوم الخطوبة، أو خلال أسبوع من إعداد المِلْكة. وتعد أم الفتاة، لهذه المناسبة، قطعة قماش كبيرة، تكاد تكون دائماً حمراء اللون ومطرزة بأشكال الزهور أحياناً. وفي يوم ما، ودون سابق إنذار، تطلب الأم من ابنتها، بطريقة عفوية تماماً، مناولتها قدراً أو شيئاً آخر يقع خلفها، وعندما تدير الابنة ظهرها، ترمي الأم قطعة القماش الحمراء، التي كانت قد أخفتها خلفها، على رأس ابنتها. وتبدأ الابنة بالصراخ والعويل، وهذا يعتبر إعلاناً للزواج المقبل للفتاة نفسها ولأبناء القرية ككل، على الرغم من أن الفتاة، وجميع صديقاتها، على علم مسبق بالأمر. ومن المهم أن تصرخ الفتاة عندما تُرمى قطعة القماش عليها، فإذا لم تفعل ذلك، فإن ذلك سيعتبر دليلاً على انعدام الحياء وعلى لهفتها على الزواج. وفي إحدى المرات شاهدت فتاة تعض أصابع أمها صارخة «لا، لا!» عندما رُميت قطعة القماش الحمراء على رأسها.

وأثناء صراعها مع ابنتها، تطلق الأم غَطْرَفة (صوت عالي النبرة يصدر بتحريك اللسان بسرعة)[١]، وهذا هو تعبير شائع عن الفرح بين النساء العربيات (وبعض النساء الأفريقيات). وتأتي الحريم[٢] (النساء المتزوجات) إلى المنزل ليستمتعن بمنظر صراع الأم مع ابنتها التي تتظاهر بالدهشة عند سماعها خبر اقتراب موعد الزواج. وتقوم الحريم بمساعدة الأم على تعليق قطعة القماش الحمراء، التي كانت قد رمتها على رأس ابنتها، في ركن غرفة الضيوف بمنزل العروس، وتقوم الفتاة بعزل نفسها خلف هذه الستارة الحمراء. وبعد تعليق

---

(١) الأصوات الصادرة عن تحريك اللسان تسمى **زغاريد** في مصر وفي بلدان أخرى من أفريقيا الشمالية.

(٢) المعنى الأصلي للكلمة العربية **حُرمة** (بصيغة المفرد: المرأة المتزوجة) **والحريم** (بصيغة الجمع: النساء المتزوجات) تعني: «المحظور»، «المصون» الذي لا يُنتهك.

الستارة لا تعود الحريم إطلاقاً إلى دخول الغرفة ، لأنه يعتقد أن دخولهن قد يضر بالفتاة المقبلة على الزواج من ناحية القيل والقال الذي يرافق الزواج والحياة الزوجية .

وبدلاً من ذلك ، تقوم فتيات الأسرة غير المتزوجات بزيارة الفتاة القابعة خلف الستارة ، ويجلبن لها الطعام ويتحدثن معها ، وأحياناً ينمن معها ، وحتى عندما تذهب الفتاة إلى الحمام ملفوفة بشرشف ، ترافقها إليه اثنتان أو ثلاثة من زميلاتها . ويعتقد أنه ينبغي عليها ألا تعمل أو تعرض نفسها للشمس خلال فترة الخطوبة هذه ، بل يتوجب عليها أن ترتاح استعداداً ليوم زفافها ، وينبغي أن تظل بشرتها جميلة لا تتلفها أشعة الشمس ، رغم أنها ستستخدم مستحضرات التجميل بعد ذلك . وتستمر فترة العزل ، أو الخطوبة هذه ، أسبوعاً واحداً ، ولو أن أم عروس المستقبل تقرر أحياناً تمديد هذه الفترة إلى أسبوعين أو أكثر .

وفي اليوم الذي يعقب قطع الستارة ، تقام دالة الضيف (حفلة للضيوف) لكبار السن في القرية . وتقوم أسرة العريس بطبخ عدة خرفان أو ماعز مع الأرز والسمن والسكر ، وتعد أسرة الفتاة الشاي والقهوة . وخلال الوليمة ، التي تقام في منزل والدي العروس ، يقوم الضيوف بتقديم التهاني إلى والدي العريس والعروس .

وقبل الزفاف بيومين ، تقيم والدة العروس حفلة أخرى يطلق عليها اسم «هَذو» ، ويقتصر ضيوف هذه الحفلة على النساء المتزوجات ، وتقدم فيها مشروبات مثل الشاي والقهوة ، بالإضافة إلى الحلوى المصنوعة من مسحوق الأرز ودقيق الذرة ، وتقضي جميع الحريم أمسية في المنزل يغنين خلالها بفرح ويرقصن مع أصوات خلاخيلهن .

وفي ظهيرة اليوم الذي يسبق يوم الزفاف ، تعرض أم الفتاة المخطوبة جميع الهدايا التي أعدتها لابنتها ، لكي يشاهدها جميع حريم وبنات القرية . وعادة ما تشمل هذه الهدايا فراشين للنوم والجلوس ومخدتين للإتكاء ، وما بين اثنتين وخمسة فساتين جديدة بالإضافة إلى الأساور الذهبية (بناجير) ، أو المجوهرات الأخرى أو كليهما ، وخواتم اللؤلؤ ، وأخيراً ، صندوق جديد . ويقوم الأقرباء ، الذين تربطهم صلة وثيقة بالعروس ، غالباً بتقديم الهدايا أيضاً مثل السراويل التقليدية والفساتين والدلات للقهوة العربية والفناجيل (أكواب القهوة العربية) .

وبما أنه يعتبر من سوء الذوق التعليق على الهدايا المعروضة ، فإن الضيوف عادة لا يمدحون أو ينتقدون هذه الهدايا .

وفي عشية يوم الزفاف ، يجلس جميع أبناء وأحفاد العبيد في القرية في حلقة متكئين على الوسادات الحمراء أو الوردية اللون ، ومرتدين ثياباً حمراء ، ويتمتع هؤلاء برائحة البخور المصنوعة من خليط من القرفة والقرنفل وأحد التوابل يدعى «خُلَنْجان» . وتوضع أمام محرقة البخور صينيتان ، أحدهما لأم العروس والأخرى لأم العريس . وتقوم جميع الحريم برمي المال في الصينيتين كهدايا للوالدتين اللتين يجري تكريمهما . ويتوقف مقدار المال الذي تمنحه كل امرأة ، وهو يتراوح عادة ما بين ريال واحد وخمسة ريالات ، على عمق الصداقة التي تربطها بالوالدتين ، أو على الالتزام الذي تشعر أنه يفرض عليها منح هدية مشابهة لأخرى كانت قد تلقتها في الماضي من إحدى الوالدتين أو على الأمرين المذكورين معاً . وتقوم امرأة مسنة بالإعلان عن المبلغ الذي يرمى في الصينية من قبل كل امرأة ، وتتذكر كلتا الوالدتين هذه المبالغ لكي تقوما في المستقبل بالعمل نفسه رداً للهدية .

وفي الوقت نفسه ، تأخذ أم العريس صينية مدورة وتضع كأساً زجاجياً مملوءاً بجمر البخور في الوسط ، مع العديد من الشموع الموقدة حول حافة الصينية . وترقص الأم حول الحريم وهي تحمل هذه الصينية الجذابة على رأسها ثم تأخذها إلى الخارج لتعطيها لابنها عريس المستقبل . ويُعطى رفاقه العزاب مقدار ضئيل من جمر البخور من قبل الأم تعبيراً عن التمنيات لهم بحظ سعيد لكي يتزوجوا كل حسب دوره . ويبدو أن شباب وادي فاطمة أكثر تلهفاً على الزواج من شاباته .

حفلة الزفاف :

في اليوم الأول من الزفاف يهنيء الأصدقاء وأقرباء العروس والعريس ، وثيقو الصلة بهما ، بالقول «مبروك عليك» ، «مبروك ما عملتم» . ويرد الأقارب على ذلك بالقول «الله يبارك فيكم» .

وتقام حفلة الزفاف التي من المقرر أن تبدأ في المساء ، في أربعة أماكن منفصلة . فهناك حفلة للرجال ، وأخرى للبنات (الفتيات غير المتزوجات)

وأخرى للصبيان (الأولاد غير المتزوجين). أما حفلة الحريم، وهي أكبر مجموعة من المجموعات الأربع، فتقام في الحديقة الرملية الواقعة أمام منزل العروس. ويتوجب على رجال القرية إعداد الطعام والقهوة والشاي لحفلة الزفاف، ويقوم الصبيان بتقديم هذه المأكولات والمشروبات إلى الحريم. ولأنه ليس هناك شاغل يشغل هؤلاء الحريم، فإنهن يستمتعن بالغناء والرقص على إيقاع الطبل (آلة موسيقية تشبه الدف)، وتقوم بعض الأسر الثرية بتأجير المطربات[1] المحترفات من الخارج للغناء في حفلات الزفاف التي يقيمونها.

إن الحفلة التي تقام للرجال هي أكثر بساطة، ولا يُستأجر عادة مطرب من الخارج لإحيائها، (وربما بسبب هذا، كنت غالباً ما أشاهد بعض الرجال يتسللون إلى حفلة الحريم لتسجيل غناء المطربة، أو عزفها، على جهاز تسجيل). وبعد إعداد الوليمة وتقديمها لجميع سكان القرية، يجتمع الرجال المتزوجون لإقامة حفلتهم. وتتضمن الحفلة، بصورة عامة، مطارحات للشعر؛ إذ ينقسم الرجال إلى مجموعتين، ويقوم حَكَمٌ بالاستماع إلى أبيات الشعر المرتجلة التي يلقيها شتى أعضاء المجموعتين، ويستمتع الرجال بهذه المنافسة استمتاعاً كبيراً.

يقوم الصبيان، بصورة عامة، بالرقص حول نار المخيم، وهم يحملون العصي على رؤوسهم ويحركونها بفعالية ونشاط، إلا أنه يتوجب على بعضهم حضور حفلتي الحريم والرجال حيث يقومون بتقديم الطعام والمشروبات. وتقضي البنات وقتهن مع العروس خلف الستارة، إما في الغناء أو التحدث بهدوء، ولا يسمح لهن الجلوس مع الحريم.

وفي الصباح التالي عند انتهاء حفلة الحريم، تأتي امرأة من القرية، أو امرأة مهنية من خارجها، لتعد العروس للزفاف. وتغادر البنات مكان العروس، وتضع المرأة مستحضرات التجميل على وجه العروس، والحناء[2] على راحتي يديها وعلى مشط قدميها. وبعد الانتهاء من تجميل العروس، يأتي العريس إليها مع

(١) في أغلب الحالات تكون المطربة مغنية أو راقصة أنثى، وفي أحيان أخرى تكون أحد الخصيان عندما يكون الحضور أناثاً.

(٢) تستعمل الحِنّة، من كلا الجنسين (الذكور والإناث)، كمواد تجميل، كما أنها تستعمل بمثابة دواء طبي، وخاصة في حالة ارتفاع الحرارة.

أفراد أسرته (أبيه وأمه وإخوانه وأخواته). ويقوم هؤلاء بإطراء جمالها، ثم يتحدثون لمدة خمس أو عشر دقائق قبل مغادرة المكان. وتجري العادة على أن تترك العروس، التي تشعر في ذلك الوقت بقدر كبير من التوتر، لوحدها لتنام قليلاً إذا شاءت.

وعند منتصف النهار تقوم الحريم، اللواتي يرتدين الفساتين الخاصة التي أعددنها لحفلة الزفاف، بتناول وليمة الغداء. وأثناء تقديم الرجال طعام الغداء، الذي أعدوه، تستبدل العروس ثيابها البيضاء بفستان أحمر أو وردي اللون. وبعد انتهاء الوليمة، يأتي العريس إلى العروس مرة أخرى، ليقدم لها الهدايا هذه المرة، مثل ٥٠ ريالاً أو سواراً فضياً. وهذا اللقاء الثاني، الذي يدعى «الصَّباحية»، هو أيضاً لقاء قصير لا يستغرق سوى عشر دقائق. وعلى الرغم من أن هذه هي الفرصة الرسمية الوحيدة التي تتاح له في حياته كلها لرؤية جميع النساء من أقرباء زوجته، فإن العريس يكون عادة مشغول البال حول هذا اللقاء مع عروسته إلى حد يجعله يتجه نحوها رأساً في معظم الأحيان دون النظر إلى النساء الأخريات.

وبعد الصَّباحية تخرج العروس من خلف الستارة لأول مرة، وتشارك في حفلة الحريم حيث تجلس على فراش صُنع خصيصاً لها، وتضع ذراعيها على المسند، وهنا تستمتع بغناء ورقص نساء القرية أو المطربة في حالة وجودها.

وعند المغيب، تترك جميع الحريم العروس لوحدها، ويأتي العريس لينضم إليها، ويقضي هذه المرة ليلته الأولى معها خلف الستارة. وفي الصباح التالي، تعرض أم العروس بفخر على جاراتها وصديقاتها قطعة القماش الملطخة بالدم كدليل على عذرية ابنتها ونجاح العريس في سلب بكارة عروسه.

الطقوس التي تلي الزفاف:

وفي الصباح التالي، أو خلال أسبوع بعد الزواج، ينتقل الزوجان من منزل أم العروس إلى منزلهما الجديد. ويشيد هذا المنزل عادة بجانب منزل أم العروس، وبعد ذلك، نادراً ما يقيم الزوجان مع أي من الوالدين مرة أخرى، حتى لو ترمل أحد هذين الوالدين.

ويرافق العروسين في رحلتهما إلى منزلهما الجديد الوالدان والأقرباء الوثيقو

الصلة بالعروس والوصيفات . وتغطي العروس نفسها بوشاح ، وتحمل مرآة وقرآناً عند دخولها . وتقوم الوصيفات بوضع بعض الحناء على مشط وباطن القدم اليمنى للعروس أثناء وقوفها أمام المدخل .

ولمدة أسبوع ، بعد الزفاف ، ترتدي العروس معابدياً (وشاحاً أسود) وتقضي معظم وقتها خلف الستارة . ولمدة عام واحد ، أو حتى ولادة أول طفل لها ، لا تقابل الزوجة الشابة إلا زوجها والبنات . وعلى الرغم من أنه يسمح لها برؤية أمها ، إلا أنها لا تتصل بأي من الحريم الأخريات ولا حتى حماتها .

وبعد انقضاء العام الأول ، يحين موعد لقاء الزوجة الشابة بالحريم ، إذ تدعو والدة العريس جميعهن لتناول الشاي بعد المغيب . ويقوم العريس والرجال الآخرون بإعداد القهوة والشاي والحلوى المسماة « حلوى الملكة » . وتغني جميع النساء ويرقصن وينقرن الدفوف ويهززن خلاخيلهن . وفي اليوم التالي تبدأ العروس بزيارة كل منزل من منازل الحريم ، واحداً بعد الآخر ، وقد تذهب لزيارة منزلين أو ثلاثة يومياً ، وقد تقضي أسبوعاً ، أو أكثر ، في زيارة جميع الحريم ، إلا أنها تصبح أخيراً عضواً رسمياً في مجموعتهن . وبعد انقضاء أول رمضان بعد الزواج ، تدعو العروس الحريم لزيارة منزلها الجديد للاحتفال بعيد الفطر ، ويطلق على هذه الدعوة الأولى اسم « غَيْلة » .

الولادة :

عندما تصبح الزوجة حاملاً لأول مرة ، لا تخبر أحداً بالأمر سوى أمها التي تنصحها بشرب حليب الماعز حفاظاً على صحة الطفل . وفي الماضي ، كان حليب الجمال يعتبر أفضل حتى من حليب الماعز . وتبدأ الزوجة بصنع ثياب الطفل من الشاش الذي يشتريه الزوج من سوق البدو .

توجد في كل قرية ، بصورة عامة ، امرأة أو امرأتان أكبر سناً يطلق على الواحدة منهن اسم « الداية » وهن يعملن كقابلات . وأثناء الولادة العسيرة ، يمكن للداية طلب مساعدة الحكيمة (القابلة المرخصة) من مركز التنمية الاجتماعية في الجموم ، أو من المستشفى في مكة ، إلا أن لها سلطة مطلقة للتصرف في الموقف ، ونادراً ما تطلب المساعدة من هذه المرافق الحديثة .

أما إذا ولد الطفل ميتاً ، أو كانت الولادة عسيرة جداً ، فإن الجميع يعتبر

ذلك من مشيئة الله . وتجري العادة على أن تحضر الولادة أم الزوجة وحماتها وخالاتها (التي تكون إحداهن غالباً حماتها) ونساء مسنات من القرية أحياناً لمساعدة الداية ، ولا يسمح للفتيات غير المتزوجات حضور الولادة .

تضع المرأة الحامل مولودها وهي في وضع الجلوس على طراحة (نوع من الفراش) موضوعة في الخزانة عليها شموع موقدة . وخلال الولادة ، تمسك الداية بيدي المرأة الحامل ، ويقطع الحبل السري ويتم التخلص منه . وبعد غسل الوليد بالماء الفاتر ، تُنقل الأم وطفلها إلى القاعة (غرفة الضيوف) ، ويدفع والد الطفل مبلغاً يتراوح ما بين ١٠ و ٢٠ ريالاً إلى الداية لقاء خدماتها .

إذا لم يكن لدى الأم مقدار كاف من الحليب لترضع طفلها من ثدييها ، يجري البحث عن امرأة أخرى ، من نفس القبيلة ، لتقوم بذلك ، فإذا لم يتم العثور على هذه المرأة ، يرضع الطفل حليب الماعز ، أو الحليب المعلب كما يحدث الآن .

لمدة أربعين يوماً بعد الولادة ، تظل الأم في المنزل لتستريح وتشرب ماء اليانسون (ماء مخلوط باليانسون) والحليب ، وتأكل العسل وحليب الماعز والدجاج والقطايف (كعك مصنوع من الدقيق وسمن الماعز والعسل) . أما في البشور ، فيفضل خليط من الحليب والزنجبيل والملح .

عندما تأتي حريم القرية لتهنئة الأم الجديدة ، يحيينها بالقول « مبروك جاك ولد » أو « الحمد لله على سلامتها » . ويزعم البدو أن لا فرق بين الأطفال من كلا الجنسين . كما يقوم الوالد ، في اليوم الذي يلي ولادة الطفل ، بإقامة حفلة لرجال القرية في مكان قرب منزله . ويجري العرف ألا يدخل الرجال ، وحتى والد الطفل ، المنزل لمدة أسبوع تقريباً بعد ولادة الطفل ، ويجلس هؤلاء الرجال في حلقة على الرمال ، ويضعون الهدايا المالية للوليد على صينية موضوعة في الوسط .

في اليوم السابع بعد ولادة الطفل ، تطلق عليه الأم الاسم الذي اختارته بمساعدة أقربائها من النساء . ويحتضن الجد الطفل ويهمس في أذنه بعبارة « الله أكبر » ، ثم يُعطى الطفل لوالده الذي يفعل الشيء نفسه ، وتقوم الأم بعد ذلك باحتضان الطفل وتهمس باسمه في أذنه . فعلى سبيل المثال ، إذا كان اسمه محمد ، تقول له « سماك الله محمد » . وتأتي الحريم أيضاً إلى مراسيم تسمية

المولود ويجلبن هدايا على شكل مبالغ مالية، يتراوح كل منها ما بين ريال أو ريالين. ومن المتوقع من النساء اللواتي يحملن نفس اسم الوليد، أو اللواتي يحمل ابناؤهن أو بناتهن نفس الاسم، منح مبلغ إضافي أو ثوب للطفل. وعند دخول كل امرأة غرفة الطفل، تصلي على النبي ثم تكبّر، ثم تقوم بتقبيل الأم الجديدة وتحييها بعبارة «مبروك عليك والحمد لله على السلامة». وبعد ذلك يجري حرق البخور حسب العادة، وتقدم للحريم القهوة العربية والشاي. وأخيراً تحتضن كل امرأة الطفل مرة أخرى قائلة «ما شاء الله. تبارك. اللهم صلّ عالنبي»، ثم تقبل الطفل على وجنتيه وتضع الكحل حول عينيه وجبينه وعلى عينيها قائلة «بلكة» (عسى أن يحالفني الحظ السعيد نفسه). ويجري العرف، ولا سيما في البشور، على وضع شيء لونه أزرق مائل إلى الخضرة، أو أزرق، على صدر الطفل وتتلى آية من القرآن، ويعتقد أن هذا اللون سيجلب الحظ السعيد للطفل ويحميه من الشر.

ولمدة عام ونصف، أو عامين أحياناً، لا يرضع الطفل سوى الحليب. وعندما تقرر المرأة التوقف عن إرضاع الطفل من ثدييها، تضع شمراً مراً يدعى «رضاعة» أو فلفلاً حاراً، على حلمتي ثدييها، وقد تدلي شعرها الطويل عليها.

يعاود إجراء الجماع الجنسي بعد مضي أربعين يوماً على الولادة.

الطلاق:

على الرغم من الاعتقاد السائد أن الزوج وحده في المجتمع الإسلامي يملك حق الطلاق، فإن الزوجة قد تطلب مثل هذا الانفصال. وفي الواقع أن ٢٨,٢ بالمئة من قضايا الطلاق في البشور حدثت بناء على طلب الزوجة. ومن الممكن للزوجة تحقيق الطلاق، إذا شاءت، لأن الوالدين والأقارب يقدمون الدعم النفسي حتى بعد الزواج. فهي تستطيع العودة إلى بيت والديها بسهولة، كما أن البدو يعتبرون الطلاق مجرد إلغاء لعقد الزواج وليس عيباً أو عملاً بذيئاً.

يقوم شيخ القرية، أو أحد كبارها (رجل مسن محترم)، أو إحدى كبيراتها (امرأة مسنة محترمة)، بالتحدث مع الزوجين اللذين يعانيان من مشاكل زوجية. فإذا لم يفلح هذا الرجل، أو تلك المرأة، في مصالحتهما، فقد يقع الطلاق. فإذا طلبت الزوجة الطلاق، فلا يحق لها طلب المهر المؤخر، الذي وعدت به

عند الخطوبة، إلا إذا قام الزوج بطلب الطلاق، فيتوجب عليه دفع المؤخر المتفق عليه في عقد النكاح إلى الزوجة.

ولمدة ثلاثة شهور وعشرة أيام على طلاق المرأة (ولمدة أربعة شهور وعشرة أيام بعد وفاة زوجها)، لا يسمح لها بمغادرة مسكنها إلا لزيارة أقربائها الذين تربطها بهم روابط وثيقة، لأن بالإمكان، خلال هذه الفترة، الاستنتاج بشكل حازم ما إذا كانت حاملاً أم لا. فإذا اعتزلت الناس، فإن زوجها السابق لا يستطيع إنكار صلته والتزامه بالإنفاق على تربية الطفل الوليد. وخلال هذه الفترة ترتدي ثوباً أبيضَ ويطلق عليها اسم «حاكِم» (امرأة خاضعة للقانون). وفي آخر يوم من هذه الفترة، تقيم المرأة المطلقة حفلة لحريم قريتها، ويقوم أقرباؤها، من الرجال والمواليد (المنحدرين من العبيد)، بذبح الأغنام وطبخها لضيوف الحفلة. فإذا لم تقم المرأة المطلقة بمثل هذه الحفلة، يجري إقصاؤها من مجموعة الحريم.

إن هذه الفترة التي تنص عليها الشريعة الإسلامية تستند إلى القرآن الذي يطلق على هذه المدة اسم «العِدّة» (فترة الانتظار). والغرض من هذا القانون هو إعطاء فرصة للزوجين للرجوع عن الطلاق، والتأكد من الحمل، أو عدمه، من الزوج المطلق. إن البدو يجهلون الغاية من هذا القانون ويعتبرونه مجرد عرف من أعرافهم، ولهذا السبب، يتوجب على المرأة المسنة، في الستين أو السبعين من العمر، مراعاة هذا العرف بعد وفاة زوجها، لأن وفاة أحد الزوجين يعتبر مماثلاً للطلاق، أي إلغاء عقد الزواج.

الوفاة:

عندما يتوفى البدوي، يبكي أقرباؤه، أو أصدقاؤه الوثيقو الصلة به، بصوت عال ثم يبدأون بالعويل. وعلى الرغم من أن النبي محمداً ﷺ[1] قد حرم

(١) أنس بن مالك، أحد رواة أحاديث النبي محمد ﷺ، قال: مرّ النبي ﷺ يوماً بامرأة تبكي فوق قبر، فوقف وأمرها أن بالأحرى لها أن تتقي الله وتصبر. ولما كانت لا تعرفه أجابته: إذهب عني، فأنت لا تعرف المصيبة التي أصابتني، ولكن بعد أن علمت مَنْ الرجل أتت النبيَّ وقالت: لم أكن أعرفك، إذ ذاك قال النبي: «تقبلي المصيبة بصبر».
كما قال النبي محمد ﷺ، أيضاً، في مكان آخر: «يُعذّب الميّت بنواح أقربائه» (يعني: =

النحيب على المتوفى ، فإن هذا لا يزال بمثابة إعلان رسمي في قرى وادي فاطمة بوقوع وفاة ما . ويأتي الناس إلى المكان الذي يوضع فيه الشخص المتوفى ، ويجلب أصدقاؤه نعشاً (سرير خشبي يحمل فوقه الميت إلى المقبرة) من المسجد ، ويوضع المتوفى على هذا النعش ، ويطلب على الفور حضور «مُغسِّل» (رجل يغسل جثث الذكور) ، أو «مُغسِّلة» (امرأة تغسل جثث الإناث) .

مع تمتمة آية من القرآن الكريم ، يقوم المغسل ، أو المغسلة ، بغسل الجثة بأكملها ، بما في ذلك داخل الفم ، تماماً كما يفعل المسلم أو المسلمة قبل بدء الصلاة يومياً ، وتغسل الجثة بالإجمال سبع مرات .

وبعد الانتهاء من طقوس الغسل ، يوضع الكافور على الجثة وترش بعطر على جميع أجزائها ، وتُملأ بالقطن جميع فتحات الجثة ، بما في ذلك العينين والأذنين والشرج ، ثم يقوم قروي يحسن القراءة والكتابة بكتابة آية من القرآن على جبين المتوفى . فإذا لم يتوفر مثل هذا الشخص ، فإن أصدقاء المتوفى يقومون ، ببساطة ، بتلاوة آية من القرآن بدلاً عن ذلك ، ثم تلف الجثة بإحكام بقطعة قماش بيضاء ، وتوضع قطعة قماش بيضاء ثانية بشكل غير محكم على الجثة الملفوفة إذا كان المتوفى رجلاً ، أو تعلق مثل شبكة طرد البعوض فوق الجثة إذا كان الشخص المتوفى امرأة (لكي تخفي شكل جسد الأنثى عن أعين الناس) رغم أن الشخص المتوفى يدفن مباشرة إذا حدثت الوفاة بعد المغيب . وطوال الليل ، تضع الأسرة فانوساً ومبخرة (بخور من نوع خاص) موقدين جنب الجثة لأنهم يعتقدون أن روح المتوفى لا تزال موجودة في جسده .

وبعد رش ماء الورد على الجثة الملفوفة والنعش ، يحملها الرجال إلى مقبرة القرية ، التي تقع عادة قرب المنطقة السكنية ، ويسير على خطى هؤلاء الأقارب الذكور الآخرون . ولا تذهب النساء إطلاقاً إلى المقبرة ، حتى ولو كان الشخص الذي يدفن زوجاً أو قريباً وثيق الصلة . وعندما يكون المتوفى امرأة ، يقوم والدها وأشقاؤها وأعمامها وأخوالها بالنزول إلى حفرة الدفن لتلقي الجثة .

= البكاء والنواح فوق الميت) ، وقال أيضاً : «أية روح لا تحمل ذنب روح أخرى» - لا تزر وازرة وزر أخرى .

محمد محسن خان : **صحيح البخاري** (الباكستان ، ١٩٧٠) الجزء الأول ، ص٢٠٨.

أما عندما يكون المتوفى رجلاً ، يجوز لرجال آخرين تلقي الجثة . وتوضع هذه الجثة على جانبها الأيمن لكي تواجه القبلة[1] . ولا يجوز للزوج الذي يُجرى دفن زوجته مشاركة أقاربها الذكور في تلقي جثتها في حفرة الدفن لأن عقد زواجه بها قد ألغي في لحظة وفاتها .

وبعد الوفاة ، يقضي القرويون فترة حداد تدعى «العزاء» لمدة ثلاثة أيام . ويمتنع هؤلاء عن الاستماع إلى الإذاعة ، ولا تضع النساء كحلاً على أعينهن ، وتقدم لأفراد أسرة المتوفى وجبات الطعام مثل القهوة والتمور والخبز من قبل جيرانهم . وترتدي نساء وفتيات أسرة المتوفى ثياباً بيضاء ، ويقوم الرجال بتعزيتهن قائلين «سلامة الخاطر» (خفف الله عنكن حزنكن) ، ويرد النساء عليهم بالقول «عظم الله أجركم» .

وتدعى الليلة الأولى من العزاء «ليلة الوحادة» (الليلة الأولى) ، وتذبح الأغنام لإعداد طعام لأسرة المتوفى وأصدقائه . وفي اليوم الثالث ، الذي يدعى «قطع العزاء» (نهاية أيام الحداد) ، تذبح الحيوانات مرة ثانية صدقة عن الميت . وفي اليوم الرابع تذبح الأغنام لإقامة حفلة ، ويدعى اليوم الثامن ، بعد الوفاة ، «الثمونية» ، واليوم العشرون «العشرينية» ، واليوم الأربعون «الأربعينية» ، إلا أن الناس ، في معظم قرى وادي فاطمة ، يعودون إلى ممارسة حياتهم الاعتيادية بعد اليوم الثالث من العزاء ، ويتقيد بفترة حداد طولها أربعون يوماً أحياناً القرويون في قرية دف زيني فقط .

إن المقبرة هي ليست مكاناً مقدساً ، ونادراً ما يزورها البدو . فالتعاليم الإسلامية تحرم على النساء زيارة القبور ، إذ يتوجب عليهن التوجه بالصلاة إلى الله وحده ، ولا ينبغي عليهن توسيط الأموات ، أو الأولياء ، أو حتى الرسول محمد ﷺ بينهن وبين الله سبحانه وتعالى . وفي الحقيقة ، يتعذر التعرف على مقبرة في وادي فاطمة ، إلا عند مشاهدة أشجار «السلم» العالية جداً ، التي توجد عادة في المقابر ، ولا توجد علامات على القبور ، وسرعان ما تمحو الرمال الجارفة علامات القبور الجديدة .

(١) **القِبْلة** هي اتجاه الكعبة ، الحرم المقدس (المسجد الحرام) في مكة ، حيث يتجه جميع المسلمين في صلاتهم خمس مرات في اليوم .

إن موقف الناس من الموت لا يرتبط بالتعاليم الإسلامية فحسب ، وإنما أيضاً بالموقف العملي الذي يتخذونه بصورة عامة تجاه جميع جوانب الحياة. إذ قد تكون بيئة الصحراء القاسية قد علمتهم أن يكونوا عمليين في حياتهم اليومية ، والتغلب على التدفق الطبيعي للعواطف . فإذا سألت امرأة بدوية ، ترملت مؤخراً ، لماذا لا تزور قبر زوجها ، فربما سترد عليك قائلة : «لأنه لا نفع في ذلك ، إن وفاة زوجي هي إرادة الله» . وعندما يتوفى شاب أو شابة فإنهم يعبرون عن قدر أكبر من الحزن ، ويؤجلون أحياناً أية احتفالات مقررة مثل الزفاف ، إلا أن وفاة شخص مسن يعتبر أمراً طبيعياً في مجرى الحياة الاعتيادية ، ولذلك يعود الناس إلى نمط حياتهم الاعتيادية السابق .

الاحتفالات :

يجري الاحتفال بمناسبتين مهمتين كل عام في وادي فاطمة هما «عيد الفطر» ، وفيه «عيد البنات» الذي يستمر شهراً ، و «عيد الاضحى» .

إن عيد البنات هو الاحتفال المحلي بعيد الفطر ، الذي يقام كل عام بعد شهر الصوم في رمضان . ويجري الاحتفال به طوال شهر شوال «العاشر» . وفي اليوم الأول من عيد البنات يجتمع جميع رجال وصبيان القرية عند سفح جبل ما ليؤدوا صلاة العيد ، وتظل النساء والفتيات في المنزل ليؤدين الصلاة . وبعد ذلك ، يرتدي الجميع الثياب الجديدة ، التي قاموا بخياطتها خلال شهر رمضان ، ويخرجون لتقديم التهاني للآخرين في القرية ، ويحيي بعضهم بعضاً بالقول «عيد مبارك» و «كل سنة وأنتم طيبين» .

يجري اختيار زعيمة لعيد البنات يطلق عليها لقب «شيخة العيد» من العشيرة التي تشكل أغلبية سكان القرية . وبصورة عامة تكون هذه امرأة عانت مؤخراً من مرض ما ، أو أنها معدمة إلى الحد الذي يجعلها غير قادرة ، في العادة ، على إقامة الحفلات للقرويين . وعند المغيب ، تقوم جميع فتيات القرية ، ترافقهن شيخة العيد ، بزيارة منازل القرية . وعند عتبة كل منزل ، يغنين الأغاني ويجمعن هبات من النساء المتزوجات . ويتراوح المبلغ الممنوح عادة ما بين ريال واحد وعشرة ريالات ، حسب وضع الأسرة المالي (يقال إن التجار في مكة يمنحون ما يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ ريال في مثل هذه المناسبة) . وفي قرية أبو

عروة ، تزور الفتيات المنازل على شكل مجموعتين منفصلتين ، الأولى للفتيات اللواتي تتراوح أعمارهن بين السادسة والحادية عشرة ، والثانية للفتيات في سن الثانية عشرة فما فوق .

وفي اليوم الأخير من شوال تقيم شيخة العيد حفلة لجميع حريم القرية وبناتها . وهي تستطيع إنفاق المال الذي جُمع في وقت سابق لإجراء الترتيبات الخاصة بهذه الحفلة ، وتحتفظ لنفسها بالباقي . ويقول الناس إن هذه الحفلة تدخل الفرح إلى قلوبهم وتظهر تعاطفهم مع المساكين (الفقراء) . يمكن أن يُعتبر هذا التقليد بمثابة برنامج «ضمان اجتماعي» في القرى ، على الرغم من أنه لا يشمل العشائر الثانوية في أية قرية .

ويدعى ، إلى الحفلة ، الأقارب الذين انتقلوا من المنطقة إلى المدن مثل جدة ومكة . وفي الحفلة ترقص الفتيات اللواتي يرتدين ثياب العرائس وشعورهن متدلية على اكتافهن . وعلى مرأى من الناس الآخرين ، لا يعتبر أمراً سليماً بصورة عامة للفتاة سوى ربط شعرها بإحكام حول رأسها .

وهناك تقليد آخر في عيد البنات يدعى «العدوة» (لعبة الاستفزاز) . إذ تقوم الحريم بالاجتماع سوية والتسلل إلى منزل ما ، ثم يبدأن تلاوة قصيدة من الشعر لمضايقة ربة المنزل (الجكر) ، ويحملن آلة موسيقية تدعى «الجير» . وعند سماع الضجة ، تخرج ربة المنزل وترد عليهن بما يماثل القصيدة ، ويجري بين الطرفين حديث كالآتي :

«يا فاطمة (اسم ربة المنزل) لماذا تختبئين في الداخل؟» .

«لخاطر الله ، أنا لست مختبئة في الداخل؟» (تظهر على عتبة الدار) .

«يا فاطمة لقد سقط برقعك!» .

«لا يا عتيقة (اسم المرأة المضايقة) هذا هو الوضع الطبيعي» .

«يا فاطمة إنك مهملة!» .

«لخاطر الله ، أنا لست مهملة» .

«بلى ، أنا قادرة على ذلك» .

«لا عفو عنك إذن!» .

«لا داعي للعفو» .

وعندما تسمع النساء الجارات الجكر، يسارعن إلى مكان الضجة، حتى دون ارتداء الملابس الأنيقة أو تصفيف شعورهن، ويقلن «كلام شاب» (أكثر ثرثرة). فتبتسم المرأة التي تتعرض للمضايقة وتدعو الزائرات إلى دخول بيتها، وتجلب جاراتها الشاي والقهوة التي أعدتهما، وبعد التمتع بالبخور، تقدم المرطبات. وتقوم إحدى النساء، أحياناً، بالرقص بحركات دائرة سريعة حتى تقع على الرمل أخيراً من شدة الدوار والإجهاد. وتشكل بقية النساء دائرة حول الراقصة ويحفزنها على المضي في رقصها المحموم بالقول «استمري . . . . ولا تقعي الآن، ليس الآن، ليس الآن!».

وبسبب تقليد «العدوة»، تحافظ النساء على نظافة منازلهن ويحتفظن دائماً بالشاي والقهوة جاهزين خلال شهر الاحتفالات في شوال، كما يضعن ماء الورد أو ماء الكولونيا على ثيابهن كل يوم خلال هذه الفترة.

لا يحتفل الرجال بعيد البنات إلا لمدة أربعة أيام. إن عدد الأغنام المذبوحة لإعداد الطعام، في كل يوم من هذه الأيام الأربعة، يتوقف على عدد القرويين الذين يقررون ذبح أغنام لهذه الاحتفالات. فإذا قرر، مثلاً، عشرون قروياً، من مجموع أربعين قروي، ذبح الأغنام، على أن يذبح كل منهم خروفاً واحداً، فسيجري ذبح خمسة أغنام كل يوم من الأيام الأربعة. ويجتمع الرجال من كل أسرة سوية للذبح وإعداد الطعام. وبعد تقديم الطعام للنساء فإن البقية يأخذها الرجال، الذين يجتمعون سوية ويجلسون في مجموعة مؤلفة كل منها من عشرة أشخاص.

نظراً لقرب وادي فاطمة من مكة المكرمة، يقرر جميع القرويين، بما في ذلك الأطفال الصغار، القيام بالحج خلال ذي الحجة (الشهر الثاني عشر). ولا يؤذن للمرأة القيام بالعمرة أثناء فترة الحيض، ولا تستطيع أداء فريضة الحج.

ويذهب رجال القرى أيضاً إلى مكة، في أغلب الأحيان، للقيام بأعمال مؤقتة خلال الشهر المقدس، بينما تظل النساء في القرى لرعاية حقول الخضروات وللعناية بالحيوانات، ويقمن بزيارة الحقول كل صباح ومساء، وهذا ما لا يفعله إطلاقاً بصورة منتظمة (باستثناء المجتمعات البدوية المستقرة حديثاً في بعض الأحيان).

وبعد تناول العشاء، ترتدي الحريم والبنات، اللواتي لم يذهبن إلى مكة،

ثياباً نظيفة ويجتمعن سوية. وبعد أن يشكلن حلقة في الحديقة الرملية، يستمتعن بقيام امرأتين من المجموعة بتمثيل أسطورة رومانسية شائعة جداً بطلها قيس ومحبوبته ليلى. وفي هذه الرواية، التي يدعي البدو أنها قصة حقيقية وقعت في عشيرة بني عذرة، يتوله قيس بحب ليلى إلى حد يدفعه إلى الجنون، وترقص المرأتان اللتان تتنكران كقيس وليلى سوية كعاشقين مولهين، وتتبادلان الحلوى، أو القطع النقدية من شفاه إحداهن الأخرى، بينما تقوم النساء الأخريات في الحلقة بإنشاد قصيدة موزونة:

يا قيس، يا قيس
يا تيس، يا تيس[1]
كل الرجال بالحج
وانت متخلف ليش؟

ثم يخاطبن ليلى بالقول:

يا غزالة[2]، يا مليحة
اقعدي في بيتك واستريحي.

إن النساء يستمتعن بمثل هذا الغناء والرقص في شهر الحج. وفي قرية أبو عروة تشكل النساء حلقتين بدلاً من واحدة، وتتنافس المجموعتان مع إحداهما الأخرى.

وخلال احتفالات الحج يقضي العرف بأن يجتمع الأشخاص الذين تشاجروا في العام السابق ببعضهم لكي يتصالحوا وتتصافى قلوبهم، ويزور أحدهما الآخر قائلاً: «من السالمين»، أو «بعودة إن شاء الله»، أو «أعاده الله علينا وعليكم بالخير والسلامة».

---

(١) تيس: تعني ذكر الماعز ويستعمل أيضاً لإغاظة الرجل.
(٢) غزالة، تعبير مستعمل في الشعر العربي يشير للتحبب إلى المرأة.

الفصل السابع

دراسة مجهرية

إن فحص جماعة اجتماعية واحدة ، بصورة تفصيلية ، يزود الباحث بمعرفة حقيقية دقيقة بوضع كل فرد من تلك الجماعة ، ويعطيه الفرصة لملاحظة طبيعة العلاقات الكائنة بين الأفراد والأسر في إطار العمليات الاقتصادية والاجتماعية التي تبلور وتحرِّك المجتمع الكبير الذي يعيشون فيه . فالتفاصيل الجديدة التي تتبين من خلال هذا تساعد في التأكد من مدى دقة نتائج الدراسة العامة وبالعكس ، وفي ضوء ذلك يتسنى تأكيد بعض جوانب الدراسة الكبيرة ، ويتسنى توضيح جوانب أخرى ، كما يتسنى تعديل ما يلزم تعديله .

وقد كانت الغايات المعينة ، التي توخيت تحقيقها ، من إجراء دراسة مكثفة لبعض القرى في وادي فاطمة هي ما يلي : التوصل إلى فهم دقيق وشامل لأوضاع كل قرية بكاملها ، وجمع أكمل مجموعة ممكنة من الإحصائيات عن أحوالها ، الأمر الذي قد يؤكد نتائج المسح الاجتماعي الأكبر الذي أجريته ، أو قد يساعدني في تعديله ، وتكوين صورة شاملة للأوضاع السائدة في إحدى القرى ، من حيث طبيعة القوى الاقتصادية والاجتماعية الفاعلة في حياتها ، وكذلك تحليل التفاعلات المتبادلة بين هذه القوى الاقتصادية والاجتماعية .

وقد أجريت دراسة مكثفة لأربع قرى هي : أبو عُروة ، ودف زيني ، وعين شمس ، والبشور . وقرية أبو عُروة ، هي من أقدم وأكبر القرى في وادي فاطمة ، كما أن التغيير الذي طرأ على حياتها الزراعية منذ ذلك الوقت ، الذي كانت ترتوي فيه بالماء من نبعها الغزير ، إلى ما تلا ذلك من اضطرار أهلها إلى حفر آبار إرتوازية عميقة هو أمر مدهش .

أما قرية دف زبني ، فرغم أنها تمثل أحد المجتمعات البدوية المستقرة المستوطنة فإنه يمكن اقتفاء تاريخها إلى ذلك الوقت الذي نصب فيه مستوطنوها الأوائل خيامهم فيها . وأما الآن ، فقد تحولت جميع أراضي دف زبني إلى أرض وقف ، وهي بذلك تعطي مثلاً واضحاً على مثل هذه التغييرات .

وأما قرية عين شمس ، فهي تعتبر مستوطنة جديدة نسبياً في الوادي ، ورغم أن قسماً من أرضها مملوك للفلاحين ، وقسماً آخر من الأراضي التي يفلحونها مستأجر ، فإنها مجتمع مستقر نسبياً ، وقوي اقتصادياً ، وراسخ اجتماعياً . ولكني قررت أن أورد ، في هذا الكتاب ، فقط المواد المتعلقة بقرية البشور .

فقرية البشور ترتبط بعلاقات وثيقة مع كل من قريتي دف زبني وأبو عُروة ، ويمكن أن تقارن ، من وجوه عدة ، مع قرية عين شمس . وبالتالي ، فإن دراسة هذه القرية يمكن أن تعطي معلومات عامة عن الأخريات ، وكذلك قرية البشور مهمة ، بصورة خاصة ، نظراً لحجمها . فإذا نظرنا إلى جميع أحجام المستوطنات في وادي فاطمة ، سواء مستوطنات البدو الرحل إلى مستوطنات البدو المستوطنين ، فإن قرية البشور تكون متوسطة الحجم ، ولكن إذا قصرنا المقارنة على المستوطنات التي تتوفر فيها مقومات تعريفنا السالف للقرية (انظر الفصل الخامس) ، فإنها من أصغر القرى في الوادي . وحيث أن عدد الأسر المستوطنة في قرية البشور هي (٤٦) أسرة فقط وعدد سكانها هو (٢٠٣) نسمة ، حسب إحصاء عام ١٩٧٠م ، فإن حجمها الصغير هذا كان ييسر دراستها بصورة تفصيلية . وكذلك ، قرية البشور هي قرية حديثة العهد نسبياً ، حيث أسست في عام ١٩٥٣م ، وهذا ييسر أمر تحري تاريخها ، في حين أن مستقبل القرى القديمة ، مثل أبو عُروة أو دف زبني ، يمكن التنبؤ به بسهولة ، فإن قرية البشور حاضرها متغير ومستقبلها يتعذر الإيقان بشأنه . وقد بدا لي أن لدى سكانها إرادة قوية على الإقامة والاستقرار بصورة دائمة ، ولكن قد يلاحظ المرء ، لدى سكانها ، أمارات القلق والحيرة بشأن أمورهم . فعلى سبيل المثال ، رغم أن النساء فيها قد نشأن على تقاليد ارتداء حجابهن الملوّن والموشّى ، الذي يدعونه «البُرْقع» ، فإن عدداً متزايداً منهن قد أخذن يتخلين عن ارتداء «البرقع» عند السفر ، ويلبسن ، بدلاً منه ، حجاباً أسود . ورغم أن أبناء قرية البشور يتزايد اعتمادهم على الزراعة في معيشتهم ، فإن نساءهم ما زلن يساعدن في رعي الماشية والأغنام حسبما هو شائع

عند البدو الرحل . وهذا هو مثال واضح على قرية هي في طور الانتقال والتحول من حياة البدو شبه الرحل إلى حياة البدو المستوطنين .

وقبيلة حرب ، التي ينتمي إليها أبناء قرية البشور ، هي من أكبر القبائل في ديار الحجاز ، وفي المملكة العربية السعودية ، ومن أعلاها مقاماً . فقد اشتهرت على مدى قرون بالنزعة إلى الاستقلال ، وبالسطوة ، والبسالة ، وانتشر أبناؤها في أنحاء الحجاز ، من «ينبع» في الشمال إلى «القنفذة» في الجنوب . وفي واقع الأمر ، حوالي ثلث السكان المستوطنين في وادي فاطمة هم من أبناء قبيلة حرب .

ويمثل مجتمع قرية البشور صور مصغرة للصعوبات الجمة التي تعكر صفو الحياة في الوادي . فأهل قرية البشور هم أساساً من البدو الرحل الفقراء ، وحيث أنهم يفلحون حقولاً أرضها مملوكة لأبناء القبائل الأخرى ، لذا تراهم عالة ، من الناحية الاقتصادية ، على البدو الآخرين . وأكثر من ذلك ، يدفع أهل البشور بدل إيجار للأرض التي يقيمون بيوتهم عليها ، وهم يظهرون اهتماماً في تحسين فرص حياتهم من خلال التعليم ، ورغم أن إمكانياتهم لا تيسر لهم اقتناء كثير من كماليات الحياة العصرية ، مثل أجهزة المذياع والمسجلات ، فإن لديهم فكرة وافية عن طبيعة الحياة في المدن والمنتجات المستعملة فيها .

فقرية البشور تمثل ، إذن ، من وجوه عدة ، قرية نموذجية في وادي فاطمة ، وكثير من المستوطنات المماثلة لها تمر في أحوال متغيرة ، وتواجه أزمة زراعية وشحاً في موارد المياه ، وتعيش على دخل بمستوى الطبقة الفقيرة ، وليس الوسطى ، وتنتمي إما إلى قبيلة حرب أو إلى قبيلة قريش المحترمتين .

مناهج البحث :

شرعتُ ، حسب خطة منسقة ، في زيارة جميع بيوت قرية البشور . وبطوافي عليها من باب إلى آخر سنحت لي الفرصة لأن أتحدث ، مراراً ، مع جميع سكان القرية ، من الطفل الصغير إلى الشيخ المسن . وأحياناً كنت أمكث في أحد البيوت مدة عشر دقائق فقط ، وأحياناً أخرى كنت أقضي في بيت آخر يوماً بكامله ، وذلك حسب الظروف . ولم أقصر اتصالي بهم على التحدث معهم فقط ، بل لاعبت أطفالهم وساعدتهم في أعمالهم إن تيسر لي ذلك . وبعضهم

ظن أنني باحثة اجتماعية، وبعضهم ظن أنني مدرسة، وآخرون ظنوا أنني من الحكومة، وغيرهم ظنوا أنني مساعدة طبية.

وبعد أن اكتسبت معلومات عامة عن أهل قرية البشور وحظيت بقبولهم، وضعت استبياناً خاصاً يرشدني في بحثي. ولم أحمل معي أي نسخ من هذا الاستبيان خلال زيارتي للبيوت، ولم أكتب أية ملاحظات بحضور أهل البيت حتى لا أفسد جو المقابلة وعفوية حديثهم معي، فإن هذا الاستبيان كان معياراً مفيداً يساعدني في معرفة مدى اكتمال مادة البحث التي جمعتها. وبعد إجرائي إحدى المقابلات، كنت أعود إلى بيت الأرملة التي كنت أقيم عندها في العادة، فأخلو إلى ذاتي ثم أسجل جميع المعلومات التي جمعتها، وأسجل ملاحظاتي عن جميع جوانب الزيارة. فمثلاً شعرت بالدهشة عندما لاحظت بوضوح، باستقرائي تعابير وجوه النساء، بأنهن لم يشعرن بالحرج ولا بالعار عندما كن يبلغنني بأنهن مطلقات. وفي بعض الأحيان كنت أضطر لزيارة أحد البيوت عدة مرات قبل أن يتيسر لي جمع وملاحظة جميع التفاصيل التي كنت أحتاجها.

ورغم أن استمارة البحث كانت تساعدني كثيراً في مهمتي، فإن جمع المعلومات اللازمة لتعبئتها لم يكن يخلو من المشاكل. فعلى سبيل المثال، لقد تبين لي بأنه ليس من المستحسن أن أسأل الأب عن أسماء الإناث من أفراد أسرته، ولا سيما اسم زوجته واسم أية فتاة في سن الزواج، فتزويده لي بهذه الأسماء ينطوي على إخلال بمسؤولياته من حيث حمايتهن والسهر عليهن. بيد أنه من المقبول تماماً أن أسأل أية واحدة من النساء أو الفتيات في الأسرة عن اسمها فتبلغني باسمها دون حرج. وكان الناس هناك يتحاشون الحديث عن وضعهم المالي وعن ديونهم. وقد حصلت على معظم المعلومات المتعلقة بهذه الأمور من مدير البقالة، ومن مكاتب الدلالين في المدن. ورغم أنه لم يسبق لهؤلاء أن اجتمعوا بمعظم المزارعين فإن لديهم فكرة واضحة عن الوضع المالي، ومدى الشعور بالمسؤولية والالتزام لكل منهم.

ولم أقصر احتكاكي بالمزارعين وأسرهم على التحدث إليهم فقط، بل كنت أراقبهم وأراقب تصرفاتهم في الظروف والمناسبات الاجتماعية. وقد سررت في إحدى المناسبات عندما دعيت للعودة مع بعض أهل قرية البشور إلى بيتهم السابق في الشامية، الواقعة على مسافة ٧٥ كيلومتراً من وادي فاطمة، وذلك

لحضور حفل زفاف إحدى الأسر هناك. لقد راقبتهم ولاحظتهم وشاركتهم مناسباتهم الدينية، وزرتهم في حقولهم، وكثيرون منهم جاؤوا لزيارتي في مدينة جدة. وفي بعض الأحيان كنت أخرج إلى الحقول، عند منتصف الليل، لأرى كيف كان المزارع يروي الحقول عندما يجيء دوره.

وقد اتصلت بأناس آخرين، فقد ركبت مع الجماليين، ومع سائقي الشاحنات، وتجولت معهم في أرجاء المنطقة، وسافرت معهم إلى مدينة جدة، وذلك كي أتعرف على طبيعة نظام المواصلات، ونظام التسويق السائدين في المنطقة. وقد تعرفت على حراس آبار المياه اليمنيين، وتحدثت إلى المسؤولين الحكوميين عن البحث الذي أجريه. ورغم أنه لم يكن من المسموح لي بزيارة مكة فقد استقصيت عن الملاكين الغائبين والمستأجرين، وكان بعضهم من التجار الأغنياء الذين يعيشون في مدينة جدة، وأجريت مقابلات معهم.

في بداية الأمر، وجهت إليّ نصائح بأن لا اختار قرية البشور كموضوع للبحث الذي اعتزمت إجراءه عليها، بسبب شكوك الناس تجاه الغرباء، فربما أن فقرهم وعدم استقرارهم قد فاقم من شعورهم بالقلق والتوتر. وحتى مدير مركز التنمية الاجتماعية، الذي هو نفسه من قبيلة حرب، أبلغني بأنه لم يستطع أن يجمع أية إحصائيات عن سكان قرية البشور، ولكنه عندما لاحظ تصميمي على إجراء البحث قدم لي اقتراحات كثيرة بشأن محتويات الاستمارة وأسلوب التعامل مع أهل البشور. ورغم ذلك، لم أعرف كيف أتصرف عندما ظهر، في البداية، شيء من العداء تجاه مجهودي. فعلى سبيل المثال، عندما كان أحد رجال البشور يشرح لي عن ماهية حجاب البرقع الذي ترتديه زوجته، سرعان ما اندفعت زوجته إلى داخل الغرفة، واختطفت البرقع من يدي زوجها وأخذته معها.

وبطبيعة الحال، لبست ملابسهم التقليدية، وتكلمت مع الناس بلهجتهم الخاصة، وكثيراً ما أحضرت هدايا لهم، وهم بدورهم توخوا مقابلة هداياي بهدايا مماثلة كانت غالباً من الملابس المصنوعة باليد، وإحدى هداياهم لي كانت برقعاً، وربما أمضوا مدة ستة شهور في صنعه.

وقد كان من العسير عليّ الحصول على قياسات للأرض، فكل من المزارعين والمستأجرين والملاكين لم يكونوا يعرفون حجم الأراضي التي

بحوزتهم ، كما أنه لم يسبق إجراء مسح وقياس لهذه الأراضي . وهم يشيرون عموماً ، إلى قطع الأرض الزراعية بوصفها قطعة صغيرة ، أو قطعة متوسطة ، أو قطعة كبيرة . والقطعة الصغيرة مساحتها دونمان ، والقطعة المتوسطة مساحتها أربعة دونمات ، والقطعة الكبيرة مساحتها ثمانية دونمات (والدونم الواحد يعادل عُشْر الهكتار أي ١٠٠٠ متر مربع ، أو حوالي ٢,٥ فدان أرض) . بيد أن هذه هي معادلة عامة ، وبدا لي أنه كان هناك تفاوت كبير بين قطعة وقطعة . ورغم أن قياساتي للأرض كانت تقريبية ، فقد بذلت جهداً خاصاً لمسح الحقول الزراعية بدقة فكنت أذرعها بخطواتي طولاً وعرضاً ، وكذلك استنجدت بالطلاب ، وغيرهم من البدو المتعلمين في المنطقة ، ليساعدوني في إجراء قياسات الأراضي .

موقع المستوطنة ومحيطها :

تقع قرية البشور على بعد خمسة كيلومترات تقريباً إلى الجنوب من بلدة الجموم في وسط وادي فاطمة ، وعلى بعد عشرين كيلومتراً شمال شرق بلدة الهدّة ، على الطريق الرئيسي العام بين مدينتي مكة وجدة ، وهي واحدة من خط من القرى يمتد على الضفة الشرقية للوادي في هذه المنطقة . وتضم هذه القرى ، بدءاً من الشمال وباتجاه الجنوب الغربي : قرية أبو شعيب ، وقرية الغرشان والبشور ودف زيني ودف خزاعة . وتقع البشور على خط عرض ٢١ درجة و٤٠ ثانية ، وعلى خط طول ٣٩ درجة و٤٠ ثانية ، وعلى ارتفاع حوالي ١٤٠ متراً فوق سطح البحر .

ومفرق الطريق الفرعي المتفرع من طريق مكة جدة الرئيسي والمؤدي إلى بلدة الهدّة ثم إلى قرية البشور لا توجد عليه أية إشارة سير تنبه السائقين إليه ، فهو ليس طريقاً بالمعنى المعروف ، بل مجرد درب رملي داسته خفوف الجمال ، وعجلات السيارات سرعان ما تغرز في الرمال حتى ولو كانت سيارة «جيب» قوية . وإذا سافر المرء بالسيارة على هذه «الطريق الزراعية» ، كما يسميها البدو هناك ، متجهاً نحو الشمال الشرقي ، فينبغي عليه أن يلاحظ خط سيره بعناية وحذر لأن الريح وسيول الأمطار يمكن أن تمحو آثار هذا الدرب . وفي فصل الصيف ، بوجه خاص ، تجنح الرمال المتحركة التي تذروها الرياح لأن تطمر معالم الطريق ، الأمر الذي يسبب تغريز السيارات .

كان كثيرون من أبناء قبيلة حرب يعيشون حياة البدو الرحل في مناطق عسفان والهدّة الشامية (انظر الشكل ٥) . وتدريجياً ، أخذت جماعات منهم تنتشر بعضها باتجاه الغرب حتى ضواحي مدينة جدة ، وبعضها استوطن في وادي فاطمة في القرى المعروفة اليوم بأسماء عين شمس ، والخيف ، والجموم ، والهدّة ، والبرابر ، والتنضب ، والدبة . وهناك ثلاث عشائر هي البشور والمعبادي والرحيلي ، بعد أن تجولوا لفترة في منطقة فج الرميثي وفج الكريمي ، استقروا لزمن في جوار نبع المدرة في أسفل جبل سدر ، ثم ما لبثوا أن انتقلوا إلى الموقع الحالي لقرية البشور . وفي حوالي ذلك الوقت أيضاً ، جاءت عشيرة أخرى من البشور من مرابعها ، الواقعة على بعد ٧٠ كيلومتراً إلى الجنوب من مدينة جدة ، وانضمت لهم في موقع البشور . وتجد وصفاً لتفاصيل حركة السكان هذه وتطورها في الفصل الثامن[١] .

وفي الموقع الحالي لقرية البشور ، كانت توجد في الماضي عدة قرى ، أو مجموعات مستوطنة هناك ، وقد اندثرت هذه جميعها قبل أن يفد البشور إلى تلك الربوع ، ولا تتوفر لدينا أية معلومات تبين أسباب اختفاء سكانها السابقين ، فأبناء القرى المجاورة لا يهتمون كثيراً بأمور ظهور مثل هذه القرى واختفائها ، لأن مثل هذه الظواهر هي أمور عادية هناك .

ويعطي البشور عدة أسباب لاستقرارهم في الموقع الحالي لقريتهم . فهي تقع قرب منطقة الفيضان ، وبالتالي تجود فيها الزراعة ، ولكن موقعها مرتفع نسبياً ومنزوي عن جرف السيل ، الأمر الذي يجنبها مخاطر الانجراف بمياه السيل . وهي تقع قرب الحقول الزراعية بحيث يتسنى لأبنائها إيجاد عمل لهم كعمال زراعيين . وموقع قرية البشور هو قريب من مدرسة الصبيان في قرية دف زيني . ويوجد بقربها بئر ماء تزودها بمياه الشرب ، وكان من السهل التفاوض بشأن استخدام بئر الماء هذه . وقد استقرت عشائر أخرى من قبيلة حرب في أنحاء بلدة الجموم ، وباستيطانهم في قرية البشور يتميزون بالعيش قريباً من المدينة المقدسة ، الأمر الذي ييسر لهم أداء فريضة الحج كل سنة . وحيث أن أراضي

(١) لتحليل التطور السكاني وحركته ، انظر : موتوكوكاتاكورا : **التحرك السكاني في المجتمع البدوي** ، ص١٣٠-١٦٤.

قرية البشور هي من أراضي الوقف الديني، لذا فإن إيجارها معتدل نسبياً.

ويحرص البدو على نصب خيامهم أو إنشاء بيوتهم بعيداً عن جرف السيل. ورغم أن السيل لا يحدث، في هذه المنطقة، سوى مرتين أو ثلاث مرات في السنة، فإن سيلاً عارماً قد وقع في شهر ديسمبر - كانون الأول عام ١٩٥٦م وأغرق موقع قرية البشور وجرف معه خيامهم، بما في ذلك خيمة الشيخ. وبوجه عام، يجنح البدو إلى الخشية من الماء أكثر من إدراكهم لمنافعه، وإن كان من المهم لهم، بطبيعة الحال، توفر مياه الشرب، وهذا لا يشكل مشكلة صعبة لهم لأن من السهل حصولهم على حاجتهم من مياه الشرب بالتفاوض مع أبناء قبيلتهم الآخرين المستوطنين في القرى المجاورة، أو مع أبناء القبائل الأخرى الصديقة لهم. وفي السنوات الأخيرة أخذت الحكومة توزع مياه الشرب على مستوطنات البدو بواسطة شاحنات الصهريج التي تصب مياه الشرب في براميل يضعها البدو خصيصاً قرب خيامهم.

والشغف بالتعليم هو أحد الأسباب التي دعت البشور للاستقرار، وهو حافز قد لا يتوقعه الغريب عن المنطقة، وقد ازداد الحافز للتعليم في السنوات الأخيرة. ففي عام ١٩٦٩م، كان ٧١٪ من عموم الأطفال من الإناث والذكور، أو ٨٩٪ من عموم الصبيان، في قرية البشور ملتحقين بإحدى المدارس الابتدائية أو المتوسطة.

وعلاوة على الأسباب السبعة، السالف ذكرها، والتي يعطيها البشور كدواع لركونهم إلى الاستيطان والاستقرار، يحس المرء بحوافز أخرى غير معلنة لا يدركون هم أنفسهم ماهيتها أو أنهم يترددون في إيضاحها. فالكثيرون من البشور وجدوا أنفسهم في السنوات السابقة لاستقرارهم، في وضع يعطلهم عن عيش حياة البدو الرحل بالمعنى الحقيقي للكلمة. فقد أبلغوني مراراً أنهم يعانون من الأمراض المعدية التي تصيب الغنم والجمال، ومن ضراوة الجفاف، ومن الفقر الشديد، فدعاهم هذا إلى الاستقرار والاعتماد في معيشتهم على الزراعة، فهم في الحقيقة لا يحبون ممارسة الزراعة، ولكنها حسنت قليلاً من مستوى معيشتهم.

وعامل آخر لا يذكره البشور، بين الأسباب التي دعتهم للاستقرار والاستيطان، هو رواج السلع العصرية في محيطهم مثل: راديو

الترانزيستور[١]، وماكنات الخياطة[٢]، والدراجات النارية، ورغبة البدو في اقتناء مثل هذه السلع. فأبناء البدو يفضلون في هذه الأيام، المربى وما شابهه علاوة على فطورهم التقليدي الذي يتكون من الخبز والتمر والطحينة وحليب النياق، وكي يتسنى لهم إشباع هذه الرغبات شعروا بحاجتهم للمال، فاستقروا واستوطنوا للانهماك في الزراعة.

(١) في كل أهل بيت في البشور جهاز راديو ترانزيستور (للشيخ اثنان: واحد لكل زوجة) ما عدا البيوت رقم ١٠، ٢٤، ٢٦، ٣١ و٤٢. استعملت أرقام البيوت هذه أثناء الدراسة من الكاتبة.

(٢) نساء كثيرات في كل مكان من الوادي، إضافة للنساء البدويات، يملكن ماكنات يدوية للخياطة. وربات البيوت رقم ١، ٣، ٨، ٩، ١٧، ٢٧ و٢٨ في البشور يملكن ماكنات الخياطة منذ سنة ١٩٧٠.

الفصل الثامن

فكرة عامة عن النشاطات الاقتصادية في البشور

المهن :

يوجد في القرية ثلاثة وثلاثون رجلاً يعملون كمزارعين ، وستة آخرون يستأجرهم المزارعون أو المستأجرون كعمال زراعيين ، ويعمل ستة رجال في مهن غير زراعية ، وهم معلما مدرسة وصاحب دكان وطبيب شعبي وإمام للصلاة ، بالإضافة إلى داية محلية غير مسجلة ، وهناك أربعة متقاعدون من الرجال .

يعمل في الزراعة تسعة وثلاثون رجلاً من قرية البشور ، وغالباً ما يقوم الأبناء فوق سن العاشرة أيضاً بتقديم العون لآبائهم في الحقول ، وهم بذلك يشكلون مصدراً مهماً لليد العاملة . إلا أنه نظراً للهفة الأبناء على الذهاب إلى المدارس ، أملاً في الحصول في نهاية المطاف على وظائف محترمة برواتب جيدة في جدة ومكة ، فإنهم غالباً ما يقومون بالدراسة في الصباح والعمل في الحقول ما بعد الظهر . ولا تذهب الزوجات إلى الحقول إطلاقاً ، إلا خلال شهر الحج في ذي الحجة ، وعندما يترك جميع الرجال تقريباً أعمالهم الزراعية لكي يكسبوا مالاً إضافياً في المدن ، تقوم النساء بأعمالهن الزراعية في القرية . إلا أن النساء يقمن بصورة رئيسية بصنع «الطلي» (مواد تصنع منها البراقع) والبسط والحصر ، المصنوعة من سعف النخيل ، والسفرات (مناضد طعام من سعف النخيل) ، والزنابيل (سلال من سعف النخيل) ، والمراوح من سعف النخيل أيضاً . وفي بعض الحالات تقوم الفتيات الصغيرات ، ما بين الثامنة والثالثة عشر ، بمساعدة آبائهن في الحقول . وغالباً ما يتحول طلاب المدارس الابتدائية إلى عمال زراعيين

خلال العطل الصيفية، وعطل الحج ورمضان. أما طلاب المدارس الثانوية فعادة ما يجدون وظائف كتابية في المدن خلال عطلهم.

الصورة رقم ١٢:



امرأة من قبيلة حرب ترتدي برقعاً مطوراً صناعة بدوية

الصورة رقم ١٣:



امرأة من حرب تصنع حصيرة من سعف النخيل

الصورة رقم ١٤:



امرأة من عتيبة تخطو خارج صندقة وهي ترتدي برقعاً تقليدياً

يقوم أحد عشر مزارعاً في قرية البشور باستئجار عمال زراعيين، ويزداد الطلب على العمال الإضافيين، ولا سيما خلال الحصاد الشتوي لمحاصيل الطماطم والفلفل الحار والباذنجان (ما بين منتصف يناير وبداية مايو)، وخلال الحصاد الصيفي لمحاصيل البطيخ (من مارس حتى نهاية يونيو). فبالإضافة إلى أبناء المزارعين الذين يساعدون آبائهم، يقوم هؤلاء الآباء باستئجار العمال

المؤقتين. ويتلقى العمال الزراعيون المستأجرون، من نفس العشيرة، عادة أجراً قدره ١٠ ريالات (٢,٤٠ دولاراً أمريكياً) يومياً، بالإضافة إلى إعطائهم خضروات وفواكه من المحصول الذي تم حصده لأسرهم، بينما يدفع للبدو المستأجرين، من القبائل الأخرى، أجراً يتراوح ما بين ٨ و١٠ ريالات يومياً. ويدفع عادة للطلاب، من نفس العشيرة، الذين يعملون في الحقول، والذين لا يعمل آباؤهم في الزراعة، أجراً يتراوح ما بين ٥ و٨ ريالات يومياً، بالإضافة إلى إعطائهم كمية إضافية من الخضروات.

إن الكهل، الذي هو موضع الاحترام والمعترف به شيخاً على القرية، يكسب رزقه كمزارع وناظر وصاحب دكان. فهو يعمل ناظراً مسؤولاً عن مزرعة كبيرة نسبياً (راجع الشكل ١٥ الذي يشار إلى «الشيخ» بالحرف ك) إضافة إلى ثمانية قطع أراضي يزرعها مزارعون آخرون، وقطعة أرض تقع تحت إشراف مباشرة، كما أنه يملك ويدير مخزنين للبقالة والتجهيزات العامة في البشور، وذلك بمساعدة ابنه البالغ التاسعة عشر.

إن إمام القرية هو عامل زراعي سابق، إلا أنه تلقى مسؤولياته الجديدة بسبب سوء حالته الصحية، وهو من أصل يمني، ويستلم راتباً من وزارة الحج والأوقاف.

إن الرجال المتقاعدين الأربعة هم من الكهول. وعلى الرغم من أنه قيل لي إن أعمارهم تبلغ الستين والسبعين والمائة والأربعين عاماً على التوالي، فقد افترضت أن أعمارهم الصحيحة هي الخامسة والخمسين والخامسة والستين والثمانين والتسعين، ويقيم كل منهم في منزله المستقل، ويقوم بإعالتهم إما الأبناء أو الأقارب، وهناك أيضاً أرملة، في الستين من العمر، تقيم بمفردها في منزلها الخاص بالبشور.

نظراً لقيام المزارعين في البشور بقضاء معظم أيام السنة في رعاية حقولهم الزراعية وسقيها، فلا يتوفر لهم وقت كاف للبحث عن أعمال مؤقتة في المدن، إلا أنه نظراً لحاجة هؤلاء المزارعين الماسة إلى المال، فإنهم يعملون في مكة وجدة خلال شهر الحج في ذي الحجة، وبالإمكان، لمن يحسن الكتابة منهم، إيجاد وظائف في المطار يقومون فيها بتسجيل أسماء الحجاج القادمين، بينما يقوم بعضهم بالعمل كأدلاء سياحيين، كما يقوم المزارعون، الذين يملكون

حيوانات زراعية، غالباً، بجلب هذه الحيوانات إلى المدن لبيعها.

الدخل:

يتراوح دخل ثلاث أسر ما بين صفر وخمسين ريالاً في الشهر، و١٦ أسرة ما بين ٥١ و١٠٠ ريال، و١٧ أسرة ما بين ١٠١ و١٥٠ ريالاً، و٤ أسر ما بين ١٥١ و٢٠٠ ريال، وأسرتين ما بين ٢٠١ و٢٥٠ ريالاً، وأسرة واحدة ما بين ٥٠١ و٥٥٠ ريالاً، وأسرة واحدة ما بين ٥٥١ و٦٠٠ ريال، وأسرة واحدة ما بين ٩٥١ و١٠٠٠ ريال. إن معدل الدخل الشهري في البشور، باستثناء دخل الشيخ الذي يتراوح ما بين ٩٥١ و١٠٠٠ ريال، هو ١٣٦ ريالاً (٣٥ دولاراً أمريكياً) في الشهر، أو ١٦٣٢ ريالاً (٣٩١ دولاراً أمريكياً) في السنة (راجع جدول ٦).

جدول رقم ٦:

الدخل والنفقات الشهرية في بُشور

رقم الأسرة	حجم الأسرة	المهنة	الدخل الشهري (ريال)	النفقات الشهرية (ريال)				
				١	٢	٣	٤	٥
١	٥	مدرس	٥١٠	٢٠٠	١٥	٨٠	٣٠	١٠٠
٢	١١	مزارع ،ناظر ، صاحب حانوت	٩٨٠	٦٠٠	٢٠	٦٠+٦٠	٤٥	١٠٠
٣	٨	مزارع	٢٠٠	١٥٠	١٥	٦٠	١٥	٢٠
٤	٧	مزارع	٢١٠	١٥٠	١٥	١٥	١٠	٥٠
٥	٧	مزارع	١٥٠	١٢٠	١٥	٥٠	٢٠	١٥
٦	٤	مزارع	١٥٠	١٠٠	١٥	٢٥	١٠	١٠
٧	٧	مزارع	١٥٠	٨٠	١٥	٢٥	١٠	١٠
٨	٥	مزارع	١٩٠	٨٥	١٥	٣٠	١٠	٥٠
٩	٩	مزارع	١٨٠	١٢٠	١٥	٢٥+٢٥	١٥	٢٠
١٠	٣	مزارع	١٠٠	٧٥	٨	١٠	٢٥	٢٥
١١	٤	عامل	١٢٠	٦٥	١٥	٣٠	١٠	١٠
١٢	٦	مزارع	١٢٠	٨٠	١٥	٣٥	١٠	١٥
١٣	٤	مزارع	٨٠	٦٥	١٥	٣٠	١٠	٨
١٤	٤	مزارع	٩٠	٦٠	٥	٥	-	٣٥
١٥	٢	مزارع	١٠٠	٤٠	١٥	١٥	-	٥

١٦	٦	مزارع	١١٠	٩٠	٥	١٨	١٠	٣٠
١٧	٩	مزارع	١٢٥	١٠٠	٥	٤٠	١٥	٤٠
١٨	٢	مزارع	٨٠	٤٠	٥	١٠	-	٣٥
١٩	٧	مزارع	١٢٠	٧٠	١٥	٤٥	١٥	٤
٢٠	٢	مزارع	١٠٠	٥٠	١٥	٢٠	-	٤
٢١	٧	مزارع	١٢٠	٩٠	١٥	١٥	١٠	٣٠
٢٢	٢	مزارع	١٠٠	٥٠	٥	١٥	-	٤
٢٣	٣	مزارع	١٠٠	٧٥	٢٧	٢٠	-	٤
٢٤	١	متقاعد	٥٠	٣٠	٥	١٠	-	-
٢٥	٤	عامل	١٠٠	٦٠	٢٨	٢٥	١٠	١٠
٢٦	١	-	٠	-	-	-	-	-
٢٧	٣	مزارع	١٢٠	٥٥	٣٠	٢٠	-	١٠
٢٨	٣	مدرس	٥٦٠	٥٥	٢٥	٢٠	١٠٥	١٢٠
٢٩	٥	إمام	٢٠٠	٧٥	٢٤	٢٥	٢٠	٢٠
٣٠	٥	مزارع	١٥٠	٩٠	٢٥	١٠	-	٥٥
٣١	٣	متقاعد	٩٠	٤٠	٢٠	٥	-	١٠
٣٢	٦	عامل	٢٤٠	١٤٠	٣٥	٤٥	١٠	٣٥
٣٣	٢	مزارع	٦٠	٥٠	٢٠	٠,٥	-	١٥
٣٤	٢	عامل	١٠٠	٦٠	٢٠	٠,٥	-	٢٠
٣٥	٢	مزارع	١٠٠	٧٠	٢١	٢٠	-	٤
٣٦	٣	مزارع	٨٠	٥٥	٢١	٢٥	-	٢٠
٣٧	٢	مزارع	١٢٠	٥٠	٥٠	٥	-	٢٥
٣٨	٣	مزارع	١٢٠	٧٤	٢٠	١٠	-	٢٠
٣٩	٦	مزارع	١٢٠	٨٨	٢٠	١٨	-	٥
٤٠	٢	مزارع	١٠٠	٧٢	٢٠	٢٠	-	٥
٤١	٢	مزارع	١٠٠	٦٥	٢٧	٢٠	-	٥
٤٢	٢	متقاعد	-					
٤٣	٤	مزارع	١٢٠	٨٥	٣٢	٣٠	-	١٥
٤٤	٥	مزارع	١٢٠	٦٥	٣٧	٢٥	-	١٠
٤٥	٤	عامل	١٤٠	٨٠	٢٨	٢٥	-	١٠
٤٦	٢	مزارع	؟	؟	؟	؟	؟	؟

المفتاح : ١=الطعام ، ٢=القهوة والشاي ، ٣=الملابس ، ٤=التعليم ، ٥=إيجار المحراث ، والعلاج الطبي والبنزين وإيجار الأرض ، والحبوب ، وإعالة الأقارب ، ومصروفات أخرى متنوعة .

تجب الإشارة إلى أن دخل المزارع في البشور لا يكفي لسد حاجاته ، وليس من السهل التعويل عليه . فالدخل الفعلي الذي يرد معظمه من بيع منتجات الحصاد في المدن ، يتباين تبايناً كبيراً من شهر لآخر ، ولا يقوم معظم المزارعين بحساب شؤونهم المالية بدقة كبيرة ، ويقوم جميعهم فعلياً بالشراء بالتسليف بصورة منتظمة . والواقع أن إنفاقهم تجاوز دخلهم خلال الفترة التي أجريت فيها هذه الدراسة .

يتراوح أجر العامل الزراعي ما بين ٨ و١٣ ريالاً في اليوم . وعلى الرغم من أنهم يعملون خلال أكثر من نصف الأيام المتوفرة خلال العام ، كما ينعكس ذلك في معدل دخلهم الذي لا يتجاوز ١١٤ ريالاً في الشهر (٢٧,٣٦ دولاراً أمريكياً) ، فإن هذا المعدل يقل عن معدل دخل المزارعين البالغ ١٢١ ريالاً في الشهر (٢٩,٠٤ دولاراً أمريكياً) .

يتلقى الإمام ، الذي شغل هذه الوظيفة لمدة أحد عشر عاماً ، راتباً قدره ٢٠٠ ريالاً (٤٨ دولاراً أمريكياً) في الشهر من الحكومة . أما الطبيب العربي الذي يعالج مرضاه بالكي بالنار بصورة رئيسية ، فهو يكسب ما بين ٥ و١٠ ريالات لكل جلسة علاج ، وتكسب الداية (القابلة المحلية غير المرخصة) ما بين ١٠ و٢٠ ريالاً مقابل خدماتها في التوليد .

يتلقى المعلمان في بشور من وزارة التربية راتباً قدره ٥١٠ ريالات شهرياً (١٢٢,٤٠ دولاراً أمريكياً) و٥٦٠ ريالاً شهرياً (١٣٤,٤٠ دولاراً أمريكياً) على التوالي . وباستثناء الشيخ ، يتلقى هذان المعلمان أعلى راتب مهني في البشور . ويحمل هذان شهادتين من معهد إعداد المعلمين في مكة . وعلى الرغم من دخلهما المستقر والعالي نسبياً ، فإنهما أيضاً يحملان عبء الإنفاق على عدد من أقربائهما الفقراء .

ينتمي الشيخ إلى أغنى أسرة في البشور ، إذ يبلغ معدل دخله الشهري ٩٨٠ ريالاً (٢٣٥,٢٠ دولاراً أمريكياً) من أعماله المشتركة . ويقوم أبناؤه ، البالغون الثلاثة من زوجتيه ، بمساعدته في إدارة أعماله ، رغم التحاقهم أيضاً بمدرسة متوسطة في الجموم . ومع ذلك ، فالشيخ يواجه أيضاً مشاكل مالية .

الإنفاق :

يبلغ معدل الإنفاق في البشور ١٦٤ ريالاً في الشهر (٣٩ دولاراً أمريكياً)

أو ١٩٦٨ ريالاً في العام (٤٧٢ دولاراً أمريكياً)، وهو معدل يفوق مستوى الدخل. وتنفق الأسرة الاعتيادية كل شهر ٨٨ ريالاً (٢١ دولاراً أمريكياً) على الطعام، و١٨ ريالاً (٤ دولارات أمريكية) على القهوة والشاي، و٢٥ ريالاً (٦ دولارات أمريكية) على الأقمشة والملابس، و٩ ريالات (٢,١٦ دولاراً أمريكياً) على التجهيزات المدرسية والمرطبات الإضافية، و٢٣ ريالاً (٥ دولارات أمريكية) على أمور أخرى (البذور ورسم استئجار الحراثة والتجهيزات المتنوعة). وباختصار، تنفق معظم الأسر في البشور أقل من ٥٠ ريالاً في الشهر على الملابس، وما بين ٥١ و١٠٠ ريالاً شهرياً على الطعام، وما يعادل ذلك أيضاً على الحاجات المتنوعة (راجع الجدول ٦).

تنفق معظم الأسر في البشور ما بين ٧١ و١٣٠ ريالاً في الشهر على الطعام والبن والشاي والسكر وحب الهال والزنجبيل. أما الأطعمة، التي تستعمل كل يوم، فهي الأرز والعدس والدقيق والسمن والتمور والملح والفلفل والطماطم ومعجونها والخبز. أما الأطعمة، التي تستعمل بصورة متكررة وليس يومياً، فهي البيض والجبنة والخضروات. وقد يؤكل لحم الغنم أو الماعز أو الدجاج مرة كل أسبوع أو ثلاثة أسابيع. إن وجبة الفطور البدوية التقليدية تشمل التمور والقهوة والكُسْرة (الخبز المصنوع في المنزل)، أو الشعيرية (شرائط المعكرونة)، والروبة (اللبن المصنوع من حليب الماعز). وقد يتناول الشبان مع هذا الفطور بيضة مسلوقة أو مربى. أما وجبة الغداء التي هي أهم وأكبر وجبة في اليوم، فتتألف من أرز الكبسة (الأرز المسلوق مع السمن ومعجون الطماطم، وأحياناً لحم الخروف أو الماعز أو الدجاج) وسلطة الخضروات والبصل الأخضر الطازج، ويضاف لحم الغنم أو الماعز أو الدجاج عادة إلى الوجبة عندما تقدم للضيوف. إن هذا الطبق هو من بخارى (في آسيا الوسطى) وليس من الجزيرة العربية حيث يطلق عليه اسم أرز بخاري، وتضاف أحياناً البامية إلى هذا الطبق. وفي المساء، لا يتناول البدو إلا عشاء خفيفاً، يتألف عادة من فضلات وجبة الغداء والمربى والخبز واللبن.

تقوم معظم النساء بخياطة فستان جديد بمناسبة عيد الفطر وعيد الأضحى، ولحفلات زواج أفراد الأسرة أو الأقارب. إن الملابس مهمة لسكان قرية البشور ولجميع البدو. إن بيئتهم تفتقر إلى الألوان، ولذلك فإن ثيابهم الجميلة الزاهية

الألوان هي إحدى أهم مظاهر الترف لديهم. ويتطلب العديد من احتفالاتهم التقليدية ارتداء ملابس خاصة، وقد يقوم ضيوف حفلة زفاف بتغيير ملابسهم مرتين، أو ثلاث مرات، خلال الحفلة.

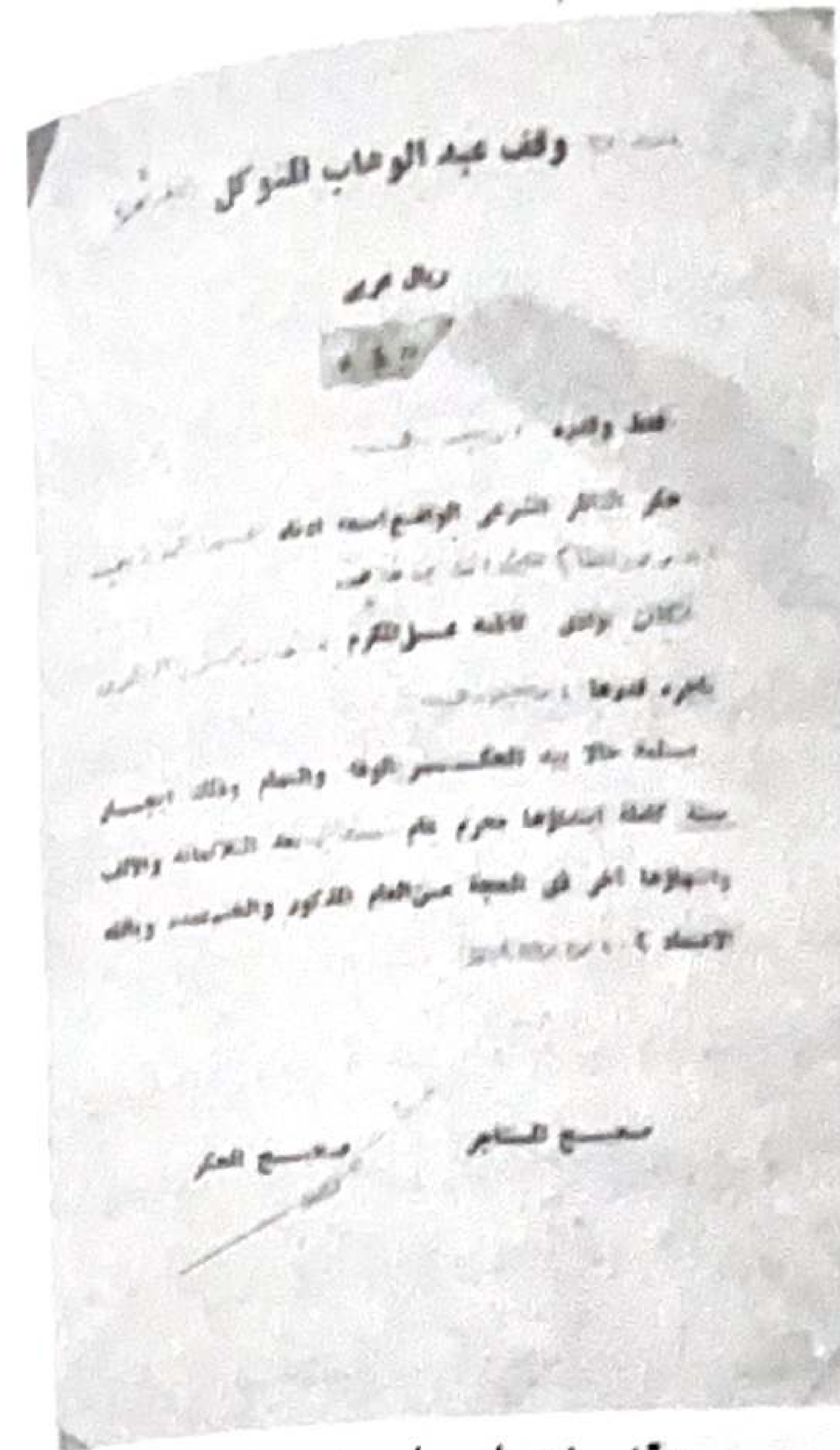
من ناحية المدارس، لا يتحمل القرويون سوى نفقات شراء كتب إضافية، إذ تقوم الحكومة بدفع نفقات التعليم والكتب المدرسية وأقلام الرصاص والدفاتر والمحافظ ووجبات الطعام الخفيفة. ويأخذ كل طفل عادة ما بين ٤ و٦ قروش معه إلى المدرسة، كل صباح، لشراء ما يشتهيه من البسكويت أو الحلوى. ويحتاج ولدا الشيخ اللذان يذهبان إلى مدرسة متوسطة في الجموم إلى نفقات سفر.

إن «النفقات الشهرية» المتنوعة في العمود (٥) من الجدول (٦) تشير إلى مجموعة كبيرة من الاحتياجات، مثل الغازولين للطبخ والمصابيح، ومساعدة الأقارب المرضى أو المسنين، والعلاج الطبي، وشراء العطور وماء الكولونيا وماء الورد والبخور، وغيرها من الحاجات المنزلية الأكثر بساطة، واستئجار الأرض السكنية.

إن البخور الذي هو جزء هام جداً من حياة البدو، يستخدم عند الفطور وكذلك في المساء، عندما يجتمعون سوية بعد انتهاء العمل للتمتع بأمسية اجتماعية، كما تستهويهم العطور وماء الكولونيا وينفقون جزءاً من دخلهم لشرائها بصورة منتظمة. وبعد اكتشاف بدوي، من عشيرة خارج وادي فاطمة، طريقة صنع ماء الورد (يزرع الورد في هذا الجزء من العالم)، شاع استعماله شيوعاً واسعاً. ويضيف البدو عادة شيئاً من هذا السائل العطر إلى ماء الغسيل والشرب، كما يرشون أيضاً عدة قطرات منه من قنينة أنيقة على رأس أي ضيف يأتي لزيارتهم. وفي هذه الأيام، ونظراً لاستعمال العطور وماء الكولونيا في المدن، فقد أخذ البدو يستعملونها للضيوف على نطاق واسع سوية مع ماء الورد.

تدفع كل أسرة في البشور ٤ ريالات (٠,٩٦ دولار أمريكي) سنوياً إلى عبد الوهاب المتوكل، ناظر الأرض الوقف، التي يملكها شيوخ من دف زيني. وبما أن هذه المنطقة السكنية هي أرض وقف، فإن إيجارها اسمي. يولي أفراد هذا المجتمع اهتماماً كبيراً للعقود ويلتزمون بنصوصها التزاماً صارماً، وتتضمن الصورة (١٥) عقداً ينص تفاصيل استئجار أرض سكنية جاء فيه ما يلي:

الصورة رقم ١٥ :



وقف عبد الوهاب المتوكل

وقف عبد الوهاب المتولي

أربعة ريالات فقط (رقم ٢٥)

قام المشرف القانوني حسن أحمد زيني بتأجير الأرض الواقعة في وادي فاطمة للسيد عتيق بن مستور البشوري مقابل مبلغ أربعة ريالات يتم تسليمها فوراً وبالكمال والشرف إلى يد المؤجر، على أن تبدأ فترة الاستئجار في شهر محرم من عام ١٣٨٩ وحتى نهاية ذي الحجة.

على هداية الله

بتاريخ ١٠/١/١٣٨٩

عقد يشتمل على شروط

تأجير قطعة أرض سكنية

المؤجر المرخص	المستأجر المرخص
التوقيع	التوقيع

إن عبد الوهاب المتوكل هو الجد الأعلى للقرويين في دف زيني، وهو الذي قام بجعل أرضه وقفاً. ويعمل أحد أحفاده، وهو حسن أحمد زيني، ناظراً (مشرفاً قانونياً) على الوقف حالياً، أما عاتق بن مستور البشوري فهو أحد القرويين في البشور. محرّم هو الشهر الأول في التقويم الإسلامي، وذو الحجة هو الشهر الثاني عشر. إن التاريخ ١٠/١/١٣٨٩ يوافق على وجه التقريب ٢٨ نوفمبر ١٩٦٩ في التقويم الغريغوري.

إن ماء الشرب من البئر يعود لمكلية أحمد زيني، وهو شيخ من قرية مجاورة، إلا أنه لا يستلم رسم إيجار مقابل ذلك. إن البدو يعتقدون اعتقاداً

راسخاً أن ماء الشرب يعود لله، ويعتبر قيام أي شخص بتقاضي أجر عن ذلك أمراً جديراً بالاحتقار الشديد.

الصورة رقم ١٦ :



قرويون يصبون الماء من البئر مستخدمين دلواً مصنوعاً من كاوتشوك (مطاط) عجلة قديمة

الصورة رقم ١٧ :



موزعو المياه يملؤون خزانات المياه التي ينقلونها على عربات تجرها الحمير إلى زبائنهم في جدة

تجدر الإشارة، بشكل خاص، إلى الرجلين (١) و (٢) في الجدول (٦). الرجل رقم (١) هو معلم يرعى طفلين وابن أخ (أو أخت) تربطه صلة القربى عن طريق الزواج، والشقيقة الصغرى لزوجته التي يقيم والداها في الشامية

التي لا توجد فيها مدرسة حتى الآن . كما أنه يدفع أيضاً ٦٠ ريالاً في الشهر إلى جده المسن والمتقاعد الذي يعيش في الشامية . دفع أربعين ريالاً من المئة ريال الواردة في بند مصروفاته المتنوعة للعلاج الطبي ، إذ عندما كان يرعى قطيعه في الجبال قبل أن يصبح معلماً ، سقط سقطة أدت إلى كسر كتفه وجرح جبينه .

إن الشيخ في الأسرة رقم (٢) يقسم تكاليف الملابس بالتساوي بين زوجتيه حسب تعاليم القرآن . وهو يعيل أفراد أسرته البالغ عددهم أحد عشر شخصاً ، بما في ذلك ابنته المريضة ، كما يتحمل نفقات إرسال ابنين إلى المدرسة المتوسطة في الجموم وثلاثة أبناء إلى المدرسة الابتدائية ، هذا بالإضافة إلى تحمله أعباء إدارة متاجره وتشغيلها . ونظراً لكونه شيخ القرية ، فهو يقوم غالباً بمد يد العون إلى القرويين الآخرين الذين يعانون ضيقاً مالياً ، عن طريق إعطائهم قروضاً مالية ، وتسليفاً إضافياً لشراء الحاجيات من متاجره ، وتأجيل مواعيد دفع ديونهم المستحقة الدفع . إلا أنه قد يقوم بمفاتحة الشخص المدين ، أو أقربائه ، إذا لم يتم دفع دين ما لفترة طويلة . وفي عام ١٩٦٩م عانى هو نفسه من مشاكل مالية ، فباعتباره ناظراً ، واجه ضغطاً من المستأجر لصيانة المضخة وحتى دفع نفقات إصلاحها في بعض الأحيان .

الدَّيْن :

على الرغم من الإخفاق في الحصول على معلومات عن ديون بعض الأسر ، ولا سيما تلك المدينة للبقالين والدلالين في مكة ، كانت جميع الأسر مدينة ما عدا أسرة واحدة . فالأرملة رقم ٢٦ فقط ، التي تعتمد في معيشتها على ابنها رقم ١٥ اعتماداً كاملاً ، كانت غير مدينة . فجميع الأسر الواردة في الجدول (٧) كانت مدينة لدلالها ، بعد اقتراضها مالاً ، أو تجهيزات لسد احتياجات معيشتها بصورة رئيسية . لقد اقترضت الأسرة رقم (١) مالاً إضافياً لتغطية تكاليف استقبال الضيوف والاحتفالات . واقترضت الأسرة رقم (٢) لكي تدير محل البقالة وتشيّد منزلاً وتستأجر حراثة . يوجد دلال واحد في جدة وثلاثة في مكة هم هريس ومكاوي ويوسف . ويوجد محلان للبقالة في البشور هما راجين وقرشان ، وواحد في جدة وآخر في مكة .

على الرغم من أن البنك الزراعي العربي السعودي قد أعطى قروضاً لعشرة

من أصحاب الأراضي في وادي فاطمة لأغراض مثل حفر الآبار وتعميقها ، وشراء المضخات والمحركات ، فإن هذه القروض الكبيرة لا صلة لها باقتصاد البشور . إن القروض المحلية جاءت من مصادر خاصة مثل دلال المزارعين وأصحاب المتاجر .

جدول رقم ٧:

مديونية الأسر

رقم الأسرة	حجم الأسرة	البقالة: مقدار الدَّيْن (ريال)	البقالة: الدائن	البقالة: سبب الدَّيْن	دلال (مكة): مقدار الدَّيْن (ريال)	دلال (مكة): الدائن	دلال (مكة): سبب الدَّيْن	دلال (جدة): مقدار الدَّيْن (ريال)	دلال (جدة): الدائن	دلال (جدة): سبب الدَّيْن
١	٥	٣١٥	ب(ب)ر	١	٥٩٠	د(م)هـ	١، ٢، ٣	-	-	-
٢	١١	١٢٠٨	ب(ج)	٧	٥٠٠٠	د(م)هـ	٤، ٥، ٦ب	٢٥٠٠	د(ج)	٦أب ث
٣	٨	١٢٦	ب(م)	١	١٢٩	د(م)هـ	١	-	-	-
٤	٧	٤٨٠	ب(ب)ر	١	٤١٩	د(م)م	١، ٢، ٣	-	-	-
٥	٧	٤٠٠	ب(ب)ر	١	٢٥٣	د(م)هـ	١	-	-	-
٦	٤	١٩٠	ب(ب)ر	١	٢١١	د(م)هـ	١	-	-	-
٧	٧	؟	ب(م)		٣٥٨	د(م)م	١	-	-	
٨	٥	٤٠٠	ب(ب)ر	١	٢٠٠	د(م)هـ	١	-	-	-
٩	٩	٥٠٠	ب(ب)ر	٢، ٣	١٩١	د(م)هـ	١، ٦ب	-	-	-
١٠	٣	؟	ب(م)	١	٢١٣	د(م)هـ	١	-	-	-
١١	٤	٢٠٠	ب(ب)ر	١	-	-	-	٢٥١	د(ج)	١
١٢	٦	١٤٠	ب(ب)ر	١	-	-	-	٢١٠	د(ج)	١
١٣	٤	٨٠	ب(ب)ر	١	-	-	-	-	-	-
١٤	٤	٧٠	ب(ب)ر	١	-	-	-	١١٦	د(ج)	١
١٥	٢	٨٠	ب(ب)ق	١	٤١٢	د(م)م	١	-	-	-
١٦	٦	٢٢٠	ب(ب)ر	١	٣٣٥	د(م)م	١	-	-	-
١٧	٩	١٤٠	ب(ب)ر	١	٤٢١	د(م)هـ	١	-	-	-
١٨	٢	٥١	ب(ب)ق	١	١١٩	د(م)هـ	١	-	-	-
١٩	٧	١٢١	ب(ب)ق	١	١٠٠	د(م)هـ	١	-	-	-
٢٠	٢	٩١	ب(ب)ق	١	٨٠	د(م)ي	١	-	-	-
٢١	٧	١٢٩	ب(ب)ق	١	٣٥٨	د(م)ي	١	-	-	-

٢٢	٢	؟	ب(م)	١	٢١٨	د(م)ي	١	-	-	-	-
٢٣	٣	٦٠	ب(ب)ر	١	٩٠	د(م)م	١	-	-	-	-
٢٤	١	٤٥	ب(ب)ر	١	-	-	-	٣٠	د(ج)	١	
٢٥	٤	١١٨	ب(ب)ق	١	-	-	-	١٢١	د(ج)	١	
٢٦	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
٢٧	٣	؟	ب(م)	١	١٩٩	د(م)م	١ـ	-	-		
٢٨	٣	؟	ب(م)	١	-	-	-	١١٠	د(ج)	١	
٢٩	٥	١٨٠	ب(ب)ر	١	-	-	-	٢٨١	د(ج)	٢،١	
٣٠	٥	٢٤٠	ب(ب)ر	١	٢٥٩	د(م)ي	١،٦ب	-	-	-	
٣١	٣	١٦٠	ب(ب)ر	١	-	-	-	٩٠	د(ج)	١	
٣٢	٦	؟	ب(م)		-	-	-	٢٨٥	د(ج)	١	
٣٣	٢	؟	ب(م)	١	٢١٩	د(م)ي	١	-	-	-	
٣٤	٢	؟	ب(م)	٢،١	-	-	-	-	د(ج)	١	
٣٥	٢	؟	ب(م)		٤٠١	د(م)هـ	١،٦ب	-	-	-	
٣٦	٣	١٢٠	ب(ب)ر		-	-	-	١٣٠	د(ج)	١	
٣٧	٢	؟	ب(م)		٣١٠	د(م)ي	١	-	-	-	
٣٨	٣	؟	ب(م)		٢١٥	د(م)ي	١	-	-	-	
٣٩	٦	٢٢٨	ب(ب)ر	٢،١	-	-	-	١١١	د(ج)	١	
٤٠	٢	٥٢	ب(ب)ق	١	-	-	-	٣٩	د(ج)	١	
٤١	٢	؟	ب(م)	-	-	-	-	-	-	-	
٤٢	٢	٣٠٠	ب(ب)ر	٢،١	-	-	-	٩٠	د(ج)	١	
٤٣	٤	؟	ب(م)	١	٤٥١	د(م)هـ	١	-	-	-	
٤٤	٥	صفر	ب(ب)ر	١	-	-	-	١١٩	د(ج)	١	
٤٥	٤	؟	ب(م)	١	-	-	-	١٥٠	د(ج)	١	
٤٦	٢	٥٩	ب(ب)ر	١	-	-	-	٣٠	د(ج)	١	

المفتاح :

سبب الدين : ١=نفقات المعيشة ؛ ٢=نفقات الضيوف ؛ ٣=نفقات الأعياد ؛ ٤=بناء منزل ؛ ٥=المرض ؛ ٦=نفقات الزراعة ؛ أ. مضخة ، ب. إيجار محراث ، ج. زيت ؛ ٧=إدارة البقالة .

الدائن : ب(ب)=بقالة في بُشور ؛ ق=قُرشان ؛ ر=راجين ؛ ب(ج)=بقالة في جدة ؛ ب(م)=بقالة في مكة ؛ د(ج)=دلال في جدة ؛ د(م)=دلال في مكة ؛ هـ=هاربس ؛ م=مكاوي ؛ ي=يوسف ؛ -= بدون ديون ؛ ؟=عدم توفر بيانات دقيقة .

وحسب المعلومات ، التي تمكنت من الحصول عليها ، يبدو أن ديون العمال الزراعيين هي أقل من ديون المزارعين ، إذ يبلغ معدل دين هؤلاء (الأرقام ٣٢ و٣٤ و٣٩ و٤٠ و٤٦ في الجدول ٧) ١٦١ ريالاً (٣٨,٦٤ دولاراً أمريكياً) مقارنة بمعدل دين المزارعين البالغ ٥٣٩ ريالاً(١٢٩,٣٦ دولاراً أمريكياً) . ونظراً لكون أجور هؤلاء العمال أقل بشكل عام من أجور المزارعين ، فإنهم أقل قدرة على الحصول على التسليف ، أو اقتراض المال من الدلالين في المدن الذين لا تربطهم بهم صلة مالية .

مما يدعو للدهشة بعض الشيء هو أن القرويين في البشور نادراً ما يقترضون لشراء الحيوانات . وتدعو الحاجة أحياناً إلى الحصول على مؤن إضافية لإطعام الضيوف في مناسبات خاصة أو خلال الاحتفالات ، إلا أن حفلات الزفاف أو المآتم لا تدفع الأسر عادة إلى اقتراض مبالغ كبيرة ، لأن الأسر الأخرى تقوم بتقديم يد العون والمساعدة ، كما لا يقترض المزارعون عادة للاستثمار في تحسين أو توسيع مزارعهم أو محاصيلهم ، بل يتركون هذه المهمة للمستأجر أو صاحب الأرض .

لا تُباع الأرض ولا تُستأجر لأن جميع مزارعي البشور يعملون في مزارع يملكها أفراد عشائر أخرى مثل الشيوف أو الأشراف ، ولهذا السبب لا تتوفر في القرية فرصة البيع والشراء بين الأسر . وعلاوة على ذلك ، يحاول جميع البدو تجنب بيع الأرض الموروثة عن الأجداد مهما كلف الأمر ذلك . فإذا تقرر بيع أرض ما ، فإن صاحبها لا يحاول بيعها إلا إلى شخص آخر من نفس العشيرة ، وفي هذه الحالة يُستثنى من ذلك مزارعو البشور . وباختصار ، فإن المزارعين في البشور لا يملكون دافعاً لشراء الأرض التي يفلحونها .

إن سكان البشور يقترضون المال ويشترون التجهيزات بالتسليف لأن دخل المزارع لا يأتي بصورة شهرية منتظمة ، ويتوجب عليه غالباً الحصول على المال لشراء الطعام والملابس والحاجيات الأخرى قبل استلام المردود الرئيسي من الحصاد . إن الاقتراض هو عرف شائع ، ولذلك لا يشعر سكان البشور بالذنب أو الشذوذ بسبب هذه الديون ، إذ أن لديهم شعوراً قوياً بالضيافة ورد الفضل ، وغالباً ما يقترضون المال للتعبير عن ذلك ، ومقابل هدايا جلبتُها إلى البشور كانوا يقدمون لي أحياناً هدايا بعد عودتهم من الحج من مكة ، وغالباً ما تكون هذه

غالية الثمن بشكل لا مبرر له ، مثل إعطائي علبة كبيرة من الشوكولاته السويسرية . وعندما كنت أستقبل الضيوف من البشور ، كنت أقوم أحياناً بإعداد وجبة تتطلب أقل جهدٍ من المعتاد حتى لا أجعلهم يشعرون بالامتنان العميق لي .

إذا أراد أحد سكان البشور تشييد دار أو بناء حمام ملحق بمنزله ، فإن غلاء التكاليف يضطره إلى اقتراض المال لتحقيق ذلك . فبناء صندقة (منزل من الصفيح) يكلف ما بين ٧٥٠ و١٤٥٠ ريالاً (١٨٠ ـ ٣٢٨ دولاراً أمريكياً) ، ومنزل من الطين ما بين ١٠٠٠ و١٤٠٠ ريالا (٢٤٠ ـ ٣٣٦ دولاراً أمريكياً) ، وبيت من الأسمنت ما بين ٢٠٠٠ و٩٠٠٠ ريال (٤٨٠ ـ ٢١٦٠ دولاراً أمريكياً) . إن بناء حمام على حديقة رملية لمنزل مشيد يكلف الساكن ما بين ١٠٠ و١٠٠٠ ريال (٢٤ ـ٢٤٠ دولاراً أمريكياً) ، وذلك يتوقف على المواد المستخدمة .

والجدير بالملاحظة أن سكان البشور لا ينظمون حساباتهم بدقة ، ويميلون إلى الاعتقاد أن باستطاعتهم دائماً تسديد الديون الإضافية . فإذا كان من المقرر إقامة حفلة زفاف أو احتفال ما ، فإن الأسرة تقترض المال لكي تحتفل بالمناسبة حسب التقاليد العشائرية أو الإسلامية الصحيحة .

الإرث :

تنص الشريعة الإسلامية على تسديد ديون الشخص المتوفى أولاً من الممتلكات التي خلّفها ، ويجري بعد ذلك إعطاء زوجته وأفراد أسرته حصصاً معينة ، ويقسم ملكه بعد ذلك على أبنائه وبناته ، فيأخذ كل ولد حصة له وتأخذ كل بنت نصف تلك الحصة . وقبل وفاة الأب المسن أو الأم المسنة يقضي العرف عادة أن ترث البنات بعض الحاجات الموروثة ، مثل الحلي أو الخيام ، بينما يرث الأبناء حاجات أخرى . ويجتمع عادة الأبناء والبنات والأحفاد والحفيدات بعد الوفاة للقيام بالترتيبات الأخيرة .

والواقع أن الإرث ليس كبيراً ، ما عدا المنازل والحيوانات والمحاصيل والحلي . وعادة ما تظل أسرة الوالدين المتوفيين مقيمة في منزل الأسرة ، إلا أنه إذا نشأ خلاف ، فإن الأمر يُحال إلى المحكمة الشرعية في الجموم حيث يُجرى تقييم المنزل ومنح جميع الورثة حصصاً متساوية . فمنزل من الطين ، مثلاً ، قد يقدر بحوالي ١٠٠٠ ريال (٢٤٠ دولاراً أمريكياً) . وفي حالة وجود الحيوانات ،

لا يجري عادة تقسيم القطيع لتكون حصة كل وريث رأساً أو رأسين من الغنم أو الماعز . وبدلاً من ذلك ، يقرر أحد الورثة استلام القطيع بأكمله ، أو جزء كبير منه ، ثم يدفع مالاً لجميع الورثة الآخرين ، أو بعضهم ، مقابل حصصهم فيه . وفي حالة وجود المحاصيل ، يؤتى بمقيم يدعى «ثقة» لتقدير قيمتها ، ثم يقوم صاحب الأرض ، أو المستأجر ، بتقسيم المبلغ المالي بين الورثة ويستأجر رجلاً آخر ليتولى المسؤوليات الزراعية . وترث الابنة عادة ، دون خلاف أو خصام ، حلي أمها الذهبية أو برقعها . أما إذا وقع نزاع حول هذا الأمر ، فإن هذه المواد تباع في سوق البدو بجدة أو مكة ، ويوزع مردودها المالي بين الورثة ، أو قد تُقيَّم الحلي أحياناً بصورة رسمية في المحكمة الشرعية .

ملكية الأرض والعمال الزراعيون :

إن الشكل (١٥) ، الذي يتعلق بالعلاقات المتبادلة بين المهمات الزراعية في البشور ، يظهر العلاقات بين المزارعين والمستأجرين والناظرين وأصحاب الأراضي (وقد يملك الثلاثة الأخيرون أراضٍ ، أو لديهم مسؤوليات مع مزارعين آخرين لم يرد ذكرهم في المخطط) . وتظهر الإحصاءات أن هناك ثمانية من أصحاب الأراضي المرتبطين بالمزارعين في البشور ، واثنين منهم (المشار إليهما بالأحرف ج جَ) شقيقان يعملان كشريكين . إن جميع هؤلاء هم من أصحاب الأرض الحاضرين ما عدا اثنين المشار إليهما بالحرفين ط وأ ، هما من الملاك المتغيبين حيث يقيمان في مكة ، وهناك قطعة أرض وقف واحدة .

إن فريق مالكي الأرض المقيمين (ج جَ) يستأجر الأرض من المالك المتغيب (ط) كمُستأجر ، ويقوم بدوره بعقد اتفاقية مشاركة مع المزارع رقم ٤٣ (أي من الأسرة رقم ٤٣ في البشور) والمزارعين الآخرين من القرى الأخرى ، ويؤجر مالك الأرض (ط) أيضاً أرضاً أخرى إلى مستأجر ثانٍ (ح) الذي يعمل مع المزارع ٢٧.

لمالك الأرض المتغيب (أ) مستأجر متغيب (ط) يقيم في مكة ، وفريق شريك من المستأجرين المقيمين (ب بَ) يقيم في أبو شعيب . ويعمل لصالح المستأجر المتغيب (ط) شيخ البشور (ك) الذي يشرف على المزارعين ٦ و٩ و١٠ و١٢ و١٣ و١٨ و٣٥ و٤٦، ويملك أيضاً قطعة أرض كبيرة يديرها بنفسه

شكل رقم ١٥ :

العلاقات المتداخلة بين الأدوار الزراعية في بشور

مالك أرض | مستأجر | ناظر | مزارع | عامل زراعي

CC` شركاء
* غائب
S ابن
Y يمني
(44) عامل غير نظامي
Br شقيق
AL عامل زراعي من خارج بُشور
---- مؤقت
W وقف

مباشرة . ويقوم خمسة من هؤلاء المزارعين بفلاحة حقولهم بمفردهم بصورة

عامة . إلا أن للمزارع ٦ ابناً واحداً يعمل معه بصورة منتظمة ، ويوظف الشيخ نفسه عاملاً زراعياً واحداً بصورة منتظمة وآخر بصورة غير منتظمة ، ويقوم أبناؤه الثلاثة بمساعدته في العمل بصورة متقطعة . ويتعاون الشقيقان (ب بَ) مع المزارعين ٣ و٥ و٤١. ويقوم اثنان من هؤلاء المزارعين بفلاحة مزرعتهما بمفردهما ، بينما للمزارع ٥ ابنان يساعدانه في العمل بصورة منتظمة .

إن الشقيقين (ج جَ) ليسا مستأجرين لمالك الأرض المتغيب (ط) ، وإنما هما أنفسهما من ملاك الأرض ، إذ يقوم بفلاحة أرضهما سبعة مزارعين هم ٧ و٨ و١٥ و١٦ (بصورة مشتركة) و١٧ و١٩ و٢٣. ومن بين هؤلاء المزارعين ، يعمل اثنان (٧ و ٢٣) بصورة مشتركة تقريباً ، بينما يوظف المزارع ٨ خمسة عمال زراعيين بصورة غير منتظمة ، ويقوم عامل زراعي أحياناً بمساعدة المزارع ١٧ بصورة غير منتظمة . إن الشقيقين (ج جَ) يشكلان فريقاً قديراً ويعملان دائماً بتعاون كبير ، فعندما جف الينبوع العائد لهما ، سارعا سوية لحفر بئر جديدة على الفور .

إن مالك الأرض المقيم (د) هو رجل قدير وأحد شيوخ أبو شعيب ، وهو يشرف على المزارعين ٢٠ و٢١ (بصورة مشتركة) و٢٢ و٣٠ و٣٨، ويقوم جميع هؤلاء المزارعين بفلاحة أرضهم بمفردهم ، باستثناء المزارع ٣٠ الذي يساعده شقيقه من الأسرة رقم ٣١، ووالد هذا الشقيق عاطل عن العمل .

يملك مالكا الأرض الحاضران (و) و (ز) اللذان يقيمان في الخيف ، قطعاً صغيرة من الأراضي لا تزال فيها ينابيع مياه جيدة ، ويقوم كلاهما بتأجير هذه الأراضي للمزارعين منفردين ، هما ٣٦ و٣٧ على التوالي . ويقوم الابن الوحيد للمزارع بمساعدة أبيه بصورة منتظمة . وقد عمل مالك الأرض (ح) المقيم في جدة ، في الماضي ، كمحاسب يكسب دخلاً كبيراً ، ثم استأجر أرض (هـ) واشترى أرض مالك فقير من نفس العشيرة ، وهي غرشان من قريش ، ويقوم حالياً بتأجير أرضه إلى المزارع ٤٤.

يستأجر الأرض الوقف مستأجر متغيب هو (ي) ، وهو رجل أعمال ثري من جدة يدير مجموعة من محلات البقالة في جدة ومكة ، وينوي بيع الأطعمة المجمدة في هذه المحلات ، وكان في السابق شيخاً يقيم في دف زيني ، يواصل ابنه ، الذي يؤهله عمره لدخول المدرسة الثانوية ، دراسته في لندن ، ولو أنه يزمع

العودة إلى المملكة العربية السعودية لمساعدة والده في إدارة أعماله . ولصالح المستأجر (ي)، يقوم الناظر (ل) بالإشراف على اثنين وأربعين مزارعاً بالإجمال، بما في ذلك مزارعَيْن من البشور، رقم (٤)، الذي كان يساعده ابناه، والذي يعمل الآن في مزرعة المستأجر (ي) كعامل زراعي بأجر شهري قدره ٢١٠ ريالات، والمزارع رقم (٣٢)، الذي يعمل في مزرعة الفواكه والبرسيم هذه بأجر شهري قدره ٢٤٠ ريال .

يمكن إيجاز الوضع الزراعي في البشور بالقول بأن من بين ثلاثين مزارعاً (في حالتين يقوم شقيقان بفلاحة مزرعة واحدة سوية)، خمسة يتلقون مساعدة من أبنائهم بصورة منتظمة (١٦,٥ بالمئة)، وعشرة يستأجرون عمالاً زراعيين بصورة منتظمة (٣٣,٠ بالمئة)، وثلاثة يستأجرون بعض المساعدين الزراعيين بصورة غير منتظمة (٩,٩ بالمئة). يوجد في المزرعة رقم (٨) خمسة عمال زراعيين يعملون بصورة غير منتظمة . أما المزارعان ٤ و٣٢ اللذان يعملان تحت إدارة المستأجر (ي)، فهما يتميزان بكونهما يعملان في المزرعة الوحيدة التي تزرع فيها محاصيل للمدى البعيد . وتجدر الإشارة إلى أن هناك نوعين من العمال الزراعيين، أولئك الذين يستأجرهم المزارعون ويقبضون أجوراً يومية، وأولئك الذين يستأجرهم المستأجر ويقبضون أجوراً شهرية .

يبين الجدول (٨) مساحات المزارع، وأكبرها تلك العائدة للشيخ رقم (٢)، وتبلغ مساحتها ٢٠ دونماً تقريباً . وتبلغ مساحة أصغر مزرعة ٨ دونمات، بينما يبلغ معدل مساحة المزارع في البشور حوالي ١٢ دونماً . إن المساحة الإجمالية للأرض الزراعية، التي يفلحها مزارعو البشور، تبلغ ٣٩١ دونماً تقريباً. عندما أجريت هذه الإحصاءات في عام ١٩٧٠م، خصصت مساحة قدرها ٢١٨ دونماً للمحاصيل الصيفية (البطيخ الأخضر والخربز والبامية)، و١٦٥ دونماً للمحاصيل الشتوية (الطماطم والباذنجان والفلفل الحار وغيرها)، و٨ دونمات للمحاصيل الدائمة مثل الحناء والبرسيم .

جدول رقم ٨:

البنية الزراعية في بشور، مارس (١٩٧٠)

رقم الأسرة	المهنة	مالك/أرض	مستأجر	مالك/بئر	ناظر	الحقول المزروعة (مؤسسة الدنم): محصول شتوي	محصول صيفي	محاصيل أخرى	إجمالي المحاصيل	نسبة توزيع الدخل: مزارع	ناظر	مستأجر	مالك أرض
١	مد	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٢	ك م	أ*	ط*	ط*	نفسه	٦	١٠	٤	٢٠	1/2	-	1/2	-
٣	م	أ*	ب ب	ب ب	-	٤	٦	-	١٠	1/2	-	1/2	-
٤	ع ز	قف	ي*	ي*	ل	٦	٨	-	١٤	٢١٠ـ ريال شهرياً	-	-	-
٥	م	أ*	ب ب	ب ب	-	٤	٦	-	١٠	1/2	-	1/2	-
٦	م	أ*	ط*	ط*	ك	٤	٤	-	٨	1/2	1/4	1/4	-
٧	م	ج ج	-	ج ج	-	٤	٨	-	١٢	1/2	-	-	1/2
٨	م	ج ج	-	ج ج	-	٨	٨	-	١٦	1/2	-	-	1/2
٩	م	أ*	ط	ط	ك	٤	٤	-	٨	1/2	1/3	-	-
١٠	م	أ*	ط	ط	ك	٤	٦	-	١٠	1/2	1/4	-	-
١١	ع ز	-	-	-	-	-	-	-	-	١٠ـ٨ ريال يومياً	-	-	-
١٢	م	أ*	ط*	ط*	ك	٤	٨	-	١٢	1/3	1/3	-	
١٣	م	أ*	ط*	ط*	ك	٤	٤	٢	١٠	1/4	3/8	-	
١٤	هجر	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٥	م	ج ج	-	ج ج	-	٨	٨	-	١٦	1/2	-	-	
١٦	م	ج ج	-	ج ج	-	٨	٨	-	١٦	1/2	-	-	1/2
١٧	م	ج ج	-	ج ج	-	٦	٨	-	١٤	1/2	-	-	1/2
١٨	م	أ*	ط*	ط*	ك	٤	٦	٢	١٢	1/2	1/4	1/4	1/2
١٩	م	ج	-	ج	-	٤	٦	-	١٠	1/2	-	-	1/2
٢٠	م	د	-	د	-	٦	٨	-	١٤	1/2	-	-	1/2
٢١	م	د	-	د	-	٤	٨	-	١٢	1/2	-	-	1/2
٢٢	م	د	-	د	-	٦	٤	-	١٠	1/2	-	-	1/2
٢٣	م	ج	-	ج	-	٦	٨	-	١٤	1/2	-	-	1/2
٢٤	م م	(ز)	-	(ز)	-	-	-	-	-	-	-	-	-

٢٥	هجر	-	-	-	-	-	-	-	-	-			
٢٦	عط	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٢٧	م	هـ*	ح	ح	-	٨	١٠	-	١٨	١/٢	-	-	١/٢
٢٨	مد	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٢٩	إم	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	
٣٠	م	د	-	د	-	٨	٨	-	١٦	١/٢	-	-	١/٢
٣١	عط	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٣٢	ع ز	قف	ي*	ي*	ل	٦	٨	-	١٤	٢٤٠ ريال شهرياً	-	-	-
٣٣	عط	-	-	-	-	-	-	-	-	-			
٣٤	ع ز	-	-	-	-	-	-	-	-	٦ـ١٠ ريال يومياً	-	-	-
٣٥	م	أ*	ط*	ط*	ك	٦	٦	-	١٢	١/٢	١/٤	١/٤	-
٣٦	م	و	-	م	-	٦	٨	-	١٤	١/٢	-	-	١/٢
٣٧	م	ز	-	ز	-	٤	٦	-	١٠	١/٢	-	-	١/٢
٣٨	م	د	-	د	-	٦	٨	-	١٤	١/٢	-	-	١/٢
٣٩	ع ز	(أ)	(ط)	(ط)	(ك)	(٤)	(٤)	-	٨	-	-	-	-
٤٠	م	أ*	ب ب	ب ب	-	٤	٨	-	١٢	١/٢	-	-	١/٢
٤١	م	أ*	ب ب	ب ب	-	٤	٦	-	١٠	١/٢	-	-	١/٢
٤٢	عط	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٤٣	م	هـ*	ج ج	ج ج	-	٥	٨	-	١٣	١/٢	-	-	١/٢
٤٤	م	ح	-	ح	-	٦	٦	-	١٢	١/٢	-	-	١/٢
٤٥	ع ز	أ*	ط*	ط	ك	٤	٦	-	١٠	١٤٠ ريال وشهرياً			
٤٦	هـ	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-

المفتاح :

المهنة : مد= مدرس ؛ م= مزارع ؛ ع ز= عامل زراعي ؛ م م= مزارع متقاعد ؛ عط= عاطل ؛ إم= إمام ؛ هجر= مهاجر .

مالك أرض ، مستأجر ، ناظر (الوضع ومحل الإقامة) :

أ= مالك أرض ، مكة

ب ب= شقيقان ، شريكان ومستأجران ، أبو شعيب

ج ج= شقيقان ، شريكان ، مالك أرض ومستأجران ، عين شمس

د= مالك أرض ، أبو شعيب

هـ= مالك أرض ، مكة

و= مالك أرض ، خيف

ز= مالك أرض ، خيف

ح= مالك أرض ومستأجر ، قرشان

ط= مستأجر ، مكة

ي= مستأجر ، جدة

ك= شيخ بشور ، ناظر ومزارع

ل= ناظر ، دف زيني

مفاتيح أخرى :

*= غائب

قف= وقف

( )= سابقاً

استعمال المياه للأغراض الزراعية :

كان ملاك الأرض في وادي فاطمة ، في الماضي ، يملكون أيضاً ينابيع المياه التي زودت الحقول الزراعية بالمياه ، إلا أنه عندما أصبح من الضروري حفر آبار عميقة ، وشراء مضخات لتوريد كميات كافية من المياه ، لم يكن العديد من ملاك الأرض يملكون المال اللازم لتحقيق ذلك . وهكذا ، ظهر المستأجرون الذين هم عادة تجار أثرياء قادرون على استثمار رأس المال اللازم والحصول على مردود من استثماراتهم في المزارع . ولا يملك المستأجر مصدر توريد المياه ويتحكم أيضاً بتوزيع المياه فحسب ، وإنما يعمل أيضاً مع المزارعين كمخطط وخبير زراعي . ويقدم المستأجر توصيات بزراعة أنواع معينة من المحاصيل الصيفية أو الشتوية ، التي قد تعود بربح أكبر عند زراعتها في مزرعة معينة ، كما يقوم باحتساب كميات المياه المطلوبة لسقي المحصول خلال الفصل ، فعلى سبيل المثال يتوجب سقي محصول البطيخ الأخضر طوال اليوم . وتجري مراجعة توزيع المياه وإعادة جدولتها مرتين في العام ، استناداً على القوة العاملة ، وقدرة كل مزرعة والمحاصيل المزروعة . وعلى الرغم من أن كميات المياه الموردة تقسم بصورة عامة بالتساوي بين فترات نهارية وليلية لكل مزرعة ، فإن صحة وقدرة كل مزارع تؤخذان أيضاً بعين الاعتبار .

يتضمن الجدول (٩) مثالاً على جدول للسقي الزراعي ، يستند على مساحة من الحقول تعتمد بأكملها على المياه الواردة من نفس المضخة ، وهذا هو مثال على حقل من صنف أ ـ ط ـ ك ، أي أن فيه مجتمعاً زراعياً مؤلفاً من مالك

متقيب ومستأجر وناظر (راجع الشكل ١٥). إن هذا الجدول أقل تعقيداً في فصل الشتاء لأن المحاصيل لا تحتاج إلى السقي بصورة متكررة، إذ يكفي القيام بسقيها مرة كل أربعة أو خمسة أيام.

جدول رقم ٩:

جدول الري الزراعي لمساحة من الحقول تروى من مضخة واحدة، صيف عام ١٩٧٠. مثال لمجتمع حقل زراعي أ ـ ط ـ ك

يوم	نهاراً	مزارع	ليلاً	مزارع
السبت	٠٥,٣٠ ـ ١٥,٠٠	(ر)	١٨,٠٠ ـ ١٩,٠٠	(ر)
	١٥,٠٠ ـ ١٨,٠٠	٤٥	١٩,٠٠ ـ ٠٦,٠٠	٢
الأحد	٠٦,٣٠ ـ ١١,٣٠	١٠	١٩,٠٠ ـ ٠٠,١٥	٣٥
	١٣,٠٠ ـ ١٨,٠٠	٢	٠٠,١٥ ـ ٠٥,٣٠	٩
الاثنين	٠٦,٣٠ ـ ١١,٣٠	١٨	١٨,٠٠ ـ ١٩,٠٠	(ر)
	١١,٣٠ ـ ١٣,٠٠	(ر)	١٩,٠٠ ـ ٠٦,٠٠	١٣
	١٣,٠٠ ـ ١٨,٠٠	٢	٠٦,٠٠ ـ ٠٦,٣٠	(ر)
الثلاثاء	٠٦,٣٠ ـ ١١,٣٠	١٠	١٨,٠٠ ـ ٢١,٠٠	٦
	١١,٣٠ ـ ١٣,٠٠	(ر)	٢١,٠٠ ـ ٠٦,٠٠	٢
	١٣,٠٠ ـ ١٨,٠٠	٩		
الأربعاء	٠٦,٠٠ ـ ١١,٣٠	١٠	١٨,٠٠ ـ ١٩,٠٠	(ر)
	١١,٣٠ ـ ١٣,٠٠	(ر)	١٩,٠٠ ـ ٠٠,١٥	١٨
	١٣,٠٠ ـ ١٨,٠٠	٢	٠٠,١٥ ـ ٠٦,٣٠	٢
الخميس	٠٦,٣٠ ـ ١١,٣٠	٣٥	١٨,٠٠ ـ ١٩,٠٠	(ر)
	١١,٣٠ ـ ١٣,٣٠	(ر)	١٩,٠٠ ـ ٠٦,٠٠	٢
	١٣,٠٠ ـ ١٨,٠٠	٩		
الجمعة	٠٦,٠٠ ـ ١٨,٠٠	١٣	١٩,٠٠ ـ ٠٠,٠٠	٩
	١٨,٠٠ ـ ١٩,٠٠	(ر)	٠٠,١٥ ـ ٠٥,٣٠	٣٥

ملحوظة: الأرقام في العمودين الثالث والخامس هي أرقام الأسرة. (ر)= فترة راحة للمضخة (قد تستخدم لتنظيفها أو إعادة تزويدها بالوقود).

المحاصيل المزروعة: ٢ ـ بامية، كرات، حنة؛ ٦ ـ بامية، بطاطا؛ ٩ ـ بامية، جرجير، ملوخية، خريز، وجلة؛ ١٠ ـ خريز؛ ١٣ ـ بامية، كرات؛ ١٨ ـ بامية؛ ٣٥ ـ بطاطا، برسيم، ملوخية، خريز؛ ٤٧ ـ بامية.

في هذا الجدول، يستلم الشيخ رقم (٢) الماء لمدة ٥٠,٢٥ ساعة كل أسبوع (٣٦,٦ بالمئة من الوقت)، والمزارع رقم (٩) لمدة ٢١,٢٥ ساعة (١٤,٢ بالمئة من الوقت)، والمزارع رقم (١٠) لمدة ١٥,٥ ساعة (١٠,٩ بالمئة من الوقت)، والمزارع رقم (٣٥) لنفس عدد الساعات السابق، والمزارع رقم (١٣) لمدة ٢٣ ساعة (١٦,١ بالمئة من الوقت)، والمزارع رقم (١٨) لمدة ١٠,٢٥ ساعات (٧,١ بالمئة من الوقت)، والمزارعان (٦) و (٤٥) لمدة ٣ ساعات (٢,١ بالمئة من الوقت). ويتم وقف المضخات عن العمل لكي تزود بالوقود وتنظف وتصلح خلال فترة ٢١ ساعة من كل أسبوع، ولمدة ٩,٥ ساعات يوم السبت، وخلال فترتين تستغرقان ساعة واحدة وساعة ونصف خلال الأسبوع.

يجري تشغيل المضخة لفترة إجمالية طولها ١٤٢,٧٥ ساعة خلال الأسبوع لتوريد المياه لمساحة من الحقول قدرها ٨٦ دونماً، وبهذا يتم سقي مساحة قدرها ١,٦٦ دونماً لمدة ساعة واحدة كل أسبوع. إلا أنه لا يجري توزيع المياه بالتساوي على جميع أجزاء الأرض؛ فقد استلم المزارع (٣٥)، الذي يملك ١٢ دونماً من الأرض، مياهاً لمدة ١٥,٥ ساعة خلال كل أسبوع، بينما استلم المزارع (٩) (الذي يشمل محصوله البطيخ الأخضر) مياه سقي لمدة ٢٠,٢٥ ساعة لثمانية دونمات من الأرض فقط. كما أن الجدول الزمني غير موزع بالتساوي هو الآخر، فالشيخ يتسلم خلال الليل ضعف كمية المياه التي يستلمها خلال النهار، وهذا هو الحال مع المزارع (٣٥)، بينما يستلم المزارع رقم (١٠) مياه سقي لمدة ١٥,٥ ساعة (جميع كمية المياه الواردة إليه) خلال النهار.

إن نوع المحاصيل المزروعة وكميتها هما اللذان يحددان مقدار المياه التي يحتاجها المزارعون. فمحصول الخربز، مثلاً، يتطلب كمية كبيرة من المياه. وفي المثال المذكور أعلاه، كان ستة مزارعين من مجموع ثمانية يزرعون على الأقل محصولاً جزئياً من البامية، وكان ثلاثة من المزارعين يزرعون محصولاً واحداً فقط لكل منهم، فاثنان زرعا البامية وواحد زرع الخربز. وقام مزارعان بزرع ما لا يقل عن أربعة أنواع مختلفة من المحاصيل.

تُدعى فترة السقي المؤلفة من اثني عشر ساعة «وجبة»، والفترة المؤلفة من أربعة وعشرين ساعة «وجبتين»، وتسمى الفترة المؤلفة من ست ساعات «نص

(نصف) وجبة»، وتلك المؤلفة من ثلاث ساعات «ربع وجبة»، وهلم جرّا. ويقوم مشرفا البئر عادة بالإشراف على توزيع المياه، ويعملان أربع نوبات كل أربع وعشرين ساعة: نوبتين خلال النهار ونوبتين خلال الليل. ولأن مستأجر هذه الأرض (ط) متغيب عنها، يتولى الشيخ (ك) مسؤولية تحديد كميات المياه الموزعة. فإذا احتاج أو أراد المزارع كمية إضافية من المياه، فيجب عليه إجراء ترتيبات مع الشيخ بشأن ذلك.

قبل شيوع استعمال مضخة الماء والساعة اليدوية والراديو النقال (الذي يعلن الوقت) في وادي فاطمة، كان سكان القبائل يتبعون طريقة خاصة لقياس كميات المياه الموزعة على المزارعين المختلفين في منطقة ما من الينبوع العائد لهم. فقد كان المزارعون يضعون مقلاة في قعرها ثقب صغير جداً على سطح الماء في حوض كبير، ثم يراقبون امتلاءها بالماء بصورة بطيئة وعندما تغطس المقلاة حتى قعر الحوض، يعلن أحد المزارعين قائلاً: «لقد غطست الطاسة الآن. لقد جاء دوري لاستعمال المياه لسقي حقولي الزراعية». كان امتلاء المقلاة بالماء ونزولها إلى قعر الحوض يستغرق خمس عشرة دقيقة تقريباً، وأصبحت هذه الفترة الزمنية وحدة اعتيادية لقياس الوقت اللازم الخاص باستعمال المياه للسقي. كما كان يُجرى أحياناً بيع المياه بالمزاد العلني عندما يزداد الطلب عليها، إذ كان كل مزارع يعرض سعراً مقابل عدد معين من فترات استخدام المياه.

الأدوات الزراعية:

يملك كل مزارع في البشور مسحاة (معزقة) ومقراب (سكين صغيرة). وتستخدم المسحاة في فلاحة الأرض وتوجيه المياه في مجاريها، ويستخدم المقراب في قطع الحشائش للأغنام والماعز وبعض الخضروات الصغيرة، مثل الكرات والكزبرة والبقدونس. أما المزارعون، الذين يزرعون البرسيم والنخيل، فيملكون محشاً ومنجلاً. فالمحش هو سكين مدببة معقوفة تستخدم لقطع البرسيم والأعواد وسعف النخيل، بينما يستخدم المنجل لقطع الأجزاء الغليظة من أشجار النخيل. إلا أنه لا يوجد في البشور سوى ثلاثة مزارعين يزرعون البرسيم ومزارع واحد يفلح مزرعة للنخيل.

الصورة رقم ١٨:



مزارع من بشور يعمل بمقراب (نوع من السكاكين)

يملك واحد وعشرون مزارعاً (حوالي ٥٠ بالمئة من مزارعي البشور) فأساً لقطع أشجار السدر والسلم، ولا يملك شوكة (مدمة)، أو مقصاً، إلا شيخ البشور. وتستخدم الشوكة لتسوية التربة، وعلى الرغم من أنها لا تستعمل بشكل متكرر فإن المزارعين يقترضونها أحياناً من الشيخ، أو من مزارعين آخرين، في دف زيني وأبو شعيب، ويستخدم المقص لتشذيب نبات الحناء. وعلى الرغم من أن الماشية كانت تستخدم في حرث التربة في الماضي، فقد بدأ استعمال الحراثات في وادي فاطمة في عام ١٩٥٣م تقريباً. ويملك مواطن فلسطيني، يعمل ميكانيكياً للمضخات، حراثتين يقوم المزارعون في البشور باستئجارهما منه في الوقت الحاضر. وبما أن كلفة تأجير الحراثة يتراوح ما بين ٧ و٨ ريالات في الساعة، خلال الفترات الاعتيادية، أو ١٢ ريالاً في الساعة، عقب فترة الأمطار والسيول، فإن استخدام الحراثة أرخص من استخدام الماشية في الحرث.

تسويق المنتوجات الزراعية:

كان الجمّال، في الماضي، يجمع الخضروات التي يزرعها الفلاحون في الوادي، وينقلها على جمله إلى الأسواق في جدة ومكة، أما اليوم، وبالرغم من أن الشاحنة حلّت محل الجمل كوسيلة نقل، فإن لفظة (الجمّال) لا تزال شائعة الاستعمال. فمرة كل يومين، يوزع الجمال صناديقاً ومواعيناً (أواني أو أكياس أو زنابيل تعبأ بالخضروات) إلى المزارعين الذين ينقل محاصيلهم. ويملأ هؤلاء

المزارعون الصناديق الخشبية بالبطيخ ، أو الطماطم ، أو البامية ، أو الفجل الأحمر ، أو الملوخية ، أو الكزبرة ، أو البرسيم ، أو البطاطس الحلوة ، أو أية محاصيل أخرى ، ثم يقوم الجمال ، مع سائق شاحنته ، بجمع صناديق الخضروات هذه من المزارعين سوية مع قوائم البيع ويأخذها إلى جدة أو مكة .

ويقضي الجمّال الليلة في المدينة لأن حلقة الخضروات (سوق بيع الخضروات وشرائها بالجملة) تفتح أبوابها عادة في الصباح المبكر ، حوالي الساعة الخامسة صباحاً . ويقف الجمّال بجانب دلاله (سمسار الأطعمة في المدينة) ويسجل على قطعة ورق تدعى «الوصل» اسم المزارع ، والسعر المستلم ، مقابل بيع منتوجه الزراعي . وبعد انتهاء المزاد ، يعود الجمّال إلى وادي فاطمة ويسلم المزارعين قوائم البيع الخاصة بهم والصناديق الفارغة . ولأن الجمّال يضطر إلى قضاء الليلة في المدينة ، ولأن الخضروات المحصودة ينبغي نقلها إلى السوق كل يوم ، فإن لكل مزارع جمالين ، أما المزارعون القادرون مثل رقم (٢) ، فلديهم أربعة جمالة ، اثنان لجدة واثنان لمكة .

يتولى الدلال مهمة بيع الخضروات إلى المشترين الذين يتجمعون كل يوم في سوق بيع وشراء الخضروات بالجملة ، ويتقاضى هذا الدلال عمولة قدرها ٧,٥ بالمئة عن جميع الخضروات المباعة ، و٥ بالمئة عن جميع الفواكه المباعة . ولا يوجد سوى مزارع واحد رقم (٣٢) يقوم بزراعة الفواكه ، وذلك هو المزارع العامل في مزرعة المستأجر المتغيب (ي) التي تدار برأس مال كثيف . وتكاد الخضروات تشكل جميع المنتوجات الزراعية التي ينتجها مزارعو البشور . وفي نهاية كل حصاد لنوع واحد من الخضروات ، يقوم الدلال بحساب الدين الذي يتوجب على كل مزارع لتسديده له ، بالإضافة إلى الأرباح التي تحققت من المبيعات الأخيرة . وكما ذُكر آنفاً ، يصبح جميع المزارعين مدينونين لدلاليهم ، ولا سيما خلال الفترات الفاصلة بين مواعيد الحصاد ، وبعضهم يظل مديوناً حتى بعد انقضاء فترة الحصاد . ويناقش الدلال مع الجمال مدى الجهود التي يبذلها كل مزارع في عمله ، ومقدار وعيه بالمسؤولية المالية . ومما يدعو للدهشة هو معرفة الدلال الدقيقة بظروف كل مزارع رغم عدم معرفته الشخصية به . وعندما يريد المزارع اقتراض المال ، يبلغ الجمال الذي يقوم بتدوين التاريخ والمبلغ على الوصل العائد له ، ثم يأتي بالمال المطلوب من الدلال . فإذا أراد المزارع اقتراض

مبلغ كبير من المال من الدلال ، فقد يصدر هذا الدلال سند استلام بالمبلغ المقترض .

الصورة رقم ١٩ :



مزايدة على بطيخ في سوق الجملة للخضار بجدة

يوجد في جدة أربعة دلالين منفردين ، وشركة دلالة (سمسرة) كبيرة يعمل فيها ستة وعشرون وكيلاً يتقاضون رواتب محددة . وتمنح سلطات البلدية ترخيصاً للدلال لممارسة مهنته ، وتقوم هذه السلطة عادة باستشارة الدلال المستقل ، وشركة السمسرة ، قبل اتخاذها قرارها الأخير . أما في مكة ، فيوجد ثلاثة دلالين يتصفون بروح المبادرة ، بالإضافة إلى شركة لها تأثير كبير على السوق .

الحيوانات الزراعية والداجنة :

يتضمن الجدول (١٠) إحصاءات عن الحيوانات التي تربى في البشور . تقوم ٧٤,٨ بالمئة من الأسر بتربية الأغنام ، و٦٢,٢ بالمئة بتربية الماعز ، و٧٦,٩ بالمئة بتربية الدجاج و٢٧ بالمئة بتربية الحمير .

إلا أن ما هو أهم من عدد الأسر ، التي تملك حيوانات ، هو قلة عدد هذه الحيوانات . إن عدد الحيوانات الزراعية والداجنة الموجودة لدى مجموعة سكانية هو عادة مؤشر جيد إلى مدى استقرار هذه المجموعة ، لأنه كلما زاد اعتماد البدو على النشاط الزراعي ، كلما قل اهتمامهم بتربية الحيوانات . ولأن سكان البشور جاؤوا إلى المنطقة مع عدد محدود من الحيوانات ، يمكننا الافتراض بأنهم كانوا

فقراء إلى حد ما قبل استقرارهم فيها ، وربما كان فقرهم عاملاً مهماً في جعلهم يستقرون في بيئة صالحة للزراعة . وقبل عام ١٩٦٠م كانت كل أسرة تملك جملاً أو جملين ، أما الآن ، فيجري استيلاد الحمير وتربيتها لحمل الماء ولنقل الأشخاص إلى الحقل .

جدول رقم ١٠ :

المواشي والدواجن في بُشور

رقم الأسرة	خروف	نعجة	ماعز (ذكر)	ماعز (أنثى)	ديك	دجاجة	حمار (ذكر)	حمار (أنثى)
١	-		-		-	٣	-	-
٢	٤	٢٥	١	٨	٣	٩	-	١
٣	٤	٩	١	٣	٤	١١	-	-
٤	٣	١٥	١	٣	٥	٣	١	-
٥	١	١٥	-	٧	١	٧	-	-
٦	٢	٤	-	٥	٢	٧	١	١
٧	٥	٩	١	٢	١	٤	-	-
٨	-	٢١	-	-	-	٣	١	-
٩	٥	١٢	٢	٣	٤	٢١	-	-
١٠	٣	٧	-	١	٢	١٢	-	-
١١	-	٩	-	-	-	١	-	١
١٢	٣	١١	١	١	-	-	١	-
١٣	٤	٩	-	٣	-	-	-	١
١٤	٢	٣	-	١	-	٢	-	-
١٥	-	-	-	-	-	٤	١	-
١٦	٢	٥	٢	٧	-	٧	١	١
١٧	٣	٣	٣	٣	٢	٩	-	١
١٨	٢	٥	١	٢	٢	٤	-	-
١٩	١	١	٣	٥	١	٤	-	-
٢٠	١	١١	-	٢	-	٩	-	-
٢١	-	٩	١	٤	١	١١	-	-
٢٢	-	-	-	-	-	-	-	-
٢٣	-	-	١	٣	١	٥	-	-
٢٤	-	-	-	-	-	-	-	-
٢٥	-	-	-	-	-	-	-	-
٢٦	١	٧	-	-	-	٩	-	-
٢٧	١	١	-	-	١	٦	-	١
٢٨	١	-	-	٣	-	٢	-	-
٢٩	-	٤	-	٥	١	٢	-	-
٣٠	-	-	١	٣	-	٣	-	-
٣١	-	١٥	-	-	-	٣	-	١
٣٢	-	٣	-	٢	-	٤	-	-
٣٣	-	١٥	-	-	-	٤	-	١
٣٤	-	-	-	-	-	٥	-	-
٣٥	-	١	-	٣	١	٥	-	-
٣٦	١	٣	٢	١	-	-	-	-
٣٧	-	١	-	٢	-	-	-	-
٣٨	١	١٥	-	-	-	٦	-	١
٣٩	-	٢	٣	١٥	-	٤	-	١
٤٠	-	٢	-	-	-	٢	-	-
٤١	١	١	٢	٥	١	٢	-	-
٤٢	١	٢	-	-	-	٨	-	-
٤٣	٢	١١	١	٩	٣	١٠	١	-
٤٤	-	-	-	-	-	-	١	-
٤٥	-	-	-	٣	-	-	-	-
٤٦	-	-	-	-	-	-	-	-
الإجمالي	٥٤	٢٦٦	٢٧	١٤٤	٣٦	٢١١	٨	١١

يسمى فحل الغنم «خروفاً» أو «طلياً» ، وتسمى الأنثى «نعجة» ، وفحل الماعز «تيساً» وأنثى الماعز «عنزة» أو «شاة» . إلا أن الخرفان والماعز تدعى «غنماً» ، ويميز بين الصنفين عن طريق حليبهما فقط . فحليب النعجة أغلظ قواماً من حليب العنزة وأكثر تفضيلاً ، إلا أن هناك اهتماماً كبيراً بفوارق الجنس والعمر لأنثى الماعز (العنزة) . وتربى ذكور الأغنام للاستفادة من لحمها وجلدها وصوفها ، وإناث الأغنام للاستفادة من حليبها وتناسلها وجلدها وصوفها ولحمها . كان سكان البشور يربون الجمال لأغراض النقل والاستفادة من حليبها ، إلا أن مهمة النقل تقوم بها الآن السيارات ، مثل الشاحنات والدبابات

(الدراجة النارية) والحمير، وحل محل حليب الجمال حليب النعجة والعنزة.

عندما يبيع سكان البشور حيواناتهم الزراعية والداجنة، يحاولون دائماً بيع ذكورها. ففحل الغنم عادة يباع بسعر يتراوح ما بين ٧٠ و٩٠ ريالاً، وأنثى الغنم مقابل ١٥٠ ريالاً، والرخلة (أنثى الغنم قبل البلوغ) مقابل ١١٠ ريالات، والنعجة (أنثى الغنم الكبيرة السن) مقابل ٥٠ ريالاً. وقد يكلف الديك ٥ ريالات، بينما نادراً ما تباع الدجاجات. وعلى الرغم من أن لا أحد يربي الجمال في البشور حالياً، فإن الجمل يباع عادة بسعر ٥٠٠ ريال.

الحرف البدوية:

تعمل النساء في البيوت بنشاط لصنع شتى أنواع الحاجيات النافعة، مثل السجاد والمراوح والسفرات (مناضد طعام من سعف النخيل)، والزنابيل (السلال)، والبسط الصوفية، والحصر من سعف النخيل، والتلي (قماش لصنع البراقع). ويُصنع جميع الأبسطة والمراوح والمناضد والسلال من سعف النخيل. ونظراً لقلة السعف هذه الأيام، فيجري شراؤه من سوق البدو. فعلى سبيل المثال، يكلف السعف (المادة التي تصنع منها الحصر) ٨ ريالات، ويباع الحصير الواحد، الذي يستغرق صنعه أكثر من شهر، بسعر ٢٠ ريالاً، ويصنع التلي، أو الخيوط المزينة التي تستعمل في البراقع، من مواد خاصة تشترى أيضاً من سوق البدو.

وعندما لا يكون الرجال مشغولين في الحقول، فإنهم يقومون بصنع الحبال والمكانس. ويستخدم جزء من ليف النخيل في صنع الحبال، بينما تصنع المكانس من جريد النخل (جزء معين من سعف النخيل). وتشهد البشور اليوم اختفاء المنتوجات البدوية بصورة تدريجية بسبب موت أشجار النخيل في جميع أنحاء وادي فاطمة، وكذلك بسبب تدفق السلع المستوردة من الخارج، التي هي أرخص ثمناً وأكثر توفراً وأسهل استبدالاً. وعلى الرغم من أن مركز التنمية الاجتماعية سعى لتشجيع الحرف البدوية في وادي فاطمة، إلا أن هذه الحرف آخذة بالتضاؤل فعلاً.

المتاجر في البشور:

يتضمن الجدول (١١) قائمة بالسلع التي يشيع بيعها في متجرين يديرهما

جدول رقم ١١:

المواد المباعة في بقالة بُشور

مواد بقالة	مواد عامة
فول (معلب)	حقائب
زبدة	بطاريات
حلاوة	قماش
بن - قهوة	طعام للأغنام (ذرة، حبوب قصب)
دقيق	بخور (غمرة، خلنجان، مستكة)
عدس (حبوب)	زمام منزلق (سست)
حليب معلب	عيدان ثقاب
أناناس معلب	زجاجات رضاع
أرز	دفاتر
ملح	زيت للشعر
مصاصات	زيت لمكائن الخياطة
سكر	بودرة لاسعة
شاي	طعام للحمام والدجاج (حبوب دُخن)
صلصة طماطم	أمواس حلاقة
تونا معلبة	كاوتش
علب سمن	صنادل (خفاف ونعال)
خبز	صابون
زيت زيتون	موازين
علب زيتون	نشوق
	فانيلات
	كلونيا
	بنزين وغاز
	ماء ورد
	مباخر وبخور
	زيت سراج
	كحل
	إبر

الشيخ في البشور، بما في ذلك سلع البقالة والسلع العامة. وهناك دكان بقالة ثالث أيضاً في البشور، يديره أحد سكان حي القرشان، تعيش أسرته في مكة، ويعود هو إلى مكة كل جمعة. كان أحد المتجرين العائدين للشيخ مملوكاً من قبل مواطن يمني قرر العودة إلى بلاده، فباع المتجر إلى الشيخ مقابل ٢٠٠٠ ريال (٤٨٠ دولاراً).

وفي الحقيقة، إن متجر البقالة في البشور مليء بمنتوجات زراعية تشترى من متاجر البقالة في جدة ومكة وتباع في البشور بزيادة تتراوح ما بين ٥ و٢٠ بالمئة من سعر الشراء. والقرويون الذين تتاح لهم فرصة الذهاب إلى المدن، من حين لآخر، يشترون احتياجاتهم من هناك بأسعار أقل. إلا أن العديد من سكان البشور يتعاملون مع متجر البقالة المحلي، ليس بسبب موقعه المناسب فحسب، بل لأن معظمهم يجد من السهل الحصول على التسليف هناك. وتتألف معظم المؤن المعروضة في متجر البقالة من السلع الغذائية الأساسية والحاجيات اليومية الشائعة الرخيصة إلى حد ما.

الفصل التاسع

أهل بشور ومجتمعها

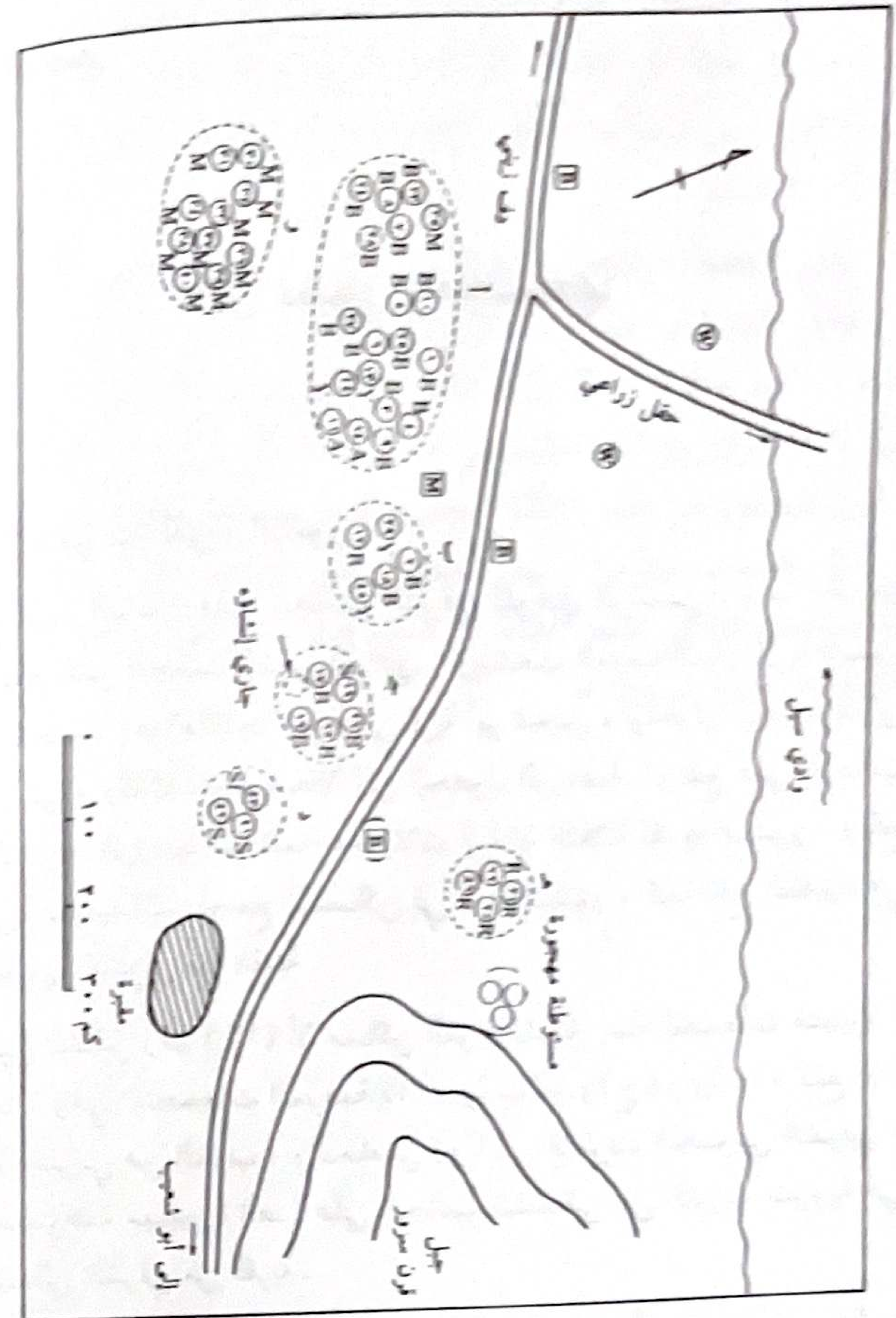
الملامح الجغرافية لقرية البشور:

تقع قرية البشور على الجانب الشرقي للوادي الرئيسي، وأما حقولها الزراعية فتقع على الجانب الغربي للوادي. ويتشعب الدرب المار بقرية البشور إلى ثلاث شعب، إحداها تتجه شرقاً إلى قرية أبو شعيب، وأخرى تتجه غرباً إلى قرية دف زيني، وثالثة تتجه شمالاً إلى الحقول الزراعية. وتقع على الجانب الشمالي للدرب الرئيسية بئر الماء ومحلات البقالة الثلاثة لقرية البشور. ويقع جامع القرية بقرب أكبر تجمع للمساكن في قرية البشور، كما تقع المقبرة في الطرف الجنوبي الشرقي من القرية.

ويبين الشكل رقم (١٦) أن مساكن القرية تشكل ستة تجمعات متميزة، أربعة منها، وهي التجمعات المرقمة (أ)، و(ب)، و(ج)، و(د)، تقع إزاء الجانب الجنوبي من الدرب، والخامس (و) في الطرف الجنوبي الغربي، وهنالك مستوطنة مهجورة (هـ) على الجانب الشمالي من الدرب منزوية في الطرف الشمالي الشرقي من القرية.

ويشتمل تجمع المساكن رقم (أ) على تسع عشرة أسرة، خمس عشرة أسرة منها هي من عشيرة «البشور»، وهم من عشائر قبيلة حرب، أما الأسر الأربع الباقية فهي أسرة حسين رقم (١٣)، وأسرة شواعي رقم (٤٤)، وهما أسرتان من اليمن وتعيشان قرب بعضهما البعض، ثم أسرة علي (١١)، وأسرة مبارك رقم (١٤)، وهما من ذرية الشريف القرشي العلوي الذي كان وأسرته من المستوطنين الأوائل للموقع الحالي لقرية البشور، وقد تزوج أحد أبنائه ابنة مبارك

الشكل رقم ١٦:



مخطط لتجمعات الأسر المستوطنة في بشور

الذي يسكن وأسرته في البيت رقم (٩)، وسكن في بيت مجاور لبتيسر لزوجته بجوار والديها. وثابت الذي يسكن في البيت رقم (٢٤) هو مزارع متقاعد، وهو يعتبر الطبيب الشعبي للبشور، ويعيله ابنه محمد، الذي يعيش بجواره في البيت رقم (٨)، وهو مزارع مبدع للغاية. وزوجة مبارك الصغرى عمرها ٤٥ سنة، وهي تخدم نساء القرية بصفتها الداية المحلية. ثم هنالك عتيق الذي يسكن البيت رقم (١) وهو يعمل مدرساً في المدرسة الابتدائية في دف زيني، وعاتق الذي يسكن في البيت رقم (٢٨)، وهو أيضاً معلم ويعمل في المدرسة الابتدائية في الجموم، وكلاهما من أبناء مستور الذي يسكن في البيت رقم (٤)، وهويفتخر بأنه رغم أنه يعيل أسرة كبيرة فإنه قد شجع أبناءه على الالتحاق بالمدرسة، ولمستور كذلك ابنة تعيش بجواره، وهي متزوجة من عبد ويسكنان في البيت رقم (٢٥). وفي عام ١٩٦٥م أراد عبد أن يغادر قرية البشور ليعمل مع أخيه في بلدة الشامية، وكلاهما، هو وأخوه، يشتهران بالجلد في العمل والحصافة، ولكن زوجته لم ترغب في فراق أهلها ووالديها، وحيث أن كلمة الزوجات، في العادة، هي الكلمة النهائية في مثل هذه الأمور، لذلك استمروا في الإقامة في البشور. ولكنه استطاع، في أواخر عام ١٩٧٠م، أن يقنع زوجته بالانتقال معه إلى الشامية. وأما سِيد الذي يسكن البيت رقم (٣) فهو ابن مبارك من زوجة سابقة، وزوجته هي شقيقة زوجة مسعد الذي يسكن في البيت رقم (٧)، وهذه الأسر الثلاث جميعها تسكن ضمن المجموعة (أ). وأما سالم الذي يسكن في البيت رقم (٢٣) فيعيش بجوار والده راجي الذي يسكن في البيت رقم (٣٥) حيث يعيش الآن هو وزوجته وحدهما، ولكن لراجي ابنين آخرين، أحدهما متزوج ويعيش في مكة، والابن الآخر الأصغر يقيم أيضاً في مكة لمتابعة الدراسة هناك.

أما مجموعة المساكن (ب)، الواقعة إلى الشرق من المجموعة (أ)، فتضم خمس أسر، ثلاث أسر منها هي من عشيرة البشور من قبيلة حرب، وهي تسكن في البيوت رقم (٢) و(١٢) و(١٨)، وأسرتان أصلهما من بلاد اليمن، وهما تسكنان في البيت رقم (٢٩)، والبيت رقم (٤٥). وأهم فرد في الجماعة الذين يسكنون في مجموعة المساكن (ب) هو رازن الذي يسكن في البيت رقم (٢)، مع أسرته المكونة من زوجتيه وأطفالهما الثمانية، وهم في الحقيقة أكبر

أسرة في قرية البشور. وفي البيت المجاور لهم رقم (١٢) يسكن أخوه أحمد وأسرته. وهناك أخ آخر لوازة هو شيمي الذي يسكن في البيت رقم (٢٧) مع زوجته وأطفالهما السبعة، ويقع بينهما قرب بيت والدي زوجته في مجموعة المساكن (ج). أما علي الذي يسكن في البيت رقم (٢٩)، فقد كان في السابق عاملاً زراعياً يعمل في حديقة مبارك، ولكنه أصبح الآن أحد الأئمة في قرية البشور، وهو يعيش مع زوجته الثانية، وهي فتاة صغيرة السن عمرها ١٨ عاماً، وهي ابنة عطية الذي يسكن في البيت رقم (٥) في مجموعة المساكن (أ). وأما الشخص اليمني الآخر، من سكان مجموعة المساكن (ب) فهو يحيى الذي يسكن في البيت رقم (٤٥)، وهو شاب يافع عمره ٣٠ سنة، وقد جاء إلى البشور مع زوجته في عام ١٩٦٨م.

وفي مجموعة المساكن (ج)، الواقعة إلى الشرق من مجموعة المساكن (ب)، تعيش كذلك خمس أسر، أربع أسر منها هم من عشيرة البشور المنحدرة من قبيلة حرب، وتسكن هذه الأسر في المساكن رقم (١٥) و(١٦) و(٢٧) و(٣٦). أما الأسرة الخامسة، التي تسكن في المسكن رقم (١٩)، فهي من عشيرة صبحي المنحدرة أيضاً من قبيلة حرب. أما شتيلان الذي يسكن في البيت رقم (١٥) ومتّاع الذي يسكن في البيت رقم (١٦)، فكلاهما ابنا الأرملة فكيهة، التي تعيش وحدها في المسكن رقم (٣٦). وكل من شتيلان ومتّاع هما في أوائل الثلاثينات من عمرهما، وهما أحد زوجين من الرجال في البشور يفلحون أرضهم بصورة تعاونية. وزوجة شيمي وزوجة أحمد، اللتين يسكنان في المسكن رقم (١٩)، هما شقيقتان، ويعيش والدهما المسن دخيل مع زوجته في المسكن رقم (٤٢) الكائن في مجموعة المساكن (د).

وتعيش في مجموعة المساكن (د)، الكائنة بين مجموعة المساكن (ج) وبين المقبرة، ثلاث أسر، وهي دخيل وزوجته وهما أكبر زوجين في البشور، ويزعم دخيل أن عمره ١٤٠ سنة وأن عمر زوجته ١٢٠ سنة، ولكن من المؤكد أن عمر كل منهما لا يقل عن ٨٠ سنة. ويعيش هناك، بجوار دخيل، ابنه سقر الذي يسكن في البيت رقم (٤١) مع زوجته التي تمتّ بدخيل وزوجته المسنين. وبرغم أن سقر وزوجته كلاهما في الثلاثينات من عمرهما فلم ينجبا أطفالاً. وبرغم أن دخيل، وسقر وبريك، الذي يعيش في المسكن رقم (٤٣)، جميعهم

من قبيلة حرب، فإن دخيلاً وسقراً هما من عشيرة صبحي، في حين أن بريك يعيش بجوارهم لأن ابنته هي زوجة سقر، وهو من عشيرة السفري.

أما مجموعة المساكن (هـ) المنعزلة عن مجموعات المساكن الأخرى، والكائنة على الجانب الآخر من الدرب فتضم أربع أسر تنتسب جميعها إلى الرحلي، وهي من عشائر قبيلة حرب. ولا يوجد في قرية البشور أي أفراد آخرين من عشيرة الرحلي عدا هؤلاء. فمفرح وزوجته، اللذان يعيشان في المسكن رقم (٢٠)، قد تقدما في السن وشب جميع أبنائهما عن الطوق، وإن كانت ابنتهما تعيش مع زوجها حامد بجوارهما في المسكن رقم (٢١). أما حنيفس وزوجته، اللذان يسكنان في المسكن رقم (٢٢)، فهما في الستينات من عمرهما، ويعيش بجوارهما في المسكن رقم (٤٦) ابنهما محمد وزوجته، ويقوم مفرح وزوج ابنته حنيفس بفلاحة أرضهما بصورة تعاونية.

أما مجموعة المساكن (ف) المنزوية وحدها إلى الجنوب عن بقية مجموعات المساكن، فتشتمل على عشر أسر، وتنتسب جميعها إلى عشيرة حرب المعابدة، وجميع أبناء هذه العشيرة، في قرية البشور، يعيشون في مجموعة المساكن هذه. فمستور الذي يعيش في المسكن رقم (٣٠)، وعبد الذي يعيش في المسكن رقم (٣٢) هما شقيقان، وكلاهما في الثلاثينات من العمر، وهما يسكنان بجوار أمهما ووالدهما عطية اللذين يعيشان في المسكن رقم (٣١)، أما عوض وزوجته فيعيشان الآن وحدهما في المسكن رقم (٣٣)، وإن كانت ابنتهما هي زوجة مستور. وأما زوجة محمد، الذي يعيش في المسكن رقم (٤٠)، فهي ابنة شنماص من زوجته الأولى، وهو يسكن في المسكن رقم (٣٦).

ويبين الشكل رقم (١٦) أنماط استيطان القبائل. فمجموعات المساكن (أ) و(ب) و(ج) تشتمل، بصورة أساسية، على أسر من عشيرة البشور المنحدرة من قبيلة حرب، بينما مجموعة المساكن (د) فتعيش فيها أسر من عشيرة صبحي، ومجموعة المساكن (هـ) هم من عشيرة الرحلي، ومجموعة المساكن (و) هم من عشيرة المعابدة، وجميع هذه العشائر هم من قبيلة حرب. وهنالك، بطبيعة الحال، عدة استثناءات سنناقشها بالتفصيل فيما بعد.

في مجموعة المساكن (أ) الأسرة التي تعيش في المسكن رقم (٣٥) هي

من عشيرة المعابدة ، والزوجة في المسكن رقم (٢٨) هي ابنة الأسرة التي تعيش في المسكن رقم (٣٥) ، تبعاً للتقاليد في سكن العروسين بجوار مسكن والدي الزوجة . ولكن في هذه الحالة الخاصة ، عند زواج ابنة الأسرة ، التي تعيش في المسكن رقم (٣٥) ، كانت هذه الأسرة تسكن في مجموعة المساكن (و) ، ورغب العروسان اللذان يسكنان في المسكن رقم (٢٨) ، أن يقيما مسكنهما هناك بجوار أسرة العروس ، ولكن نظراً لعدم توفر أرض للبناء بجوار مسكن أسرة العروس ، فإن العروسين ، اللذين يعيشان في المسكن رقم (٢٨) ، قد أقاما مسكنهما ضمن مجموعة المساكن (أ) ولكن في ناحية منها قريبة من مجموعة المساكن (و) . وفيما بعد ، رغب والدا العروس في تحسين مسكنهما من عشة إلى صندقة ، فقررا الانتقال إلى مجموعة المساكن (أ) بجوار مسكن ابنتهما وزوجها رقم (٢٨) ، وكذلك بجوار مسكن ابنهما رقم (٢٣) .

الرجل اليمني ، الذي يسكن مع أسرته في المسكن رقم (٤٤) ، هو كذلك من الاستثناءات بين من يسكنون في مجموعة المساكن (أ) ، وكان يعمل ، هذا الرجل ، كعامل زراعي في خدمة الأسرتين اللتين تسكنان في رقم (١٣) ورقم (١٨) ، وبالتالي أنشأ مسكنه بجوار مسكني مستخدميه . ولكن الحضرميين لا يستقرون في مكان واحد لمدة طويلة ، ومن المحتمل أن هذا اليمني ، الذي يعيش في المسكن رقم (٤٤) ، شأنه شأن اليمني الآخر ، الذي يعيش في المسكن رقم (٤٥) ، ولا يلبث أن ينتقل إلى مكان آخر .

وكذلك ، فإن الأسرتين العلويتين ، اللتين تعيشان في المسكنين رقم (١١) و(١٤) ، هما أيضاً من الاستثناءات . فالعلويون هم من عشائر قبيلة قريش التي تعتبر متميزة عن غيرها لأن محمداً ﷺ كان من أبناء هذه القبيلة ، ويبدو أنه ، في وقت سابق ، كانت منطقة البشور بكاملها تسكنها عشائر من قبيلة قريش (بني هاشم) . ولكن ، عندما أجريت هذه الدراسة ، كان معظم أبناء قبيلة قريش قد غادروا هذه القرية . أما الأسرتان رقم (١١ و ١٤) فتعتبران فاشلتين اجتماعياً ومتخلفتين عن ركب العائلة وبقيتا في القرية ولم تستطيعا الانتقال مع بقية العشيرة . ولهذا السبب ، لم يتيسر لأبناء هاتين الأسرتين الزواج من أبناء وبنات أسر قريش الأخرى ، التي كانت تعيش في تلك المنطقة ، وبدلاً من ذلك ، أخذوا يتزاوجون مع أبناء وبنات عشيرة البشور . فالرجل الذي يعيش في المسكن رقم

(١٤) هو ابن الرجل الذي يعيش في المسكن رقم (١١) ، وقد تزوج ابنة الأسرة التي تسكن في رقم (٩) ، وبالتالي اختار الإقامة بجوارهم حيث أنشأ له ولعروسه هناك بيتاً من الأسمنت .

هناك أسرتان من حضرموت تعيشان في مجموعة المساكن (ب) ، وهما تقيمان في المسكنين رقم (٢٩) و(٤٥) . وكان اليمني الذي يعيش في رقم (٢٩) يعمل كعامل زراعي في خدمة الأسرة التي تعيش في المسكن رقم (١٢) ، (وبالتالي أقام في جوارهم) ، بينما اليمني الآخر الذي يسكن في رقم (٤٥) فهو يستأجر الصندقة التي يعيش فيها من الأسرة التي تسكن في رقم (١٨) ، وهو لهذا السبب يسكن ضمن مجموعة المساكن (ب) . ولا يعيش الحضرميون كمجموعات ، ولذلك تجدهم منتشرين في عموم أنحاء القرية .

في مجموعة المساكن (ج) ، معظم الذين يعيشون هناك هم من عشيرة البشور ، بينما الشخص الذي يسكن في المسكن رقم (١٩) هو من عشيرة صبحي ، وهو متزوج من ابنة الذين يسكنون في رقم (٢٦) ، وبالتالي يعيش مع أسرته بجوار مسكن والدي زوجته . وهناك بيت من الطين قيد الإنشاء في مجموعة المساكن (ج) ، وسوف تسكن في هذا البيت ابنة الأسرة التي تعيش في رقم (١٧) وابن الأسرة التي تعيش في رقم (٢) عندما يعقد قرانهما . وفي مجموعة المساكن (د) ، الاستثناء بين مجموع الأسر الساكنة هناك ، وهي من عشيرة صبحي ، هي الأسرة الساكنة في المسكن رقم (٤٣) ، وهي من عشيرة سفري ، ويفسر هذا الاستثناء العلاقة الوثيقة التي تربط عشيرة السفري بعشيرة الصبحي التي هي العشيرة السائدة في المجموعة هناك .

وخلاصة القول ، إن أنماط استيطان العشائر يتقرر على أسس واضحة . إن هذه العشائر تعيش في مجموعات ، والاستثناءات القليلة هي التي حدثت نتيجة العمل بالتقاليد السائدة الداعية إلى ضرورة إقامة الفتاة بعد زواجها في مسكن مجاور ، أو قريب ، من مسكن والديها ، أو بسبب وفود بعض الأسر للعيش هناك بداعي الروابط والعلاقات التي تربط مثل هذه الأسر بمستخدميها وملاكي الأراضي هناك ، أو غير ذلك مثل العلاقات الوثيقة التي تربط بعض العشائر بعضها ببعض .

ويعيش غالبية السكان ، الذين يستوطنون حالياً قرية البشور ، في بيوت من

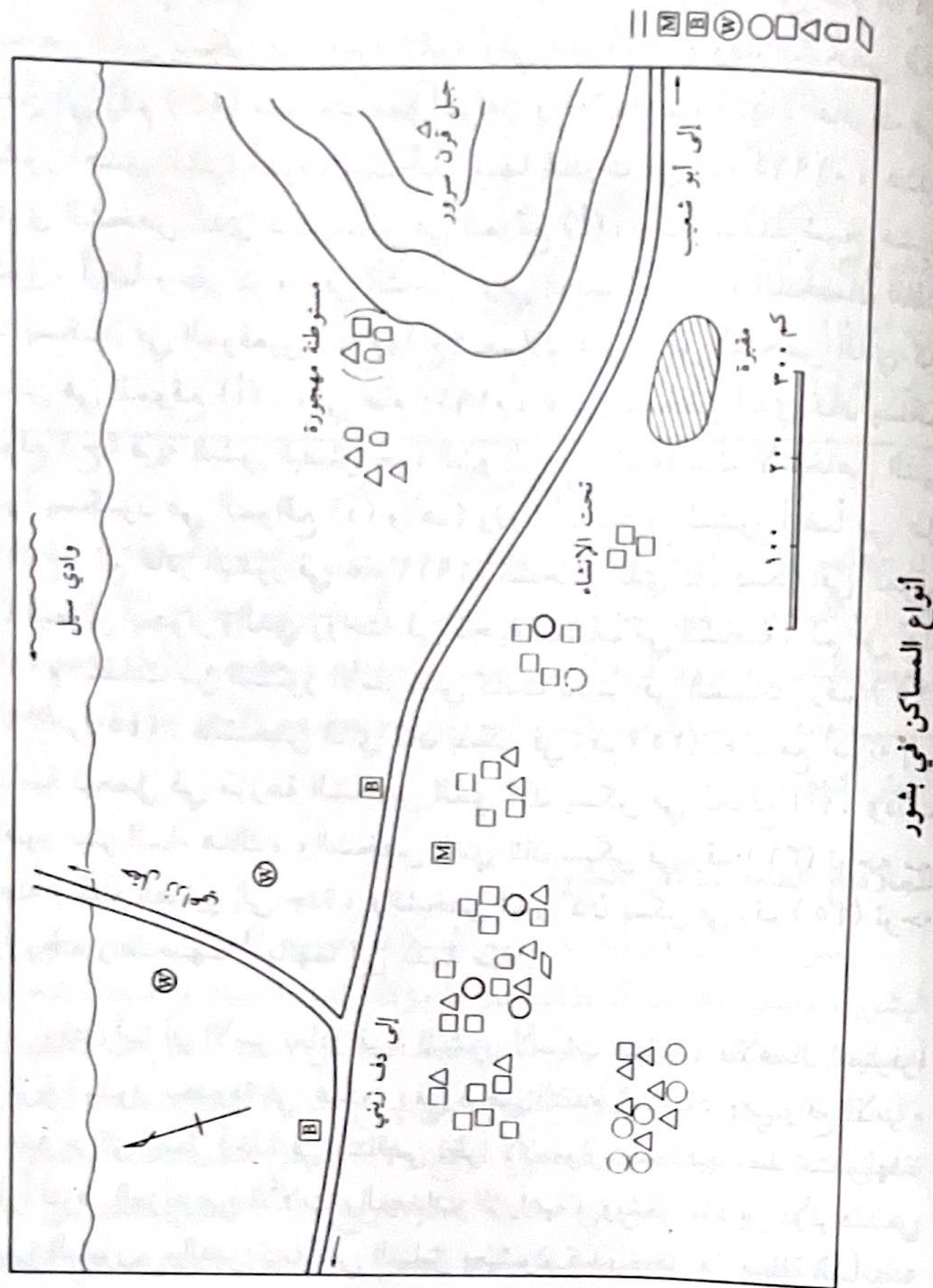
سعف النخيل ومن الصفيح والطين ، أو الطوب والأسمنت (انظر الشكل رقم ١٧) ، رغم أنهم جميعاً كانوا يعيشون في خيام عندما جاؤوا بادىء الأمر إلى المنطقة ، ولكن ما لبثت اثنتان وعشرون من الأسر أن أقامت مساكن دائمة لها عندما استقرت ، أو عندما انفصل أبناء هذه الأسر وأقاموا لأنفسهم مساكن خاصة بهم . ومن بين الأسر التي تعيش حالياً في قرية البشور عشرة منها تعيش في مساكن من الطوب والأسمنت (٢٢٪) ، وأربع وعشرون أسرة تعيش في مساكن من الطين (٥١,٦٪) ، وتسع أسر تعيش في بيوت من ألواح الصفيح المقصوصة من البراميل (١٩,٨٪) ، وثلاث أسر تعيش في أكواخ من سعف النخيل (٦,٦٪) .

تطور السكان :

لقد استقر أوائل المستوطنين في قرية البشور في عام ١٩٥٣م ، وخلال السنوات الثلاث التالية نمت قرية البشور إلى حجم مقارب لحجمها الحالي . ويبين الشكل رقم (١٨) حركة السكان ونقلتهم من وإلى قرية البشور . ففي عام ١٩٥٣م ، ضربت اثنتان وعشرون أسرة خيامهم في الموقع الحالي لقرية البشور ، حيث كان يقوم بيت الصفيح الذي يسكنه علي العلوي من قبيلة قريش ، وفيما بعد ، تزوج أحد أبناء علي هذا ابنة واحد من عشيرة البشور ، والآن أصبح كلا الأسرتين ، وهما أسرة علي العلوي الذي يعيش في المسكن رقم (١١) ، وأسرة مبارك بن علي العلوي الذي يعيش في المسكن رقم (١٤) ، من أبناء قرية البشور . وفي عام ١٩٥٤م ، أضيفت ثماني أسر أخرى إلى هذه القرية .

والبدوي الذي كان يقيم في الموقع (أ) كان شيخ عشيرة البشور ، وكان ، في بادىء الأمر ، مزارعاً وناظراً ، ولكنه خلال السنوات (١٩٦٠ - ١٩٦٥م) عمل بجد في خدمة أحد الملاك المقتدرين ، وهو شرف شريف ، وغيره من الملاك إلى أن توفر لديه مبلغ من المال يكفي لشراء أرض في هدّة الشامية . وهكذا ، تيسر له أن يشتري قطعة أرض تقع ضمن المنطقة التي يملك معظمها أبناء قبيلة حرب . وفي عام ١٩٦٥م هاجر إلى الشامية مع الأسرتين اللتين تقيمان في الموقعين (ب) و(ج) . وفي عام ١٩٦٨م ، قام ، بجده واجتهاده ، بحفر بئر ماء أخرى ، وهو يملك الآن سيارة شاحنة وجراراً زراعياً . وفي عام ١٩٥٥م ، انضمت سبع عشرة أسرة إلى مستوطنة البشور ، ولكن خلال عامي ١٩٥٦م

الشكل رقم ١٧ :



و١٩٥٧م لم تحدث حركة سكانية سواء إلى البشور أو منها . وخلال الأعوام ١٩٥٨م إلى ١٩٧٠م انضمت إلى قرية البشور سبع أسر إضافية .

أما بالنسبة للرجال البدو الأربعة ، الذين يعيشون الآن في قرية البشور ، فقد وفد الشخص الذي يسكن الآن في رقم (٢٩) وحده في عام ١٩٥٨م ، وما لبث أن التحقت به زوجته في السنة ذاتها ، ثم وفد في عام ١٩٦٠م الشخص الذي يسكن في رقم (١٣) مصطحباً معه زوجته ، ثم وفد في عام ١٩٦٨ الشخص الذي يسكن في رقم (٤٥) ، وفي عام ١٩٦٩م وفد الشخص الذي يسكن في رقم (٤٤) مصطحباً معه أسرته . وخلال الفترة ذاتها ، غادرت قرية البشور إحدى عشرة أسرة ، ست أسر منها غادرت في عام ١٩٦٥م ، عندما اشترى الشخص الذي كان يسكن في الموقع (أ) ، وكان يومئذ شيخ عشيرة البشور ، أرضاً وحفر بئر ماء في الشامية . وفي الوقت الحاضر ، الشخصان اللذان كانا يسكنان في الموقعين (ب) و(ج) يعملان على أرض الشخص الذي كان يسكن في الموقع (أ) . وفي عام ١٩٦٠م ، غادر الشخص الذي كان يسكن الموقع (ح) قرية البشور ليعيش حياة البدو الرحل ، ثم ما لبث الأشخاص الذين كانوا يسكنون في المواقع (د) و(هـ) و(و) أن غادروا البشور أيضاً في عام ١٩٦٥م ، ثم غادر البشور في عام ١٩٦٦م الشخص الذي كان يسكن في الموقع (ز) ليعيش بجوار والدي زوجته في ناحية الخيف في الشامية ، ثم في عام ١٩٧٠م انتقلت من البشور الأسر التي كانت تعيش في المساكن رقم (٢٥) و(٣٦) و(٤٥) . فالشخص الذي كان يسكن في رقم (٢٥) ذهب مع أسرته إلى الشامية ليعمل في مزرعة الشخص الذي كان يسكن في الموقع (أ) ، وذلك كناطور لبئر الماء هناك ، والشخص الذي كان يسكن في رقم (٣٦) توجه مع زوجته وطفله الصغير إلى جدة ، والشخص الذي كان يسكن في رقم (٤٥) توجه مع زوجته وصحبتهما أمهاتهما إلى مدينة مكة .

وقد رأينا أن الأسر تغادر قرية البشور لأسباب متباينة ، فالأعمال المتوفرة في قرية البشور محدودة في عددها وفي فرص التقدم المتاحة ، وفي واقع الأمر ، إن عدد مراكز العمل آخذة في التناقص نظراً لأن موارد الماء فيها مقيد استعمالها ، ونظراً لتوفر المزيد من الآلات والمعدات الزراعية ، ويشعر عدد من الأفراد ، من عشيرة البشور ، والذين كانوا في السابق يعيشون كبدو رحل في منطقة الشامية ،

الشكل رقم ١٨ :

حركة السكان في بشور

بأن حياتهم يمكن أن تكون أفضل إذا هم رجعوا إلى مرابعهم السابقة ، فقد يتسنى للمزارع المجدّ ، الذي لديه شيء من المال ، أن يشتري شيئا من الأرض هناك . وبعض الناس يغادرون قرية البشور عند زواجهم ، وبعضهم الآخر يفدون إليها للسبب ذاته ليعيشوا قرب والدي العروس ، وبعضهم الآخر ما زالوا يفضلون العيش كبدو رحل .

الملامح العامة لسكان البشور :

يبين الجدول رقم (١٢) توزيع السكان حسب السن والجنس في قرية البشور ، وينبغي ملاحظة أن هناك جنوحاً مؤكداً لدى الفتيان والفتيات لتخفيض أعمارهم الحقيقية ، ولدى كبار السن للمبالغة في زيادة أعمارهم الحقيقية . وكذلك لا يسجل تاريخ ميلاد الطفل حتى يبلغ سن الالتحاق بالمدرسة حيث تقضي التعليمات الحكومية بتسجيل تاريخ ولادة الطفل عند التحاقه بالمدرسة ، وعندئذ ، يبدأ والدا الطفل في محاولة تذكر تاريخ ولادة الطفل بالعد إلى الوراء عدد أعياد الفطر التي انقضت منذ ولادة الطفل . والأعمار المدرجة في الجدول

رقم (١٢) هي بحسب عدد السنوات وفق التقويم الإسلامي.

جدول رقم ١٢:

سكان بُشور وفقاً للسن والجنس

العمر	الذكور		الإناث		إجمالي السكان	
	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية
صفر ـ ٤	١٠	٥,١	٢١	١٠,٧	٣١	١٥,٨
٥ ـ ٩	١٨	٩,٢	١٦	٨,١	٣٤	١٧,٣
١٠ ـ ١٤	١٤	٧,١	١١	٥,٦	٢٥	١٢,٧
١٥ ـ ١٩	٨	٤,١	٨	٤,١	١٦	٨,٢
٢٠ ـ ٢٤	٢	١,٠	٤	٢,٠	٦	٣,٠
٢٥ ـ ٢٩	٤	٢,٠	٣	١,٥	٧	٣,٥
٣٠ ـ ٣٤	٣	١,٥	٥	٢,٦	٨	٤,١
٣٥ ـ ٣٩	٦	٣,١	٣	١,٥	٩	٤,٦
٤٠ ـ ٤٤	٢	١,٠	٨	٤,١	١٠	٥,١
٤٥ ـ ٤٩	٤	٢,٠	٣	١,٥	٧	٣,٥
٥٠ ـ ٥٤	٨	٤,١	٧	٣,٦	١٥	٧,٧
٥٥ ـ ٥٩	٦	٣,١	١	٠,٥	٧	٣,٥
٦٠ ـ ٦٤	٤	٢,٠	٥	٢,٦	٩	٤,٦
٦٥ ـ ٦٩	١	٠,٥	١	٠,٥	٢	١,٠
٧٠ ـ ٧٤	٣	١,٥	١	٠,٥	٤	٢,٠
٧٥ ـ ٧٩	-	-	١	٠,٥	١	٠,٥
٨٠ ـ ٨٤	١	٠,٥	٢	١,٠	٣	١,٥
٨٥ ـ ٨٩	-	-	-	-	-	-
٩٠ ـ	١	٠,٥	١	٠,٥	٢	١,٥
إجمالي	٩٥	٤٨,٥	١٠١	٥١,٥	١٩٦	١٠٠

وربما أن أبرز الحقائق التي يظهرها هذا الجدول، بشأن أعمار سكان البشور، هو أن زهاء نصف عدد سكانها أعمارهم هي أربع عشرة سنة، أو ما هو

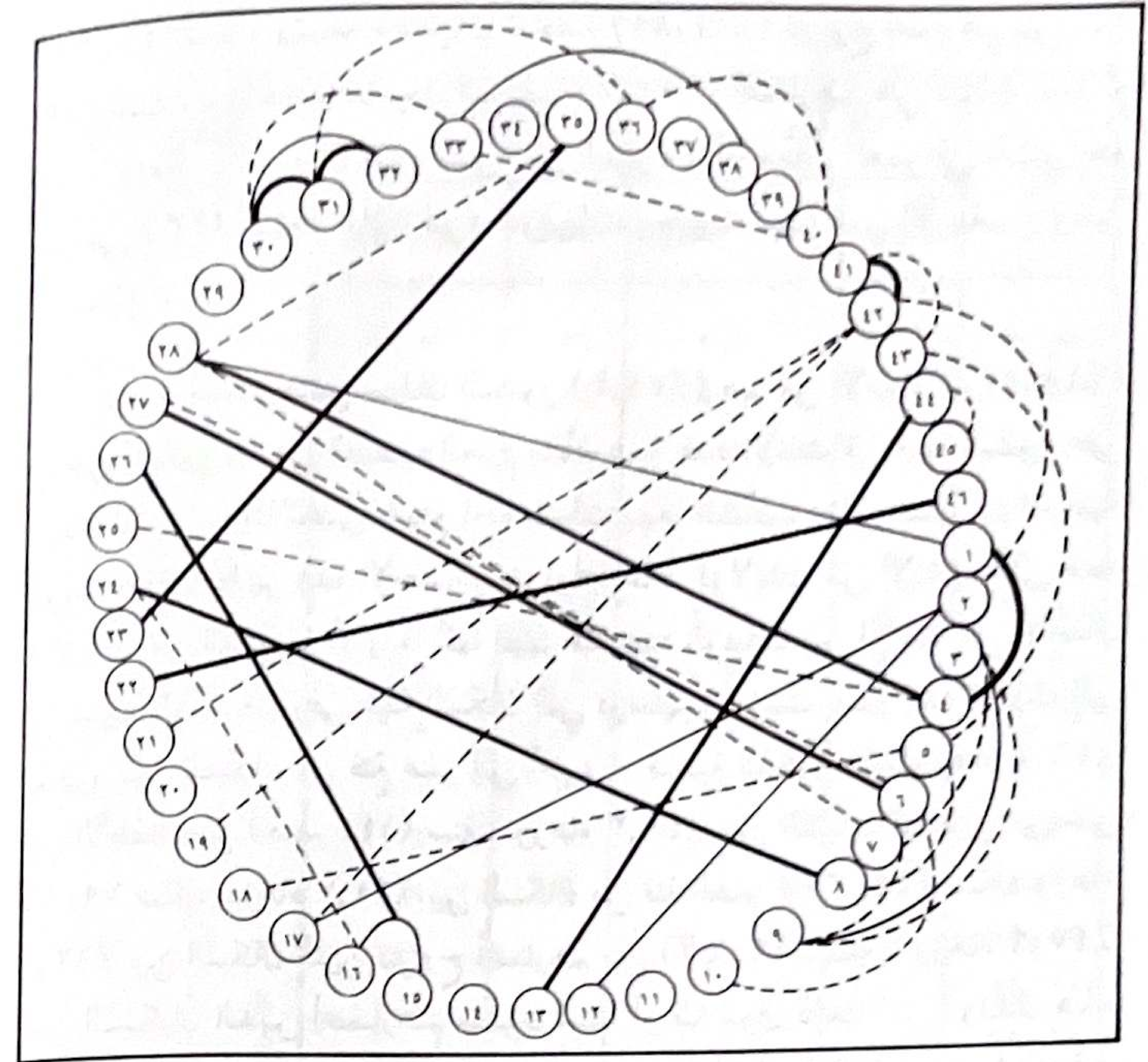
دون ذلك، وذلك حسب تقديراتهم هم. فتسعون شخصاً (٤٥,٩١٪) أعمارهم أربعة عشر عاماً أو أقل، وتسعة وعشرون شخصاً (١٤,٨٩٪) تتراوح أعمارهم بين (١٥ ـ ٢٩) سنة، وسبعة وعشرون شخصاً (١٣,٧٨٪) تتراوح أعمارهم بين (٣٠ ـ ٤٤) سنة، وتسعة وعشرون شخصاً (١٤,٨٩٪) تتراوح أعمارهم بين (٤٥ ـ ٥٩) سنة، وواحد وعشرون شخصاً (١٠,٧٪) أعمارهم هي ستون سنة أو أكثر. ويمكن للمرء أن يقدر بشيء من المرونة، أن معدل العمر في البشور هو حوالي (٢٣) سنة، وأن وقوع الوفيات يحدث بين سن الأربعين وسن الخمسين.

ومن حيث جنس سكان البشور (٥١,٥٪) هم من الإناث، و(٤٨,٥٪) هم من الذكور، ومن الصعب الجزم بشأن غلبة عدد الإناث في قرية البشور على عدد الذكور. وإذا تسنى جمع إحصائيات بهذا الشأن، على مدى فترة زمنية طويلة، فقد تظهر هذه الإحصائيات زيادة عدد الولادات من الإناث على عدد الولادات من الذكور، أو ربما أنها تظهر قلّة عدد الوفيات بين الإناث من الأطفال في سنهم المبكرة. وفي عينة السكان التي درستها، تباينت نسبة عدد الإناث إلى الذكور بين السكان من فئة عمر إلى أخرى، فنسبة الذكور كانت زهاء ٤٦,٧٪ بين الأطفال من (صفر ـ ١٤) سنة، وزهاء ٤٨,٣٪ بين الشبان البالغين من سن ١٥ ـ ٢٩ سنة، وزهاء ٤٠,٧٪ بين السكان من فئة العمر (٣٠ ـ ٤٤) سنة، وزهاء ٦٢,١٪ بين السكان الذين تتراوح أعمارهم بين (٤٥ ـ ٥٩) سنة، وزهاء ٤٧,٦٪ بين السكان الذين أعمارهم ستون سنة أو ما فوق ذلك... وتدل هذه الإحصائيات، كما يبدو، على أن الذكور من سكان قرية البشور يعيشون في الغالب أطول قليلاً من الإناث هناك، اللهم إلا إذا كانت الفترة الزمنية التي أجريت فيها دراستي هي فترة غير عادية من هذه الناحية.

ويبين الشكل (١٩) علاقات النسب والقربى بين رؤساء الأسر في البشور. ويوجد في البشور ثلاثة عشر من رؤساء الأسر الذين يقيم آباؤهم كذلك في قرية البشور، وهؤلاء يمثلون ٢٨,٦٪ من مجموع رؤساء الأسر، الذين يقيمون في قرية البشور. وهناك ثماني عشرة زوجة يعيش آباؤهن كذلك في قرية البشور، وهؤلاء يمثلن ٣٩,٦٪ من مجموع الزوجات في الأسر التي تقيم في قرية البشور.

شكل رقم ١٩ :

علاقة القرابة والنسب في بشور



▬ أمومي أو علاقات القرابة من ناحية الأم
ـــ أخوي أو علاقات القرابة من ناحية الأخ والأخت
- - - - علاقات النسب

ويشتمل الجدول رقم (١٣) على إحصائيات بشأن بنية الأسر في قرية البشور. فاثنتان وثلاثون أسرة، من مجموع ستة وأربعين أسرة تقيم في قرية البشور، لديهم أطفال، (أي ٦٩,٦٪ من مجموع الأسر)، وثمانية أزواج من المسنين والنساء الأرامل والرجال الأرامل الذين يعيشون الآن وحدهم بعد أن كبر أبناؤهم وانفصلوا عنهم (١٧,٤٪ من الأسر)، وسبع أسر تتكون إما من أزواج صغار السن لا أطفال لهم، أو أن وضعهم العائلي معقد كأن تشتمل الأسرة على

الأجداد أو العمات والأعمام الخ. ومن حيث الحجم الإجمالي للأسر فإن (١٤) أسرة تشتمل على فرد واحد أو فردين (٣٠,٤٪)، و(١٤) أسرة تشتمل على (٣ ـ ٤) أفراد (٣٠,٢٪)، وتسع أسر تشتمل على (٥ ـ ٦) أفراد (١٩,٦٪)، وست أسر تشتمل على (٧ ـ ٨) أفراد (١٣,٠٪) وثلاث أسر تشتمل على تسعة أفراد أو أكثر (٦,٥٪).

جدول رقم ١٣ :

بنية الأسرة في بُشور

بنية الأسرة	عدد الأسر	إجمالي الأسر (بالنسبة المئوية)
زوج، زوجة (شباب) بدون أطفال		
أسرة رقم: ١٥، ٤٠، ٤٦	٣	٦,٥
زوج، زوجة، طفل واحد (١)		
أسرة رقم: ١٠، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٦، ٣٨	٧	١٥,٢
زوج، زوجة وطفلان (٢)		
أسرة رقم: ٦، ١١، ١٣، ١٤، ٢٥، ٤٣	٦	١٣,٠
زوج، زوجة، ٣ أطفال		
أسرة رقم: ٨، ٢٩، ٣٠، ٤٤	٤	٨,٧
زوج، زوجة، ٤ أطفال		
أسرة رقم ١٢، ١٦، ٣٢	٣	٦,٥
زوج، زوجة ٥ أطفال		
أسرة رقم ٤، ٥، ٧، ٢١	٤	٨,٧
زوج، زوجة، ٦ أطفال		
أسرة رقم ٣	١	٢,٢
زوج، زوجة، ٧ أطفال		
أسرة رقم ١٧	١	٢,٢
زوج، زوجتان، ٦ أطفال		
أسرة رقم ٩	١	٢,٢

زوج ، زوجتان ، ٨ أطفال أسرة رقم ٢	١	٢,٢
زوج ، زوجة (متوسطي العمر) بدون أطفال أسرة رقم ٤١،٣٤	٢	٤,٣
زوج ، زوجة (من كبار السن) أسرة رقم ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٢	٦	١٣,٠
أرملة (أسرة رقم ٢٦)	١	٢,٢
أرمل (أسرة رقم ٢٤)	١	٢,٢
رجل ، طفل واحد أسرة رقم ٣٧	١	٢,٢
زوج ، زوجة ، طفل واحد ، الأخت الصغرى للزوجة وطفل الأخت الكبرى (أسرة رقم ١)	١	٢,٢
زوج ، زوجة ، ٣ أطفال ، أم الزوجة أسرة رقم ٣٩	١	٢,٢
زوج ، زوجة ، والداتيهما أسرة رقم ٤٥	١	٢,٢
زوج ، زوجة ، ٣ أطفال ، خالتان أسرة رقم ١٩	١	٢,٢
إجمالي	٤٦	١٠٠,٠

إن متوسط عمر رؤساء الأسر الذكور هو (٤٧,٥) سنة ، ومتوسط عمر الزوجات ، في الأسر ، هو (٣٧,٦) سنة ، أي أنه أقل من متوسط عمر الذكور بحوالي عشر سنوات . ورغم أن البدو في وادي فاطمة لا يحفلون بوجه عام بشأن الفرق في الأعمار بين الأزواج والزوجات ، فمن الواضح أن الرجال من البشوريين يفضلون الزواج من الفتيات اللواتي أصغر منهم سناً بكثير ، ويعزى هذا ، بصورة جزئية ، إلى أن نسبة الوفيات ، أثناء الولادة ، هي عالية ، ويظن الرجال أن الزوجة الصغيرة في سنها قد تكون أقوى وخطر الولادة عليها أقل .

وهناك سببان للنمو السكاني في قرية مثل البشور ، إما بالهجرة الوافدة

للاستيطان في القرية أو بولادة الأطفال . ولكن بين الأعوام ١٩٥٨م إلى ١٩٧٠م كان عدد الأسر ، التي هاجرت من قرية البشور ، هو أكثر من عدد الأسر التي وفدت واستوطنت فيها . ولذلك يبدو ، بصورة مؤكدة ، أنه كان هناك نقصان في معدل الولادات في قرية البشور ، رغم أن نسبة الولادات فيها كانت عالية في السابق ، وذلك رغم حالات الوفاة التي كانت تحدث للأطفال أثناء الولادة أو في الأيام القليلة التالية لها .

ولا ريب أن معدل الولادات ، في البشور ، قد تأثر نتيجة معرفة النساء فيها بالأساليب والوسائل العصرية لتحديد النسل ومنع الحمل ، مع أن الوضع لا يسمح بجمع إحصائيات دقيقة بهذا الشأن . بما أن نساء البشور يعتقدن أن وسائل منع الحمل ممنوعة سواء في الشريعة الإسلامية أو من جانب الحكومة السعودية ، فإنهن أظهرن خشية في التحدي حول هذا الموضوع في الخلوات والجلسات الخصوصية . فإذا سألت امرأة ، بصورة مباشرة ، إن كانت تستعمل وسائل منع الحمل فإنها ستجيب بأن هذه ممنوعة في الإسلام ، ولكن عندما كنت أختلي بواحدة منهن ، وأتحدث معها سراً فإنها تبادر إلى سؤالي عن أي الوسائل والأساليب التي استعملها أنا لهذه الغاية . وقد تبين لي أن النساء ، في البشور ، ليس فقط لديهن معرفة واطلاع على الموضوع بل هن يعرفن أي المحلات والأمكنة في المدينة التي يتيسر فيها شراء حبوب منع الحمل بصورة سرية . ويمكن أن يعزى اهتمام النساء في قرية البشور بحبوب منع الحمل إلى الضغوط المالية التي تطحن الكثير من الأسر في تلك القرية ، فهذه الضغوط تجعل الوالدين يدركان معنى مجيء طفل جديد وإطعام فم آخر ، وكذلك ، إن ولادة الطفل هنا هي ، بحد ذاتها ، تجربة خطرة ، سواء للطفل أو للأم الوالدة ، ورغم أن المثال التالي هو ليس من الأمور المتكررة الحدوث ، إلا أن ذلك يترك آثاره في النفوس . فالشخص الذي يعيش في المسكن رقم ٣٧ ، واسمه مُثبت ، يعيش هناك وحده مع طفله الصغير الذي عمره خمس سنوات ، وذلك لأن أم الصبي قد توفيت خلال الولادة ، كذلك فإن زوجتين سابقتين لهذا المزارع سبق وأن توفيتا أثناء عملية الولادة ، وفي كلتا الحالتين لم تتيسر نجاة الوليدين من الموت .

حجم الأسرة في قرية البشور هو صغير نسبياً لأن التقليد السائد هناك هو أن يعيش الوالدان مع أبنائهما غير المتزوجين فقط باعتبارهم الأسرة الأساسية .

فكما أسلفنا القول، يعيش وحدهم هنالك عدد من الأزواج المتقدمين في السن وذلك بعد أن تزوج أبناؤهم وانفصلوا عنهم، ومن هؤلاء الرجل الذي يعيش في المسكن رقم (١٨) مع زوجته، والآخر الذي يعيش في المسكن رقم (٢٠) مع زوجته، والثالث الذي يعيش في رقم (٢٢) مع زوجته، والرابع الذي يعيش في رقم (٣٣) مع زوجته، والخامس الذي يعيش في رقم (٤٢) مع زوجته، وجميع هؤلاء الأشخاص تتراوح أعمارهم بين (٦٠ ـ ٧٠) سنة، فيما عدا الرجل الذي يعيش في المسكن رقم (٤٢) وزوجته فهما أكبر سناً من ذلك. أما الأرملة التي تعيش في المسكن رقم (٢٦) فتعيش هنالك وحدها وإن كان ابناها يعيشان بجوارها، كما أن الرجل الأرمل الذي في المسكن رقم (٢٤) يعيش هناك وحده، وإن كان ابنه يعيش أيضاً بجواره. ورغم أن الأشخاص المسنين في قرية البشور غالبيتهم يعيشون وحدهم، بعد زواج أبنائهم وبناتهم وانفصالهم عنهم، فإن أبناءهم وبناتهم هؤلاء غالباً ما يظلون يعيشون بجوارهم ليساعدوهم عند الحاجة.

ولكن هنالك استثناءات لقاعدة العيش ضمن وحدة الأسرة الأساسية في قرية البشور، بحيث يمكن الافتراض بأنه، عند الضرورة، يمكن أن تشتمل الأسرة على أشخاص آخرين عدا الزوج والزوجة والأبناء غير المتزوجين. فمثلاً، الأسرة التي تعيش في المسكن رقم (٣٩) تعيش معهم كذلك أم الزوجة المسنة، وكذلك الأمهات المسنات للزوج والزوجة اللذين يسكنان في البيت رقم (٤٥) تعيشان معهما. وأيضاً، الزوج والزوجة اللذان يسكنان في رقم (١٩) تعيش معهما كل من عمة الزوج وعمة الزوجة. فعندما يصبح الأقارب المتقدمون في السن، لهذا أو ذاك من الزوجين، بحاجة لعناية خاصة فإن ذويهم يأوونهم في بيوتهم. فليس من الأمور المستهجنة أن يعيش بعض الأطفال في بيوت أقاربهم ليتسنى لهم الالتحاق بأحد المدارس القريبة. فالشخص الذي يسكن في رقم (١) يؤمن في بيته المأوى والمأكل للأخت الصغرى لزوجته الكبرى وكذلك لابن أخت زوجته الصغرى (وعمره أيضاً سبع سنوات)، وذلك كي يتسنى لهذين الصغيرين الالتحاق بمدرستيهما في دف زبني وفي البشور، وسبب اغترابهما هذا هو لأن والديهما من البدو الرحل.

الزواج والطلاق:

إن متوسط عمر الفتيات في قرية البشور عندما يتزوجن للمرة الأولى هو أربع عشرة سنة، وبالنسبة للصبيان هو سبع عشرة سنة. ويشتمل الجدول رقم (١٤) إحصائيات الزواج في قرية البشور استناداً إلى أحوال (١٠٧) من الإناث والذكور البالغين الذين تزيد أعمارهم على (١٣) سنة. فمن بين (٤٣) رجلاً هم متزوجون الآن، اثنان لكل منهما زوجتان. والخلاصة أن ٨٢٪ من الإناث والذكور البالغين في قرية البشور هم متزوجون، و١٢٪ منهم لم يتزوجوا بعد، و٦٪ فقدوا آخر شريك زوجي لهم إما بسبب الوفاة أو بداعي الطلاق.

جدول رقم ١٤:

الوضع العائلي لأهل بشور

الوضع العائلي	ذكر	أنثى	إجمالي
غير متزوج (أعزب)	١٠	٣	١٣
متزوج	٤٣	٤٥	٨٨
أرمل	٢	١	٣
مطلق	١	٢	٣
إجمالي	٥٦	٥١	١٠٧

وكثيرون من هؤلاء الذين هم متزوجون الآن سبق لهم أن تزوجوا أكثر من مرة. فخمسة عشر رجلاً تزوجوا مرتين، ومن هؤلاء ستة عاودوا الزواج بعد طلاقهم من زوجاتهم الأول، وستة عاودوا الزواج بعد أن توفيت الزوجة الأولى لكل منهم، وثلاثة إما أنهم حالياً، أو كانوا في الماضي، متزوجين من زوجتين في آن واحد. وهنالك رجلان تزوجا ثلاث مرات، أحدهما فقد زوجتيه السابقتين بسبب وفاتهما، والآخر فقد إحدى زوجتيه السابقتين بسبب الوفاة، والأخرى بسبب الطلاق. وهنالك ست نساء تزوجن مرتين، خمس منهن فقدن أزواجهن الأوائل بسبب الطلاق، والسادسة فقدت زوجها بسبب الوفاة. والخلاصة أن سبعة عشر من الذكور البالغين قد تزوجوا مرتين، وست من الإناث البالغات تزوجن مرتين. ونسبة الذكور هؤلاء هي ١٦٪ بينما نسبة النساء، اللواتي

تزوجن مرتين ، هي ٦٪ من إجمالي السكان .

وهكذا ، فإنه يتسنى للمرء أن يدرس ظاهرة التفاوت في فارق الأعمار بين الرجال والنساء . في إحدى الأسر نجد أن عمر الزوجة يزيد خمس سنوات على عمر الزوج ، وفي ثلاث أسر عمر الزوجة هو مساو لعمر الزوج ، أو أن الفرق بينهما لا يزيد على ثلاث سنوات ، وفي تسع أسر نجد أن الزوجة هي أصغر من الزوج بأربع سنوات إلى ست سنوات ، وفي أسرتين نجد أن الزوجة هي أصغر من الزوج بحوالي سبع إلى تسع سنوات ، وفي إحدى وعشرين أسرة نجد أن الزوجة هي أصغر من الزوج بحوالي عشر سنوات إلى اثنتي عشرة سنة ، وفي ثماني أسر نجد أن الزوجة هي أصغر من الزوج بثلاث عشرة سنة أو يزيد ، ونجد أن أعظم فرق في العمر في البشور هو في الأسرة التي تسكن في رقم (٢٩) حيث الزوجة هي أصغر من الزوج باثنتين وعشرين سنة . ومتوسط الفرق بين عمر الزوج والزوجة في قرية البشور هو عشر سنوات .

خلال الفترة التي أجريت فيها البحث لهذه الدراسة أعلنت في قرية البشور خطوبتان . فقد عقد زواج بين ابن الأسرة التي تسكن في رقم (٢) وبين إحدى بنات الأسرة التي تسكن في رقم (١٧) ، وأيضاً بين أحد أبناء الأسرة التي تسكن في رقم (١٧) وبين إحدى بنات الأسرة التي تسكن في رقم (٢) ، وكذلك ، فتاة أخرى هي ابنة الأسرة التي تسكن في رقم (٥) كانت تنتظر أحد أبناء عمها كي ينهي دراسته في المدرسة قبل أن يتم زواجهما . ورغم أنه يتم ، بصورة عامة ، الاتفاق على الترتيبات الميدانية للخطوبة مقدماً ، وقبل أن يطلب الصبي يد الفتاة من أبيها ، فإن من العادات والتقاليد المتبعة أن يطلب الأب فترة مهلة ، لمدة يومين أو ثلاثة ، قبل أن يعطي جوابه بشأن طلب الصبي ، وذلك كي يستمزج رأي زوجته وابنته بهذا الطلب ، وقبل أن يعطي موافقته النهائية للصبي بالقول «الله حياك» ، أي أن الله قد استجاب إلى طلبك .

الزواج ضمن إطار العشيرة ، أو القبيلة ، هو العرف السائد في قرية البشور ، كما هو عليه الحال في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية . وحيث أن قبيلة حرب هي قبيلة كبيرة ويعيش عدد كبير من أبنائها في الأنحاء الغربية من المملكة العربية السعودية ، فلا يواجه أبناء قبيلة حرب صعوبة في العثور على شريك الحياة المناسب ضمن قبيلتهم ، وهم يميلون للزواج في سن أصغر من

أبناء قبيلة الشيوف ، مثلاً ، كما هو عليه الحال في دف زيني حيث لا تتوفر للفتيات سوى فرص قليلة للزواج من أي شخص مناسب من خارج قريتهن . واربعون أسرة من مجموع أسر قرية البشور الست والأربعين تنتسب لقبيلة حرب .

أما اليمنيون المقيمون هناك فمعظمهم يحضرون زوجاتهم معهم من بلادهم اليمن . وتتزوج الفتيات في قرية البشور صغيرات السن ليس فقط لأن هناك عدداً كبيراً من الصبيان من أبناء قبيلتهم يطلبون أيديهن ، بل وكذلك لأن أبناء قبيلة حرب في البشور ينحدرون مباشرة من بيئة رعوية حيث يتزوج الأبناء والفتيات صغار السن .

وبطبيعة الحال ، بوسع البدوي أن يتزوج فتاة من مستواه الاجتماعي ، وكذلك بوسعه أيضاً أن يتزوج فتاة من قبيلة أدنى مستوى وذات مكانة متواضعة ، بيد أن البدوية ينبغي ألا تتزوج من مستوى دون مستوى عشيرتها في السلم الاجتماعي . فهي ينبغي أن تتزوج رجلاً إما من قبيلتها ، أو من قبيلة ذات مستوى مساو لمستوى قبيلتها الاجتماعي ، أو ، إن سنحت لها الفرصة ، من قبيلة مكانتها الاجتماعية أعلى من مكانة قبيلتها . وتستند المكانة الاجتماعية للشخص على انتسابه القبلي ، ومكانة عشيرته ، أو قبيلته ، بين العشائر والقبائل الأخرى ، وذلك بغض النظر إن كان ذلك الشخص غنياً أو فقيراً ، كسولاً أو مجداً ، ومجتهداً أو فاشلاً أو مبدعاً في عمله . وكمثال على هذا ، إن شخصاً من قبيلة الأشراف ـ والذين يعدون أشرف القبائل جميعاً ـ عندما تزوج ، من البشور ، من قبيلة حرب ، وهي قبيلة أدنى مكانة من قبيلته ، هو في الحقيقة شخص يفتقد إلى القدرات ، فأبوه فقير إلى درجة أن أبناءه اضطروا إلى الانقطاع عن المدرسة مدة سنتين كي يساعدوا أباهم في الحقل ، وإن كان قد بدا لي بأنهم لا يقلون كسلاً عن والدهم . وقد يكون لجمال المرأة ، أو أواصر الصداقة مع أهلها ، مبرر للزواج .

وتجري الزيجات في قرية البشور ، بين أبناء وبنات الأعمام والعمات ، وبين أبناء وبنات الأخوال والخالات . فابن أخت الشخص الذي كان يسكن في الموقع(أ) تزوج من ابنة ذلك الشخص عندما كانوا يعيشون في قرية البشور . وجرت هنالك أربع زيجات أخرى بين أبناء وبنات الأعمام والعمات في قرية البشور ، ومن هذه الزواج بين أبناء وبنات الأعمام والعمات الذين يسكنون في

البيوت التالية : رقم (٣) ورقم (٩) ، ثم رقم (٢) ورقم (٤٢) ، ورقم (٣٣) ورقم (٣٨) ، ثم ابن الذي يسكن في رقم (٢) الذي كان خاطباً للزواج من ابنة خالته التي تسكن في رقم (١٧) . ومثل هذه الزيجات ضمن العائلة تخلق أحياناً شبكة متشابكة من العلاقات الأبوية والأمومية والأخوية بين السكان .

الزيجات التبادلية ، أي بالبدل ، شائعة ومألوفة هناك . فمثل هذه الزيجات ، التي تحدث بين أسرتين ، غالباً ما تجري بالتفاوض ، وهي غير مرغوبة لأنها لا تنطوي سوى على دفع مهر قليل . فالشخص اليمني «علي» الذي يسكن في رقم (٢٩) له ابنتان من زوجته الأولى ، ولكنه قبل مجيئه إلى البشور قرر أن يطلق زوجته الأولى لأنها لم ترغب في الابتعاد عن والديها ، وعادت إلى عائلتها في اليمن ، فأجرى الترتيبات كي يتزوج إحدى بنات الشخص الذي كان يسكن في «أ» . وفي المقابل ، تم التفاهم على زواج أحد أبناء الشخص الذي يسكن في الموقع (أ) من إحدى بناته من زوجته الأولى التي طلقت منه . ومثال آخر ، عبد الله بن رازن الذي يسكن في البيت رقم (٢) خطيب لابنة شيمي الذي يسكن في البيت رقم (١٧) ، وفي الوقت ذاته تم الاتفاق على أن تتزوج ابنة رازن من ابن شيمي الأكبر بالتبادل .

ويمارس في قرية البشور كذلك تعدد الزوجات ، وهناك رجلان في القرية لكل منهما زوجتان ، وهما رازن ومبارك الذي يسكن في المسكن رقم (٩) . أما علي الذي يسكن في رقم (٢٩) فقد كانت له زوجتان ، وإن كان قد طلق إحداهن عندما جاء إلى قرية البشور . وقد حضرت حفل الزواج الذي أقامه أحد رجال قرية عين شمس احتفاء بعقد قرانه على زوجته الثانية ، وقد دهشت عندما رأيت زوجته الأولى في موقع بارز في حلبة الاحتفال ، وهي تقرع الطبل بسرور وانشراح ، وعندما سألتها ، فيما بعد ، إن كانت تشعر بالغيرة من الزوجة الجديدة فقالت : «لا أبداً ! إن زوجي رجل قادر ، وهو يستطيع أن يعيل زوجتين ، وسيكون لكل واحدة منها مهجعها الخاص بها ، وسيظل زوجي يأتي إليّ مرات كثيرة» ، وقد بدا لي أن زوجتيّ رازن ومبارك في قرية البشور وآخريات رأيتهن ولاحظت أنهن على علاقات ودية بصورة متكافئة فيما بينهن .

هناك أشخاص كثيرون مطلقون في وادي فاطمة ، ولا أحد ينظر لهم هناك نظرة عيب أو عار ، ولعل أنصع مثال على ذلك هو شنماص الذي يسكن في

المسكن رقم (٣٦) ، فهو قد طلق زوجته في عام ١٩٦٨م ، فعادت زوجته المطلقة إلى بيت والدها عطية الذي يسكن في رقم (٣١) . وفي الوقت ذاته ، اتخذ شنماص هذا زوجة جديدة له هي شقيقة المرأة التي طلقها ، ولم يولد هذا الأمر أية تشنجات أو توتر في العلاقات داخل أسرة عطية ، فالطلاق يعتبر عندهم ببساطة مجرد إلغاء لعقد ، كما أن الموت ينظر إليه نظرة مماثلة .

ومن الأمثلة المعبرة في هذا السياق ، ذلك الرجل الذي غادر قرية البشور ليرجع إلى الشامية ، وطلق زوجته في البشور لأنها لم ترغب في فراق والديها . ورغم أن أطفال المرأة الصغار يظلون ، على وجه العموم ، مع أمهم ، فإن هذا الرجل ، بعد الطلاق ، أخذ ابنه معه إلى الشامية .

وأحياناً ، عندما يكبر ابن الرجل المطلق ، قد يرسله أبوه ليعيش مع أمه ، وكذلك نرى أن المرأة المطلقة ، التي تزوجت من جديد ، قد تقرر أن ترسل ابنتها المراهقة من زوجها السابق لتعيش مع أبيها لتحميها من احتمالات المساءلة التربوية من قبل أعمام البنت . فلا يبدو أن الأطفال يشكلون عبئاً ، بعد طلاق والديهم ، لأنه يبقى هناك قدر كبير من التعاون بين أفراد الأسرة في مجتمع يولي غاية الاهتمام للعناية بالأطفال . وكثيراً ما لاحظت أطفال الآباء المطلقين يغدون ويجيئون بين أمهاتهم وآبائهم دون أن يبدو عليهم بأنهم يقاسون ذلك .

تسوية النزاعات الاجتماعية :

بوجه عام ، تتعلق النزاعات الاجتماعية في قرية البشور بأحد ستة أسباب هي : محاولة الغش في توزيع المياه واستخداماتها ، والنزاعات بين الكبار أو الفتيان بشأن الأمور الخاصة ، والمجادلات بين الدائن والمدين ، والمعاناة التي تحدث عندما يصاب أحد الأشخاص العاملين في الأسرة بعاهة أو إصابة تقعده ، وحوادث السيارات والجرائم .

ورغم أن توزيع المياه ينظمه الناظر ، أو المستأجر ، فإن بعض المزارعين يزيفون الطلبات والمعلومات كي يتلقوا حصة من المياه تزيد عن الحصة المقررة لهم . وأما النزاعات بين البالغين بشأن الأمور الشخصية فقد تبدأ حول أمور صغيرة تافهة ، وقد تغدو عميقة للغاية وتؤدي إلى الجرائم .

والديون هي مشكلة عندما يطول أمدها دون أن يتلقى الدائن أي تعويض ،

أو أية وعود، فيتذمر بسبب ذلك. وعند وقوع حوادث سيارات يتأتى تقويم الأضرار وتسوية الأمر بصورة ملائمة.

وغالباً ما يحيل الفرقاء المتنازعون مشاكلهم إلى «مجلس القرية» ويدعى أحياناً كبار القرية. والأعضاء الثلاثة لهذا المجلس، في قرية البشور، جميعهم متقدمون في السن. ويتمتعون بالخبرة، ويحظون بالاحترام، وأحوالهم المادية ميسورة نسبياً. ويضم هذا المجلس الشيخ رازن، وأحمد الذي يعيش في رقم (١٢)، وثابت الذي يعيش في رقم (٢٤). ويعمل مجلس كبار القرية في البشور بصورة تلقائية وبطريقة متساهلة، بيد أن هؤلاء الرجال الثلاثة يبدو أنهم يتخذون، فيما بينهم، القرارات المتعلقة بالمصاعب الاجتماعية والاقتصادية التي يواجهها المجتمع المحلي.

في عام ١٩٦٥م، حظي رازن بدعم إجمالي من السكان، وإن يكن بصورة غير رسمية، عندما غادر الشيخ السابق قرية البشور إلى الشامية. ويحكم أعضاء المجلس فيما إذا كان الشخص المتهم بالغش قد اقترف ذلك فعلاً، ويشجع الشخص الغارق في الديون بالانتباه إلى التزاماته المالية، ويصدر الحكم بشأن النزاعات القائمة. وفي حالات النزاعات، فإن العائلة التي يقضي قرار المجلس بأنها المخطئة أو المعتدية يتأتى عليها أن تذبح كبشاً وتقيم وليمة لصالح العائلة الأخرى ويحضرها المصلحون. ورغم أن هذه العادة، التي تدعى «ملفى»، هي مكلفة، فإن أهل البشور يعتبرون أن هذه هي الطريقة الصحيحة لتسوية العلاقات الاجتماعية المتوترة.

ومن المفروض في الأقرباء أن يبادروا إلى نجدة وإغاثة إحدى عائلاتهم، أو أسرهم التي تتعرض لظروف وأحوال صعبة، نتيجة المرض أو لحدوث حادث أو وقوع وفاة فيها، وإذا تجاهل القريب أمراً كهذا فإن تصرفه يعتبر عيباً يستجلب الاحتقار.

وإذا تعرض المجتمع المحلي للكوارث، وحلت به النوازل، فإن شيخ القرية، أو مجلس القرية، قد يستغيث بالحكومة لتقديم معونات طوارىء. وقد وقعت مأساة من هذا النوع في شهر ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٥٦م عندما جرف سيل عارم السدود وألحق خسائر جسيمة بالقرية وحقولها الزراعية. فمثلاً، جرف هذا السيل بيت الشيخ جرفاً تاماً، وحيث أن حالة الطوارىء هذه كانت

فوق طاقة أهل القرية، وتتجاوز في حجمها وأكلافها إمكانياتهم المحدودة، قامت الحكومة بتعويض عدد من المزارعين عن الأضرار التي لحقت بهم، وقد تلقى الشيخ مبلغ ألفي ريال سعودي (ما يعادل ٤٨٠ دولاراً أمريكياً) من الحكومة كمساعدة لإعادة بناء مسكنه، كما تلقى أهل القرية الآخرون مساعدة مماثلة.

وهناك قصة حقيقية لأسرتين تعيشان في قرية عين شمس تعبر عن المقصود في هذا السياق، وكان من الممكن أن تحدث في قرية البشور ذاتها. ففي عام ١٩٥٦م أنشأ مزارع، في قرية عين شمس، سداً كبيراً ليحمي حقوله من السيل. ومثل هذه السدود، ينبغي إنشاؤها بعناية فائقة بحيث تسمح لمياه السيل المتدفقة في الوادي أن تجري دون أن تحتقن وتسبب الأضرار، ولكن في حالة هذا القروي من عين شمس، عندما جاءت الأمطار الغزيرة وهطلت مدرارة أدت السدود التي أقامها صاحبنا القروي إلى فيضان المياه إلى الحقول الزراعية لجاره حيث ألحقت بها أضراراً جسيمة، فغضب المزارع، الذي غرقت حقوله وتلفت محاصيله، غضباً شديداً وفقد صوابه فقتل المزارع الآخر.

ومن التقاليد المتوارثة، عند البدو، أنه إذا وقع اعتداء على أحد أفراد العائلة فإن من واجب أقربائه، وبني عشيرته، أن يسعوا للثأر والانتقام جزاء وفاقاً لما حل به، وإذا كانت طبيعة الاعتداء قد انطوت على القتل فالسداد هو النفس بالنفس. ونظراً لقابلية مثل هذا الأمر للتصاعد والتعاظم فإن مثل هذه المنازعات بين الأسر غالباً ما تمتد لسنوات كثيرة، وحتى لعدة أجيال، بيد أن الحكومة كانت تحاول أن تستأصل مثل هذه المنازعات وما تنطوي عليها من احتمالات خطيرة، فعندما حدث حادث القتل، المشار إليه، تدخل الأمير وكبار قرية عين شمس ليقنعوا الأسرتين المتنازعتين أن تعرضا قضيتهما على المحكمة الشرعية في الجموم. وقد تبين للمحكمة أن الجاني مذنب، وحكمت عليه بالسجن مدة ثماني سنوات في سجن جدة. وبعد انقضاء مدة محكوميته ذهب مجلس قرية عين شمس إلى ابن المزارع، الذي قُتِلَ والده (وكان عمره تسع سنوات فقط عندما قتل والده) حيث أصبح بالغاً، وسألوه إن كان يقبل مبلغ ١٦٠٠٠ ريال سعودي (أي ما يعادل ٣٤٨٠ دولاراً أمريكياً)، وهو المبلغ الذي يعتبر في المملكة العربية السعودية دية المقتول، أم أنه عازم على طلب القصاص وهو قتل القاتل. وفي نهاية الأمر، استطاع مجلس القرية وكبارها إن يقنعوا الابن بقبول

المبلغ كدية ، وبذلك استطاعوا تحاشي أزمة اجتماعية كان يمكن أن يكون لها عواقب وخيمة في تعكير صفو المودة بين الأسرتين .

المدارس والتعليم :

إن أحد الأسباب التي دعت الأسر ، التي استقرت في قرية البشور ، للاستيطان في تلك البقعة هو أنه كانت هناك مدرسة في قرية دف زيني ، فالأطفال الذين في قرية البشور هم ، بوجه عام ، متحمسون للتعلُّم في المدارس . فالصبيان يأملون أن تساعدهم المدرسة في العثور على أعمال ووظائف برواتب جيدة في المدن ، بينما تأمل الفتيات أن تمكنهن المدرسة من قراءة القرآن . ونظراً لأن الحكومة تدفع معظم تكلفة التعليم ، فإنه يتسنى لمعظم الأطفال في قرية البشور الالتحاق بالمدرسة الابتدائية إما في قرية البشور ذاتها ، أو في دف زيني ، أو في الجموم ، بل إن بعض معاهد التدريب المهني الحكومية في المدن تدفع رواتب شهرية للطلاب الملتحقين بها .

ومن بين الصبيان الخمسة والثلاثين ، الذين كانوا في سن الدراسة في قرية البشور ـ من سبع سنوات إلى تسع عشرة سنة ـ كان خمسة وعشرون صبياً ملتحقين بالمدرسة . ومن بين الصبيان العشرة ، الذين لم يكونوا ملتحقين بالمدرسة ، ستة كانوا ينتظرون الفرصة للالتحاق بالمدرسة ، واثنان كان والدهما بحاجة لهما ليساعداه في العمل في الحقول (رقم٣١ ورقم ٤٣) ، ثم شقيقان (المسكن رقم ١١) كانا في المدرسة ثم انسحبا منها بدافع الكسل . ومن بين الفتيات الثماني عشرة ، اللواتي كن في سن الدراسة أثناء إجرائي البحث لهذه الدراسة ، إحدى عشرة فتاة اغتنمن الفرصة والتحقن بالمدرسة ، فاهتمام الفتيات بالالتحاق بالمدرسة هو أقل من اهتمام الصبيان .

ومن مجموع الأفراد البالغين ، الذين تزيد أعمارهم على (١٣) عاماً في قرية البشور وعددهم ١٠٧ أشخاص ، كان لدى ٣٣ شخصاً منهم شهادات تخرج من إحدى المدارس الابتدائية (من الصف الأول إلى الصف السادس) ، أي ٣٠,٨٪ من البالغين في قرية البشور ، وسبعة أشخاص لديهم شهادات تخرج من المدرسة المتوسطة (الصفوف السابع إلى التاسع) ، بالإضافة إلى المدرسة الابتدائية ، أي ٦,٥٪ من الأشخاص البالغين في قرية البشور . إن ابنَيْ مستور

(مسكن رقم ٤) وحدهما ، وهما عتيق (رقم١) ، وعاتق (رقم٢٨) ، لديهما شهادات تخرج إضافية من معهد المعلمين ، أي ٢٪ من البالغين في قرية البشور ، ثم هناك علي ، الذي يسكن في رقم (٢٩) ، وهو متخرج من إحدى المدارس الدينية في اليمن . وإجمالاً ، إن نحو ٤٠٪ من سكان البشور البالغين ، الذين أعمارهم (١٣) سنة فما فوق ، قد أنهوا إحدى مراحل الدراسة أو التدريب .

وفي عام ١٩٧٠م ، كان ٢٥ طفلاً من القرية ملتحقين بمدرسة دف زيني الابتدائية للصبيان ، وطفلان ملتحقين بالمدرسة الابتدائية في الجموم وثلاثة ملتحقين بالمدرسة المتوسطة للصبيان في الجموم . والمدرسة الابتدائية هي متوسطة الحجم ، وتشتمل على ثمانية مدرسين وفرّاش و١٠٣ طلاب . وكانت إحدى عشرة فتاة ملتحقات بالصف الخاص للفتيات الذي كان يعقد في بيت عتيق رقم (١) في قرية البشور ، والذي كانت تدرّس فيه مؤلفة هذا الكتاب ، بالمشاركة مع باحثة اجتماعية مصرية كانت تعمل في مركز التنمية الاجتماعية . وكان هنالك أيضاً طفلان آخران ملتحقين بمدرستين ابتدائيتين في مدينة مكة . ومن بين الصبيان ، الذين كانوا يدرسون في مدرسة دف زيني الابتدائية ، كان ٢٤٪ منهم من قرية البشور . أما راجي ، الذي يسكن في رقم ٣٥، فله ابنان يقيمان مع عمهما في الجموم كي يتسنى لهما الالتحاق بالمدرسة هناك . وأما الطفلان اللذان يقيمان مع عتيق المدرس ، الصبي يذهب معه إلى مدرسة دف زيني الابتدائية ، حيث يعمل مدرساً ، والبنت كانت ملتحقة بالصف الذي كنتُ أدرسه في قرية البشور ، فلم تكن هناك مدرسة في الشامية حيث كان يعيش والدا هذين الطفلين .

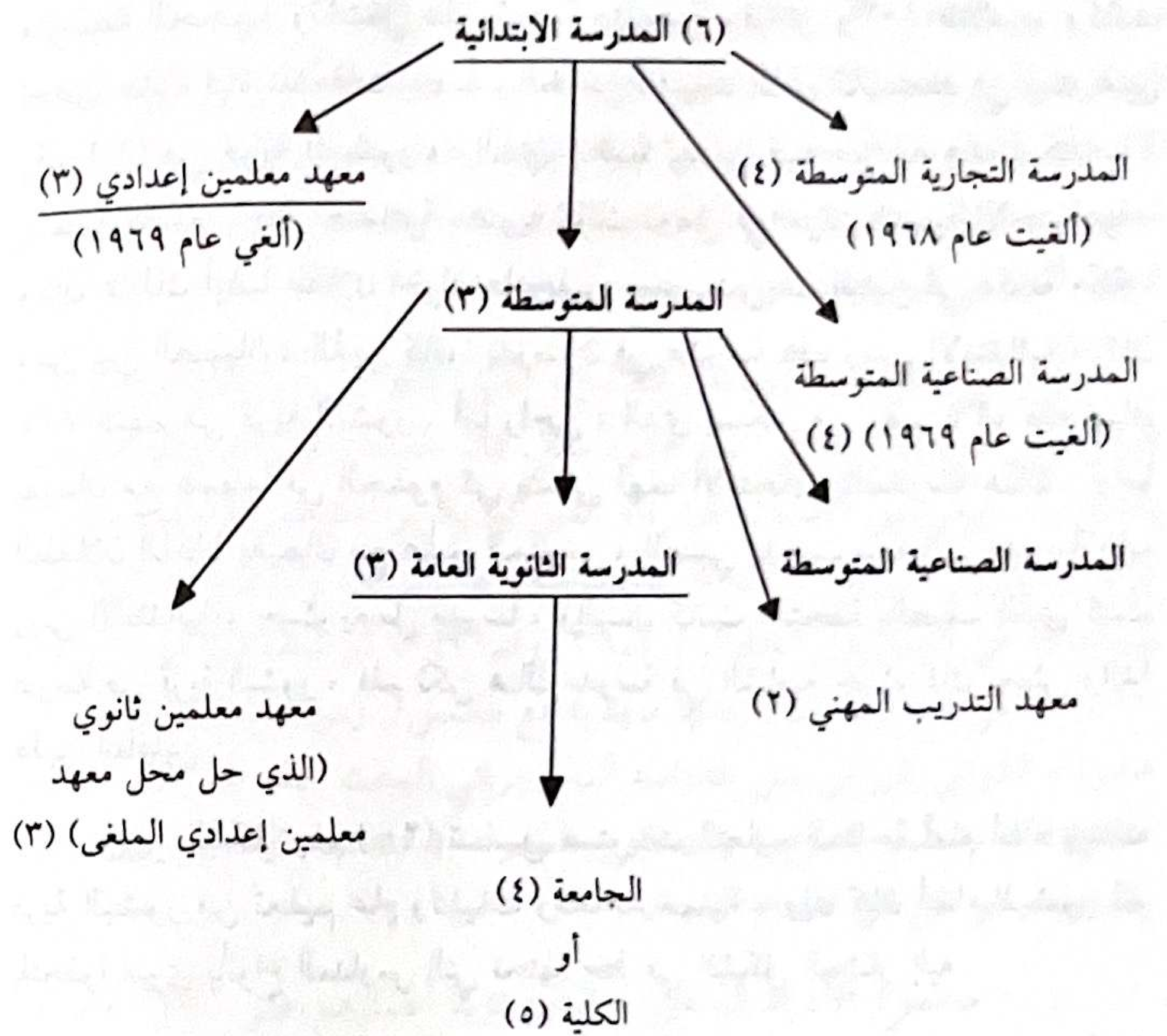
ويبين الشكل رقم (٢٠) تسلسل مستويات التعليم المتاحة أمام أبناء وبنات قرية البشور من تعليم عام وكليات ومعاهد مهنية ، وإن كان أبناء البشور لم يلتحقوا سوى بأنواع المدارس التي تحتها خط في الشكل المشار إليه .

ويبين الجدول رقم (١٥) مستوى القدرة على القراءة والكتابة في قرية البشور . وعندما جمعت هذه الإحصائيات في عام ١٩٧٠م ، كان ستة وثلاثون من مجموع الذكور في قرية البشور ، الذين كانت تزيد أعمارهم ، آنئذ ، على ست سنوات ، وعددهم (٧٩) شخصاً ، يعرفون القراءة والكتابة (٤٥,٦٪) ، بينما كانت عشرة فقط من مجموع الإناث في قرية البشور ، اللواتي كانت تزيد

أعمارهن على ست سنوات ، آنئذ ، وعددهن سبعون أنثى ، يعرفن القراءة والكتابة (أي ١٤,٣٪) . وبناء عليه ، فإن ٣٠,٩٪ من إجمالي سكان قرية البشور الذين كانت تزيد أعمارهم على ست سنوات كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، ويتعاكس هذا مع النسب المئوية العالية من الصبيان والفتيات في قرية البشور الذين يتابعون التعليم الآن ، وأصبحوا يعرفون القراءة والكتابة .

شكل رقم ٢٠ :

النظام التعليمي المتوفر لأهالي بشور



المفتاح :

المدارس التي وضع تحتها خط : حصل بعض سكان بشور على شهادتها .

الأرقام داخل قوسين( ) : عدد سنوات الدراسة المقررة .

الأسهم : الاتجاه الذي يأخذه الطالب الذي يرغب في إكمال دراسته .

جدول رقم ١٥ :

معرفة القراءة والكتابة في البشور

العمر	٦ ـ١٠	١١ ـ١٥	١٦ ـ٢٠	٢١ ـ٢٥	٢٦ ـ٣٠	٣١ ـ٣٥	٣٦ ـ٤٠	٤١ ـ	الإجمالي
السكان الذكور									
أمي	٧	-	-	١	٣	٥	-	٢٧	٤٣
متعلم	١٣	١١	٦	٢	-	١	١	٢	٣٦
إجمالي	٢٠	١١	٦	٣	٣	٦	١	٢٩	٧٩
السكان الإناث									
أمية	٩	٣	٧	٣	٥	٢	٨	٢٣	٦٠
متعلمة	٦	٤	-	-	-	-	-	-	١٠
إجمالي	١٥	٧	٧	٣	٥	٢	٨	٢٣	٧٠
إجمالي السكان									
أمي	١٦	٣	٧	٤	٨	٧	٨	٥٠	١٠٣
متعلم	١٩	١٥	٦	٢	-	١	١	٢	٤٦
إجمالي	٣٥	١٨	١٣	٦	٨	٨	٩	٥٢	١٤٩

وبعض أبناء قرية البشور يعرفون فقط كيف يحسبون بالأرقام ، ولكنهم لا يعرفون القراءة والكتابة بالمعنى المعروف . فمثلاً ، أحمد الذي يسكن في رقم ١٢ فخور جداً بمعرفته للحساب ، وهو يحظى بالاحترام لمهارته هذه . وقبل أن يبدأ أهل البشور استخدام مصابيح الغاز ، كان أحمد يصنع الفحم بمهارة ، أما الآن فإنه تحول إلى زراعة الأرض مثل بقية أهل البشور . وبعض الأشخاص كبار السن في قرية البشور ، الذين يعرفون القراءة والكتابة ، تعلموا ذلك بحضور صفوف يعقدها الفقيه في مسجد القرية . ويمكن تشبيه مثل هذه الصفوف بمدارس صباح الأحد التي تعقدها كنائس البروتستنت في الولايات المتحدة ، أو بالدروس التي تعقد في المعابد اليابانية . وأحياناً تضاف للمسجد غرفة خاصة لمثل هذه الصفوف . كذلك ، فإن شيخ القرية أو الإمام فيها ، يقوم أحياناً بتعليم القراءة والكتابة .

ورغم أن أهل قرية البشور لا يعون مهمات التربية البيتية كمفهوم نظري، فإن الطفل يتلقى في البيت، منذ صغره، تدريباً معيناً متشدداً، فإن أخطأ الطفل في نطقه لبعض الكلمات باللغة العربية فإن والده، أو والدته، يصححان له النطق، وهما يعوّدان الطفل على النهوض مبكراً في الصباح مع بقية العائلة. ويكلف الطفل بواجبات ومسؤوليات محددة مثل إحضار الماء من البئر مرتين في اليوم، كما يعلمونه كيف يعتني بالمواشي وكيف يحميها. ويغذى الأطفال بمشاعر الفخر والاعتزاز بدينهم وبانتمائهم القبلي، فيعلمونهم كيف يصلّون، وكيف يشاركون في المناسبات الاجتماعية الخاصة التي تعقد في المجتمع. وتحرص الأمهات على أن يتصرف أطفالهن مع الغرباء بأدب ولطف، وإن هم أساؤوا التصرف والسلوك فإن أمهاتهم يعزرنهم تعزيراً شديداً. ويحرص أهل البشور على سلامة أطفالهم، ولذلك لا يسمحون لهم بمغادرة القرية وحدهم بلا مرافقة إلى أن يبلغوا خمسة عشر سنة من العمر، وحتى عندئذ، يحذرونهم بألا يذهبوا إلى المدينة وحدهم. وتربية الأطفال هو، في الاعتبار الأول، من مهام الأم في الأسرة. وفي حين أن الفتيات خجولات للغاية ومتحفظات فإنه ليس من المستهجن أن ترى أماً توبخ ابناً لها، حتى وإن كان متزوجاً، بضربه بمنشة من سعف النخيل. وتحظى كلمة الأم في الأسرة، في قرية البشور، بأسمى آيات التقدير. ورغم أننا لا نستطيع، في هذا السياق، أن نقرر إن كان المجتمع في بيئة البشور هو مجتمع أمومي، فإن تأثير الأم كان يُنظر إليه دائماً كقوة يحسب لها حسابها في الأسرة.

الديانة:

لقد سبق لي أن عالجت بالتفصيل الدور الذي يلعبه الدين في حياة الناس في وادي فاطمة (انظر الفصل الخامس)، وأهل البشور نموذج حي من هذه الناحية. فحالما تنصب أول مجموعة من المستوطنين في هذه المنطقة خيامهم، يختارون موقعاً يخصصونه للصلاة ويحيطونه بجدار منخفض من الحصى. وفي عام ١٩٥٩م، تبرع كل واحد من أبناء القرية، حسب طاقته، بمبالغ تتراوح بين عشر ريالات وثلاثين ريالاً للشخص الواحد، وبنوا مسجداً لهم من الطين والحجارة، وكان مجموع تكلفة هذا المشروع (١٠٠٠) ريال سعودي (ما يعادل ٢٤٠ دولاراً أمريكياً). وعندما فرغوا من إنشاء بناء المسجد وضعوا في ركن منه

نعشاً ليستعملوه عند وفاة أحد أبناء القرية، وعدا عن ذلك، لا يستعملون في المسجد أي أثاث آخر.

وعند اكتمال بناء المسجد، أوصى مبارك، الذي يسكن في رقم (٩)، إلى المراجع المختصة في وزارة الحج والأوقاف بأن يكون العامل الزراعي اليمني، الذي كان يعمل في خدمته، وهو علي الذي يسكن في رقم (٢٩)، هو الإمام الرسمي لمسجد قرية البشور، وكذلك، تم تعيين مبارك كمؤذن، فهو علاوة على أنه متعلم يتمتع بصوت رخيم.

وبعض أهل البشور متدينون للغاية، وما من أحد هو أكثر تديناً من عتيق المدرس، الذي كان يسكن في المسكن رقم (١)، وهذه الحكاية الطريفة عن تجربتي الشخصية معه توضح آراءه: عندما رغبت في دراسة قرية البشور بشيء من التفصيل، سألت بعض البدو، من إحدى القرى المجاورة، إن كان من الأفضل لي أن أتصل بالأستاذ عتيق قبل أي شخص آخر، لأحصل على دعمه وتأييده للبحث الذي رغبت في إجرائه، وذلك بصفته مدرساً ومن المثقفين الشبان في مجتمع البشور. وأجابني أهل القرية على الفور: «لا! لا! إياك! إنه متشدد ومتعصب دينياً للغاية مثل المطوع». ولكن، بمضي الزمن، أصبحت وإياه صديقين، وإن كنت أذكر أنه وبخني مرة توبيخاً شديداً. فمن التعاليم الإسلامية أن اليد اليمنى هي نظيفة، في حين أن اليد اليسرى هي «غير نظيفة»، وبالتالي عند تناول الطعام، ينبغي ألا يكتفي الشخص، الحريص على إسلامه، بأن يتناول طعامه بيده اليمنى وحدها، بل عليه، أثناء ذلك، أن يبقي يده اليسرى خلف ظهره. ومرة عندما كنت أتناول طعامي، أخذت ذراعي اليسرى تتعب، ودون أن انتبه، وضعت يدي اليسرى على حافة طاولة الطعام لأريحها، فقام الأستاذ عتيق فوراً يضرب يدي اليسرى هذه منتهراً، فسحبت فوراً يدي اليسرى وأخفيتها وراء ظهري.

في بعض الأحيان تستحوذ المعتقدات الخرافية على التوجيهات العملية للذهن البدوي، وقصة عطية، الذي يسكن في رقم (٥)، هي مثال على ذلك. فعلاوة على الأبناء الخمسة الذين يعيشون معه الآن، كان له ابن سادس كان هو الابن الأكبر، وبعد أن أنهى، هذا الابن الأكبر، دراسته في المدرسة الابتدائية التحق للدراسة بمعهد المعلمين للمدارس المتوسطة في مدينة مكة. وأثناء فترة

دراسته هناك تعرض لحادث ، إذ صدمته سيارة فمات . وقد هز هذا الحادث أباه الفقير بحيث رفض ، بعد ذلك ، أن يسمح لأي من أبنائه الآخرين أن يذهب للمدرسة خوفاً من وقوع المزيد من الكوارث . وبعد انقضاء عدد من السنين ، قرر الأب أن يسمح لأبنائه الآخرين بالالتحاق بالمدرسة ، وإن كانوا قد تأخروا الآن عن أقرانهم السابقين في المدرسة ، فابنه الذي عمره (١٥) سنة هو الآن في الصف الثالث .

رغم أنه يقتضي توفر أربعين رجلاً في القرية قبل بناء مسجد فيها ، فهذا لا يعني توفر أربعين رجلاً دائماً لحضور صلاة الجمعة ، وذلك إذا ألمَّ المرض ، أو طرأت بعض المهمات الملحة فأعاقت بعض أهل القرية عن حضورها . بيد أن عدد الحضور لصلاة الجمعة ، في قرية البشور ، هو عال جداً بحيث أنه لا يتيسر لهم جميعهم الصلاة داخل المسجد والجلوس للإنصات لتلاوة القرآن ، ولذلك يصطف عدد من الحضور للصلاة في الفناء خارج المسجد . وفي نهاية الصلاة وبعد الفراغ من تلاوة القرآن ، تكون هناك فترة مناقشة رسمية إذا كانت لدى بعض الحضور أسئلة ، أو أمور يودون الاستفسار بشأنها ، ثم تعقب ذلك لقاءات يتجاذب خلالها القوم الأحاديث بصورة غير رسمية قبل أن ينصرفوا عائدين إلى بيوتهم . في الرسم الذي في أسفل الشكل رقم(٩) يتسنى للقارىء أن يرى هيئة مسجد القرية . فالجدار المنخفض ، الذي يحيط بحديقة الرمل ، يميز مظهر المسجد الإسلامي عن المسكن الدائم للبدوي ، والذي يحاط بجدار عال لتأمين الخصوصية .

الحياة اليومية :

تنهض الأسرة البدوية صباحاً قبيل الفجر بقليل ، وبعد أداء صلاة الفجر تقوم الأم ، وأحياناً الأب ، بصنع القهوة العربية ، وذلك بتحميص حبات القهوة ثم سحقها في «النجر» الذي يشد بإحكام بين الركبتين أثناء هرس القهوة بالمهباج ، ثم تغلى القهوة على النار . وإيقاع دقات طحن وهرس القهوة بالمهباج ثم رائحة القهوة الطازجة وهي تغلي على النار هي مؤشرات إلى بقية العائلة بأنه قد آن الأوان للنهوض من الفراش ، ومهمة الأطفال ، عندئذٍ ، هي إحضار الماء من البئر وإطعام الحيوانات .

وعند طلوع الشمس ، يتناولون طعام الإفطار في حديقة البيت الرملية ، وهو يشتمل عادة على القهوة والبلح والخبز واللبن . وبعد ذلك ، يتوجه الأب إلى الحقول الزراعية ، وتبدأ الأم أعمالها البيتية ، مثل تنظيف البيت وأعمال الخياطة . وهي تستخدم لتنظيف أرضية البيت مكنسة صغيرة من سعف النخيل ، فتكنس البيت إلى أن يصبح نظيفاً للغاية . وحوالي السابعة صباحاً أو قبل ذلك ، يرسلون الأطفال إلى المدرسة ، التي تبدأ نشاطها حوالي السابعة والنصف صباحاً . وعند الضحى ، يأخذ جميع أفراد العائلة استراحة يسمونها «تلبيبة» ، فتتوقف النساء عن أشغالهن البيتية لتناول القهوة ، ويتجمع الرجال في الحقول تحت شجرة سدر حيث يشربون الشاي ، وأيضاً يتمتع الأطفال في المدرسة باستراحة في الوقت ذاته .

وعند الظهر ، يؤدون الصلاة الثانية ، ثم حوالي الساعة الواحدة والنصف يرجع الأطفال من المدرسة ، وما يلبث الزوج أن يعود من الحقل . وبين الساعة الثانية والثالثة بعد الظهر يتناولون طعام الغداء ، وهو الوجبة الرئيسية في اليوم ، ويشتمل في العادة على الأرز والبندورة (الطماطم) ، وسلطة خضار ، وبصل أخضر وقهوة ، وتستريح العائلة للقيلولة خلال أشد فترات النهار حراً ، ثم ينهضون لأداء صلاة العصر ، في وقت ما بين الساعة الثالثة والرابعة بعد الظهر . وبعد ذلك ، قد يرجع الرجال إلى الحقول ليعملوا فيها إلى مغيب الشمس ، بينما يمضي الأطفال هذا الوقت في اللعب ، أو مراجعة دروسهم ، أو المساعدة في الأشغال البيتية . وخلال موسم الحصاد ، قد يبقى الرجال في الحقول طوال النهار ، فلا يتوقفون عن العمل سوى لتناول وجبة خفيفة عند الظهر ، وخلال هذه الفترة ، عندما يرجعون إلى بيوتهم ساعة مغيب الشمس ، يكونون منهكين للغاية .

وعند مغيب الشمس يؤدون صلاة المغرب ، الزوجة تصلي في بيتها والزوج يصلي في المسجد ، وبعد ذلك بقليل ، تتناول الأسرة البدوية وجبة العشاء ، وهي وجبة خفيفة تشتمل ، في العادة ، على مخلفات طعام الغداء والقهوة والخبز والمربى . وبعد العشاء ، يتجمع سكان القرية ، في العادة ، في مجموعات صغيرة في مساكن مختلفة للسمر والترويح لفترة قصيرة ، فتسر النساء لرؤية بعضهن البعض لأنهن يمضين معظم نهارهن في أداء الأعمال البيتية ، كما يستمتع الرجال ، خلال هذه المسامرة ، بتجاذب أطراف الحديث مع بعضهم البعض .

ويرش ماء الورد على الأقرباء والأصدقاء لدى وصولهم ، ويحرق البخور ، ويقدم للضيوف القهوة والشاي . وفي العادة ، يتوجه البدو للنوم في ساعة مبكرة ، حوالي التاسعة أو العاشرة مساءاً ، والاستثناء لهذا هو عندما يحل على العائلة ضيوف من خارج القرية ، أو عند الاحتفال بمناسبة خاصة . وفي مثل هذه الحالات ، قد تطول فترة السهر والمسامرة ، ويقدم للمحتفلين عشاءاً كبيراً حوالي الساعة الحادية عشر والنصف قبيل منتصف الليل ، وتقديم هذا العشاء ينطوي على إشارة بأنه قد حان وقت انصراف الضيوف ، وتشتمل مثل هذه الوجبة في العادة على السليق ، وهو طعام شهي يتكون من الأرز المطبوخ بالحليب واللحم .

وفي نهار الجمعة ، يؤدي أهل القرية الصلوات الخمس في المسجد ، وعلى العموم ، يعمل المزارعون في أيام الجمعة عملاً أقل من بقية الأيام .

الفصل العاشر

خاتمة وخلاصة

لقد توخيت أن أصف وقائع البنية الاجتماعية الاقتصادية لقرية عربية سعودية بأكبر قدر ممكن من الدقة متحاشية التحليلات المتسرعة والتعميمات . وقد تسنى لهذا المسح الاجتماعي ، الذي يشابه علم الآثار في مناهج بحثه ، أن يجمع الكثير من البيانات الملموسة التي لم يتيسر جمع سوى القليل منها في الماضي .

وقد ألقت هذه الدراسة الضوء على أنواع أنظمة استخدام الماء الثلاثة السائدة في هذه المنطقة الصحراوية وهي : نظام الري بمياه السيل ، والري بواسطة قنوات الجبس القديمة ، والري بواسطة خطوط أنابيب المياه العصرية التي تغتذي بضخ المياه من الآبار . وكذلك تحرت هذه الدراسة استخدامات البدو للأرض سواء من حيث المبدأ أو الممارسة ، وسواء كانت هذه الاستخدامات للأغراض السكنية أو الزراعية . ولقد تسنى في هذه الدراسة الاستقصاء بصورة كاملة ، وللمرة الأولى ، لمفاهيم المناطق القبائلية والملكية الفردية للأرض والأنواع الثلاثة من أنظمة أراضي الوقف من حيث علاقتها بوضع حقيقي . واشتملت هذه الدراسة ، كذلك ، على معطيات أخرى تتعلق بالمشاكل الرئيسية التي تواجه المجتمع العربي السعودي ، في أيامنا هذه ، مثل : تأمين القوى العاملة اللازمة لمسيرة التصنيع الجارية هناك ، ومن أجل تطوير الزراعة بغرض تخفيف اعتماد اقتصاد البلاد على مصدر واحد للدخل وهو الموارد النفطية .

وكان من أهم أغراض هذه الدراسة ملاحظة السكان البدو الذين يعيشون في إطار تفاعل معقد للقوى الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية الفاعلة في منطقة تحتل موقعاً استراتيجياً بين مدينتين كبيرتين . وأود هنا أن ألخص طبيعة القوى

الاقتصادية الرئيسية والقوى الاجتماعية التقليدية التي تعمل بصورة مستقلة عن بعضها البعض إلى حد ما. فكل من هذه القوى تعمل على تشكيل كينونة وجود كل واحد من السكان البدو. وبعد ذلك، سأناقش مسار التطور المتوقع للبنية الاقتصادية - الاجتماعية في المملكة العربية السعودية، وذلك استناداً على عناصر شتى البيانات والمعطيات المجموعة.

وادي فاطمة، الذي كان يتمتع بالازدهار الزراعي بفضل وفرة مياهه نسبياً، قد غدا الآن في حالة اضطراب اقتصادي. فأكثر من عشرة شعاب مجاورة تنساب نحو وادي النهر الجاف العريض، وعندما يهطل المطر تحدث السيول التي تحمل معها التربة البركانية الغنية من منحدرات الجبال المجاورة إلى الوادي. وحيث أن وادي فاطمة يقع في منطقة صحراوية، والمعدل السنوي لدرجة الحرارة فيه ثلاثون درجة مئوية، فإن الماء، في هذا الوادي، هو من أثمن الموارد وأكثرها حيوية. ولكن، لا يحظى هذا الوادي سوى بأربعة أيام أو خمسة من أمطار السيول في السنة. ولذلك فإن مصدر الازدهار الذي كان ينعم به هذا الوادي في الماضي هو وفرة مياه الينابيع الغزيرة التي كانت تكثر في المنطقة. ولكن، بعد أن تم مد خط أنابيب المياه من منطقة وادي فاطمة إلى مدينة جدة في عام ١٩٤٨م، وإلى مدينة مكة في عام ١٩٦٥م، جرى استنزاف الكثير من المياه من المنطقة، وقد تآزر هذا الاستنزاف مع موجات الجفاف في نضوب مياه الكثير من الينابيع نضوباً تاماً حتى جفت تماماً وقلت الأمطار. وفي عام ١٩٦٩م، لم يبق في الوادي سوى ١٦ نبع ماء جيد. فقد جفت الآبار الضحلة المحفورة باليد، وانخفض منسوب المياه الجوفية انخفاضاً شديداً، وغدا من الضروري حفر آبار مياه عميقة بالآلات. وحيث أن معظم المزارعين، في هذه المنطقة، كانوا من صغار ملاك الأراضي وأساليب زراعتهم بدائية، لم تتوفر لديهم أية مدخرات ليستثمروها في حفر آبار المياه العميقة بالآلات. وبعض هؤلاء المزارعين، الذين جفت ينابيع المياه في أراضيهم، أصبحوا يفلحون بضمان الأرض أو استئجارها من الملاك المحظوظين، الذين ما زال في أراضيهم ينابيع مياه جارية، والتي كان معظمها في أعالي الوادي، وبعض المزارعين تمسكوا بأراضيهم وبقوا فيها رغم تضاؤل مواردها.

ثم ظهر على المسرح المستأجر الرأسمالي كمالك للماء يستأجر الأرض

من الملاك الفقراء ثم يحفر فيها آبار المياه العميقة. فحيث أن بيع الأرض الموروثة إلى الآخرين - وخصوصاً لأبناء القبائل الأخرى - يعتبر من الأمور المشينة، لذلك كان يفضل ملاك الأراضي تأجير أراضيهم للمستأجرين ومعظمهم من تجار المدن. ونتيجة ذلك، أصبح بعض ملاك الأراضي مزارعين ضامنين للأرض التي يستأجرونها من المستأجرين، رغم أن الأرض هي لهم في الأساس، ورغم احتفاظهم بحقوق ملكيتها. وبعض ملاك الأراضي الآخرين الذين عهدوا بأراضيهم لمستأجري المياه انتقلوا للعيش في المدن المجاورة مثل جدة ومكة حيث يمتهنون التجارة أو يقومون بأعمال أخرى، ويستمرون في استلام إيجار أراضيهم التي عهدوا بها لمستأجري المياه. وبعض ملاك الأراضي المحظوظين الذين في أراضيهم ينابيع مياه في أعالي الوادي، استأجرت أراضيهم إدارة العين العزيزية وأصبحوا أثرياء بين عشية وضحاها، وانتقلوا للعيش في المدن.

من المعروف أن من يسيطرون على الماء يسيطرون على اقتصاد الصحراء، والذين يطلق عليهم في وادي فاطمة اسم المستأجرين هم ليسوا، في الحقيقة، من المزارعين الضامنين للأرض أو المستأجرين لها، بل يحتفظون بمزارعين آخرين، وأحياناً بملاك الأرض الأصليين أنفسهم، ليفلحوا الأرض التي استأجروها، ويزودونهم بالماء الذي يضخونه من الآبار العميقة. وبعض المستأجرين الذين هم من تجار المدن الأثرياء ينشئون في الأراضي التي استأجروها مشتلات ومزارع وبساتين عصرية يستثمرون فيها مبالغ معتبرة من المال[٨]، وهم يتوخون زراعة محاصيل مربحة، ويستأجرون عمالاً زراعيين بأجور شهرية. فالعمال الزراعيون، الذين كانوا يعملون في السابق في خدمة المزارعين المحليين الصغار بأجور يومية، أخذ الآن يستخدمهم هؤلاء المستأجرون الرأسماليون بأجور شهرية، والبدو الذين يقبلون مثل هذا العمل يتأتى عليهم أن يستقروا هناك بصورة دائمة. ويقوم سائقو سيارات الشحن التي يملكها، في الغالب، المستأجرون الرأسماليون بنقل المحاصيل إلى المدن حيث يقوم الدلال بتوزيع هذه المحاصيل على الأسواق في أنحاء المملكة العربية

(٨) جون ال. سيباه: برنامج تحسين مزرعة الحد زيني، الرياض، وزارة الزراعة، ١٩٥٧ (تقرير غير منشور).

السعودية ، فيبيعها للرياش الذين يدفعون أعلى الأسعار ، أو أنه يجري الترتيبات لتصديرها إلى أسواق الأقطار الأخرى في الشرق الأوسط ، وفي غرب آسيا . فالجمّالون التقليديون الذين كانوا ينقلون البضائع على ظهور جمالهم انتهى دورهم وفقدوا وظيفتهم ، ورغم أنه قد عرضت عليهم أعمال بديلة مثل العمل كنواطير لآبار المياه ، أو كمنظفين لهذه الآبار ، وما إلى ذلك ، فإنهم رفضوا القيام بهذه الأعمال باعتبارها عيباً وأعمالاً مشينة . وما زال بعض المزارعين يستخدمون بعض أنظمة الري القديمة بواسطة القنوات ، كما ينشئون سدوداً رملية ويستخدمون أنواعاً مختلفة من أساليب الري كي يتسنى لهم استغلال مياه الأمطار ، التي قلما تهطل في تلك البقاع ، استغلالاً تاماً . وهكذا أخذت تتطور ، في منطقة وادي فاطمة ، أنماط معقدة من الاقتصاديات الزراعية تنطوي على أنماط متباينة من ملكية الأرض والماء واستخدامات العمال والأرض وتوزيع الدخل .

ولا يقتصر تأثير أنماط الاقتصاد الجديدة على بنية المزرعة ، بل هي خلّفت آثارها الملموسة في حياة السكان هناك . فالسلع العصرية غدت جزءاً من حياة السكان البدو ، وقد حلت السيارات الشاحنة ، وسيارات الجيب ، والدراجات ، خلال سنوات قليلة ، محل الجمال والحمير كوسائل للنقل . وكثيرون من السكان البدو يملكون راديو ترانزيستور ، ويسمع عابر السبيل أصوات مسجلات الكاسيت تصدح عبر رمال الصحراء . وتعتبر نساء البدو ماكينة الخياطة اليدوية من المقتنيات الضرورية لهن في خيامهن وبيوتهن ، وأحياناً ، تلمع على البرقع ، الذي ترتديه النساء البدويات على وجوههن ، أزرار عصرية بدلاً من قطع النقد الذهبية والفضية التي كانت تستخدم تقليدياً لهذا الغرض . وتعج لوحات الإعلانات العصرية ، المنصوبة إزاء الطريق الرئيسي بين مدينتي جدة ومكة ، بالإعلانات المغرية عن شتى السلع اليابانية والأمريكية ، فغدت الماركات المختلفة من هذه السلع مألوفة لدى بدو وادي فاطمة حتى وإن كانوا لا يعرفون أين تقع اليابان ، أو أين تقع أميركا على خريطة العالم . وقد تم مد خط للاتصالات الهاتفية بين مدينة مكة وبلدة الجموم ، وتم تأمين أجهزة الهاتف لعدد محدود من المكاتب وبيوت بلدة الجموم . وتتوفر في قرى الوادي الآن صناديق الثلج لتأمين مياه الشرب الباردة وتبريد الحاجيات الأخرى . ويتوقع المرء أنه ، عندما يتم مد خطوط الكهرباء للمنطقة ، سينشأ طلب فوري على المراوح الكهربائية ، وغير ذلك من الأجهزة الكهربائية ، علاوة على أغراض الإضاءة بالكهرباء . فقد كان من الحوافز

الرئيسية التي دفعت سكان قرية البشور إلى التخلي عن حياة البداوة والاستقرار كمزارعين هو رغبتهم في الحصول على شيء من المال لشراء السلع العصرية .

في مثل هذه الأجواء الاقتصادية المضطربة ، يمكن أن يفترض المرء بسهولة بأن هذا التحول الاقتصادي السريع يمكن أن يقلب حياة البدو التقليدية رأساً على عقب ، ولكن ، كما رأينا في هذه الدراسة ، إن القوى التقليدية القوية تعمل بصورة مستقلة ، نوعاً ما ، عن القوى الاقتصادية . فنفوس الناس هناك مشبعة ، بصورة عميقة وراسخة ، بأنماط معينة من القيم ، فحتى أفقر سكان قرية البشور لا يمكن أن يقبلوا أداء بعض الأعمال المعينة مثل العمل كنواطير لآبار الماء ، أو تنظيف هذه الآبار ، والحلاقة ، وما إلى ذلك من أعمال ومهن ، مع أن مثل هذه الأعمال يمكن أن تؤمن ، للواحد منهم ، دخلاً أعلى من دخله من عمله الحالي ، بل إنهم يشعرون بشيء من الخجل لاضطرارهم لممارسة الزراعة . فعندما بدأوا ممارسة الزراعة ، تعرضوا للاحتقار والازدراء من جانب أقرانهم السابقين ، الذين استمروا يعيشون في البادية كبدو رحل ، والإزدراء لأنهم تخلوا عن حياة البادية بما تتسم به من شظف العيش وما تتطلبه من شجاعة ، والركون بدلاً منها إلى حياة المزارعين الخاملة . وينحو المزارعون إلى إخفاء حقيقة أنهم يربون الدواجن في بيوتهم ، لأنهم يعتبرون هذا أيضاً من العيب ، ولولا أن كاتبة هذه السطور استخدمت الحيلة وطلبت من تلميذاتها أن يحسبن عدد ما عند أهلهن من دجاج وديوك ، لما تسنى لها أبداً أن تعرف بالدقة ما لدى أهل قرية البشور من دجاج . ومسألة الشعور بالعيب تجاه ممارسة العديد من الأعمال تشكل عقبة كأداء تحول دون خلق قوة عمل نشيطة للتنمية الاقتصادية في الوادي .

وقد لاحظنا أنه لا يوجد تميز طبقي كبير سواء بين مالك الأرض ، أو المستأجر ، أو الناظر ، أو المزارع الضامن للأرض ، بل هناك نقلة اجتماعية كبيرة بين هذه الفئات : فالمزارع الضامن للأرض يمكن أن يصبح مستأجراً أو مالكاً للأرض ، كما أن مالك الأرض قد يصبح مزارعاً ضامناً للأرض . بيد أن الناس هناك يعتبرون أصولهم القبلية وتقاليدهم مهمة للغاية ، وغالباً ما تجد في وادي فاطمة أنه رغم العلاقات الاقتصادية الكائنة بين مالك الأرض والمستأجر والمزارع الضامن فإنهم لا يختلطون مع بعضهم اجتماعياً البتة ، لسبب بسيط وهو أنهم ينتمون لقبائل مختلفة تتفاوت في منزلتها الاجتماعية (انظر في الشكل رقم (١٠)

مثال العلاقات بين أهل قرية دف زيني وأهل قرية البشور).

وهذا التميز الاجتماعي له نتائجه الاقتصادية؛ فقد لاحظنا أن عموم عمال إدارة العين العزيزية هم من قبيلة عتيبة، وبالتالي فإن أبناء القبائل الأخرى لا يحاولون البتة العمل بهذه الإدارة، ولكن، بدأ مؤخراً، في المدن، التحاق أبناء قبائل مختلفة للعمل معاً في شركة واحدة، وحتى في هذه الحالة هم لا يختلطون اجتماعياً البتة، وعندما تزودهم الشركة بالخيام أو البيوت لإسكانهم فكثيراً ما يلاحظ المرء أن بعض هذه الخيام مزدحمة بساكنيها مثل ازدحام السردين، وبعضها الآخر تكاد أن تكون شبه خالية، وذلك نتيجة تمسك البدو بأصولهم القبلية والعرف السائد.

ويشعر السكان البدو في وادي فاطمة بأنهم يعيشون في ديار مهد العقيدة الإسلامية، وأحد أسباب استقرارهم في تلك المنطقة هو رغبتهم في الإقامة على مقربة من مدينة مكة المقدسة، الأمر الذي ييسر لهم أداء فريضة الحج لها كل سنة. وكل يوم، أثناء أوقات الصلاة الخمسة، تقفل المحلات التجارية أبوابها، كما تنقطع برامج التلفزيون لفترة وجيزة. وقد تبدو هذه الممارسات كأمور محبطة للتقدم وذلك في نظر الذين يقيسون التقدم العصري بمعايير الكفاءة والكفاية في النشاطات الاجتماعية والاقتصادية، بيد أنه من الممكن أن يتوقع المرء تطور نوع من التقدم العصري الفريد الذي يتلاءم مع عقيدتهم.

ورغم أن معايير القيم عندهم قد أظهرت نوعاً من الاستجابة والتجاوب مع التغيرات الاقتصادية، فإنه قد لوحظ أيضاً بأن هذه المعايير تؤثر هي بدورها في أنماط التنمية الاقتصادية. فمن المحتمل أن نظرتهم إلى أنواع معينة من العمل قد تتغير تدريجياً، مثلما جرى في نظرتهم للعمل في الزراعة بحيث أصبح كثيرون منهم يقبلون على العمل الزراعي بدلاً من الاستمرار في حياة البداوة. فرغبتهم في الحصول على المال والشعور بالطمأنينة الاجتماعية واقتناء السلع الكمالية، التي تعج بها أسواق المدن، هي جميعها أمور لا تغيب عن أذهانهم ونظرتهم العملية. فيتردد الآن على ألسنة السكان في وادي فاطمة المثل السائد «صنعة في اليد أمان من الفقر»، وينطوي هذا المثل على أن العمل اليدوي لا يحظى بالترحيب الكامل في صفوفهم، بيد أنهم أخذوا يدركون بأنه حتى العمل الوضيع هو أفضل من الفقر، بيد أننا لا نستطيع أن نستخلص ببساطة بأن احتياجات البدو

ستحوّل جوانب حياتهم الاجتماعية إلى الأنماط العصرية، المقرونة غالباً بالغرب والتفرنج.

إذن، ما هي القوى التي يمكن أن تلعب أدواراً كبرى في صياغة النهج الفريد الذي سينتهجونه في تحديث البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية لمجتمعهم هذا؟ إن أول ما تجدر الإشارة إليه، في هذا السياق، هو قوة التعليم. فكما لاحظنا، بصورة تفصيلية، أن إقبال الفتيات والفتيان على الالتحاق بالمدارس هو عال جداً. وتتوفر الفرصة لجميع القرويين للالتحاق بالمدارس إما في قريتهم ذاتها، أو في قرية مجاورة لهم. والبواعث التي تحفزهم على الالتحاق بالمدارس إما الطموح للحصول على أعمال بأجور أفضل في المدن النامية، ودون أن تكون هذه الأعمال من النوع الذي يعتبرونه مشيناً، أو الرغبة في القدرة على قراءة القرآن كي يصبحوا، رجالاً ونساء، أكثر استيعاباً لحقائق دينهم، وغالباً ما يؤدي التحاقهم بالمدارس إلى تحقيق رغبتهم هذه، كما يؤدي إلى توسيع آفاق نظرتهم إلى العالم، وهذا قد يؤدي بصورة تدريجية، إلى اضمحلال قوة مشاعرهم بانتماءاتهم القبلية، مع أن هذا الأمر لم يحدث حتى الآن في وادي فاطمة.

وقد أشار الدكتور ويليام رو، خلال مؤتمر لرابطة دراسات الشرق الأوسط في عام ١٩٧٢م، بأن الطلاب السعوديين يفدون للالتحاق بالجامعات الأميركية من قبائل وعشائر مختلفة في المملكة العربية السعودية، لا يرتبط أبناؤها، في الغالب، بعلاقات الود والوئام، ولكنهم، خلال فترة دراستهم في هذه الجامعات، يلتقون ويتعارفون ويصبحون أصدقاء جيدين، ثم يعودون إلى بلادهم وقد انمحت من نفوسهم آثار العداوات أو الحزازات القبلية القديمة المتوارثة، وإن كان ينبغي القول بأن هذا لا ينطبق سوى على أقلية ضئيلة من سكان المملكة العربية السعودية، وهم أولئك المحظوظون الذين سنحت لهم الفرصة للدراسة في المعاهد والجامعات الأجنبية المكلفة، وعندما يعود الطالب إلى المملكة، يعود إلى عشيرته، ولكن من المتوقع أن مثل هذا التلاشي لروح العصبية القبلية، في المجتمع العربي السعودي، هو أمر لا مفر منه في نهاية المطاف.

رغم أن الدين غالباً ما يعتبر من العوامل المعيقة للتحديث، فإن للإسلام تأثيرات مشجعة لحركة التحديث العصري في المملكة العربية السعودية. وقد استخدم الملك عبد العزيز ابن سعود الإسلام، من الناحية السياسية، لترسيخ

أركان المملكة العربية السعودية في العشرينات وفي الثلاثينات، وغدا الإسلام من القوى الموحدة للجماعات القبائلية والأفراد. إن الإسلام، في المملكة العربية السعودية، هو المرجع الذي يشار إليه في وجه تأثيرات التحديث، وهو مصدر تشجيع هذه التأثيرات وهضمها في الكيان القائم، ومن المؤكد أن الالتزام بالإسلام هو من القوى الداعمة للوطنية السعودية، ويسير مركز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وادي فاطمة على عدم التراخي في المعايير الأخلاقية، وبالفعل تكاد لا تكون هناك أية جرائم في المنطقة، ويبدو لي أن المواطنين العرب غير السعوديين، كاليمنيين والفلسطينيين الوافدين إلى وادي فاطمة، قد أصبحوا، بعد استقرارهم في الوادي، أكثر إيماناً بالإسلام، فالدين هو عروة وثقى تؤلف بين قلوب الوافدين حديثاً وقلوب المواطنين السعوديين، فإمام قرية الشور هو، كما رأينا، من اليمن، وتشجع الحكومة الناس على الحماس في دينهم، كما أن قوانين القضاء المطبقة هناك مستمدة من الشريعة الإسلامية.

ويدعو الإسلام، الذي يمارس في السعودية، إلى العودة إلى التعاليم الأصلية للإسلام، ويستنكر عبادة جميع الأولياء، وأية ممارسة تضعف من عبادة الله الواحد الأحد. فالإسلام ينهى عن النواح على الميت وإقامة الشواهد على القبور[1]، وبالتالي، فقد سهل تشكيل نظرة عملية إلى العالم[2]، وما يتسم به الإسلام من سمات عملية تواءمت كل التواؤم مع الروح العملية التي هي من صميم حياة الإنسان البدوي. وهكذا، يتبين لنا بأن سمتين أساسيتين يتسم بهما الإسلام وهما نزوعه إلى المساواة بين البشر، واتصافه بالروح العملية، ويمكن اعتبارهما من العناصر الداعمة والموحدة للبنية الاجتماعية. ففكرة أن جميع الناس هم سواسية أمام الله تتجسد في جموع الحجاج الذين يفدون كل عام إلى مدينة مكة، والذين سواء كانوا من المسنين أو من الشبان، وسواء كانوا من النبلاء أو من العوام، يلفون أجسادهم بقطعتين من القماش البسيط الأبيض. ولم

(١) لتاريخ موجز عن الوهابية، انظر جورج رنتز: الوهابية والعربية السعودية في شبه الجزيرة العربية. مطبوعات هوبوود، ص٥٤-٦٦.

(٢) سؤال مهم أياً كانت نظرية ماكس ويبر حول المسيحية البروتستانتية والتطور الاقتصادي الوهابية.

نلاحظ تبلوراً للوعي الطبقي بين ملاك الأراضي والمزارعين بالضمان، والناظر والمستأجر. إذن، أليس من المعقول أن نتوقع اضمحلال تبلور الشعور بتدرج المنزلة الاجتماعية بين الجماعات القبائلية؟ فهذا التدرج يستند أساساً على الشجاعة وروح الفروسية التي كانت تتجلى في الغزوات والحروب القبائلية، وهي أمور حظرت ومنعت عند تأسيس المملكة العربية السعودية، كما أنها لم تعد تشغل بال الأجيال الشابة في ذلك المجتمع. أما الجماعات الصغيرة، مثل الأشراف والشيوف، التي تعتبر من الجماعات المتميزة بفضل انتسابها للنبي محمد فإنها قد تحافظ على مكانتها التكريمية. ولكن، حيث أن نزعة الإسلام لمكافحة الاعتقاد بالأولياء والقديسين تشمل، لا شك، منع عبادة النبي محمد، فإن هذا يعني أن مكانة هذه الجماعات قد تضعف في المستقبل.

ورغم أن القبيلة ما زالت تعتبر كينونة اجتماعية مهمة في المجتمع البدوي، فإن الوحدة الاجتماعية المحركة، في المجتمع البدوي، هي ليست القبيلة الكبيرة، بل العشيرة أو الأسرة، وكما لاحظنا فيما تقدم، أن الوحدة الاجتماعية الحية بين البدو هي في الغالب الأسرة الأساسية. وفي دراسة له عن الأسرة[1]، يصف الباحث وليام جود الأسرة الإسلامية العربية بأنها من الأسر المتشعبة التي تتألف من الزوج والزوجة، أو زوجاته، وأبنائهما وبناتهما غير المتزوجين، وكذلك أبنائهما المتزوجين وزوجاتهم وأطفالهم. بيد أن الحال هو ليس كذلك في وادي فاطمة، وإن كان يوجد نوع من الأسرة المتشعبة في المدن مثل جدة والرياض[2]. فالذي نجده في وادي فاطمة هو الأسرة الأساسية التي تتألف من الأم والأب وبناتهما وأبنائهما غير المتزوجين. وعندما يتزوج الواحد من هؤلاء الأبناء، أو البنات، ينتقل للعيش مع قرينه في مسكن منفصل مستقل عن مسكن الوالدين، وإن كان من المحتمل أن يكون قريباً من مسكن والدي الزوجة.

وسواء كان المسكن الذي يعيشون فيه هو خيمة بدو رحل أو بيتاً دائماً، فإن مسكنهم يتألف دائماً من غرفتين رئيسيتين، إحداهما للذكور والأخرى للإناث، فهم لا يفكرون أبداً في بناء عدة غرف. وحيث أن الوحدة الاجتماعية

(١) وليام ج. جود: ثورة العالم والوحدة العائلية، ص٨٩.

(٢) حسن خفاجي: تغيير حجم الأسرة في مدينة الرياض، (مخطوط بالعربية غير منشور).

الحية، وهي الأسرة، هي صغيرة الحجم نسبياً فإن هذا يساعدهم في النقلة. وحتى أثناء إجرائي لهذا البحث كانت المجموعات العشائرية، وغالباً الأسر المنفردة، تفد إلى قرية البشور أو تغادرها، بحيث أن المعطيات الإحصائية، التي جمعتها خلال فترة إعداد هذا البحث على مدى عشرين شهراً، قد أصبحت معقدة جداً كما يلاحظ القارىء النبيه، وهذه النقلة الاجتماعية هي، ولا شك، من العوامل المشجعة على تشكيل نوع جديد من المجتمع العصري.

ومما يزيد من وتيرة حركة النقل في مجتمعهم هذا الانفتاح على المؤثرات الخارجية. فهم بحكم موقعهم الجغرافي، منفتحون على نطاق عالمي، على المسلمين الآخرين بنحلهم ومذاهبهم المختلفة، والذين يفدون إلى مدينتي مكة وجدة من شتى أقطار العالم، وهذا يكسبهم روح التسامح تجاه الآخرين الذين يختلفون عنهم في الشكل والأسلوب. ويقوم سائقو السيارات الشاحنة من أبناء الوادي بزيارة مدن الأقطار الخارجية المجاورة مثل دمشق وبغداد، حيث ينقلون إليها أحمالهم من المحصولات والمواد التموينية. وفي عام ١٩٧٠م، وفد إلى الوادي زهاء (٥٠٠) شخص أجنبي للعمل هناك كنواطير لآبار المياه، أو كمنظفين لهذه الآبار، وكعمال زراعيين، وميكانيكيين للسيارات، وكخبراء زراعيين، ومعلمين، وأصحاب المهن الطبية، وغير ذلك من الأعمال اليدوية والمهنية. ومعظم الأعمال التي يمارسها هؤلاء الوافدون هي إما من الأعمال العالية التخصص أو أنها تعتبر من أعمال العيب المشينة عند السكان البدو هناك. وقد جلب الأجانب الوافدون إلى هذه المنطقة أفكاراً جديدة وطبائع وعادات جديدة، وأنماطاً مختلفة من الملابس، وتأثيرات أخرى في نواح مختلفة، هذا وإن كان بعض أصحاب المهن العاملين في المنطقة لم يكونوا فعالين ومؤثرين بالقدر المرغوب بسبب نقص فهمهم لأهل الصحراء، وبسبب قلة اهتمامهم بهم، وعدم تعاطفهم معهم. ففيما عدا بعض الاستثناءات نجد أن الموظفين العاملين في مركز التنمية الاجتماعية، وجلهم من أبناء الأقطار العربية الأخرى، ومن المتعلمين خارج السعودية، ينصب اهتمامهم على الرواتب العالية التي يتقاضونها في السعودية، وهي أعلى بكثير من مستوى الرواتب في بلادهم، وينقصهم الالتزام بأحوال وشؤون مجتمع البدو. وفي حقيقة الأمر، إن مدير مركز التنمية الاجتماعية، وهو من القلائل الذين يتصفون بالالتزام والحماس لمجتمع وادي

فاطمة، وهو الشخص السعودي الوحيد من أبناء قبيلة حرب، الذي يعمل في ذلك المركز.

والمشكلة أن السعوديين الذين سنحت لهم الفرصة للتعليم أو التدريب، سواء في السعودية ذاتها أو في الاقطار الخارجية، يجنحون للعمل في المدن وليس في المناطق الصحراوية. فهناك مؤثرات قوية تجذب سكان وادي فاطمة إما نحو المدن أو للعودة إلى مرابعهم الأصلية في البادية، بينما لا تتوفر لهؤلاء السكان مؤثرات قوية تدعوهم للبقاء في وادي فاطمة وصنع مستقبل لأنفسهم هناك. وكما لاحظنا، فيما سبق، ليس هناك من الفتيان، الذين يلتحقون بالمدارس، من يرغبون في العمل كمزارعين، ولا حتى كمرشدين زراعيين في وادي فاطمة. كما لاحظنا أن المثقفين، الذين يعملون في المدن ويعيشون فيها، كثيراً ما يزورون أقاربهم من أبناء قبيلتهم، الذين ما زالوا يعيشون في البادية، ويبدو أنهم يبرهنون بذلك على أنهم قادرون على تحقيق نوع من التوفيق والملاءمة بين الحياة في المدينة وحياة الصحراء من منطلق وعيهم المتزايد بهويتهم كمواطنين عرب سعوديين.

وأختم حديثي بطرح بعض التكهنات:

أود أن أقترح بأنه من الممكن حشد وتعبئة القوى التقليدية لتسخير طاقاتها في خدمة عملية التحديث الجارية في المملكة العربية السعودية. فعلى سبيل المثال، وكما رأينا فيما سبق، نرى أن النساء في وادي فاطمة هن، على عكس ما يظنه الجاهلون بالحقائق، أعضاء عاملة ونشيطات في المجتمع المحلي، وذلك رغم الانطباع الأولي الذي يتشكل لدى المرء عندما يراهن، للوهلة الأولى، محجبات بهذا الحجاب الأسود وراء براقعهن وملتفات بالعباءة. فالفتيات الصغار منهن يعتلين سنام الجمل، وتركب الواحدة منهن الجمل لمسافة بعيدة عن بيتها، وهي ترعى الأغنام والماعز، وكذلك ترى الأم تحمل طفلها في الزق المصنوع من جلد الماعز والذي تعلقه بكتفها، فهي في حين تحرص على ستر بدنها أمام الناس فإنها لا تهاب في المغامرة بالقيام برحلاتها إلى المدن بغرض التسوق أو زيارة الأصدقاء أو غير ذلك. وكانت مجموعة من النساء كثيراً ما يزرنني في بيتي في مدينة جدة، وكن يتركن أطفالهن وراءهن في عهدة أزواجهن أو لدى إحدى القريبات في الجوار. فالمرأة، وخصوصاً المتزوجة،

والتي لديها أطفال، هي عضو محترم في المجتمع غاية الاحترام، وفي أوقات الأعياد، وغير ذلك من المناسبات، تحظى مثل هذه المرأة بالتكريم ويقوم الرجال بخدمتها والعناية بها. وتتطلع النساء إلى فرصة الحصول على القبول اجتماعياً من بنات جنسهن، والنساء القديرات منهن يتمتعن بقدر كبير من السلطة والنفوذ في مجتمعهن، حتى وإن كان لا يبدو في الظاهر أنهن نشيطات على الصعيد السياسي. وكما ذكرنا سابقاً، إن اسم وادي فاطمة هو مستمد من اسم إحدى النساء القويات، وقرى كثيرة قد جرت تسميتها بأسماء النساء القويات اللواتي عشن فيها، أو نسبة إلى بعض المناقب التي تصف بعض النساء. وفي مسيرة المملكة العربية السعودية الطويلة نحو التحديث، من هو الذي يستطيع أن ينكر القوى العظيمة الكامنة لدى النساء وإمكانياتهن في دعم مسيرتهن نحو التحديث دون الإخلال بميراثهن الثقافي أو مجافاة الأعراف والتقاليد؟

ورغم القول الشائع بأن بعض الناس يهزأون من التقاليد المتوارثة بينما يتهالكون وراء صرعات الموضة[1]، فإنني أود أن أقول في هذا المقام بأن مسيرة التحديث هنا يمكن أن تستوحي من هذه التقاليد ما يلهمها ويشد من أزرها.

---

(١) مثلاً، انظر: يوسف .أ. صايغ: **المشاكل التربوية في العالم العربي في الدين والتقدم في آسيا الحديثة**. مطبوعات رويرت ن. بيلا، (نيويورك، المطبعة الحرة، ١٩٥٥).

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع في دار الكتب المصرية
٩٦/٢٢٤٢
I.S.B.N. 977 - 5444 -09 - 8

تعد هذه الدراسة إنجازاً رفيع المستوى ، فهي ثمرة جهد مضنٍ وخلاصة عمل جاد ، أسست على منهج علمي ، وتضم معلومات وبيانات دقيقة وهامة قد لا تتوفر في أي مصدر آخر عن تلك الحقبة الزمنية ، والمنطقة الزراعية ذات التاريخ الضارب في العمق ، والكثافة السكانية الآخذة في الازدياد ، والأهمية الاقتصادية في تغذية مدينتي مكة المكرمة وجدة بالماء وبالانتاج الزراعي .

